كتاب الذريعه الى مكارم الشريعه سلسه ٢١

يكي جامع

ايا صوفيه

٢٨٩٦

N. S.

ذريعه في علم مشايخ

كتاب الذريعة الى مكارم الشريعة من قبل التصوف

٢٨٩٦

قد وقف هذه النسخة الجليلة سلطاننا الاعظم والخاقان المعظم مالك البرين
والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان ابن السلطان السلطان الغازي
محمود خان وقفا صحيحا شرعيا لمن طالع واستفاد
وانا واسعد خلد الله ملكه الى الابد حرره الفقير
احمد شيخ زاده المفتش باوقاف
الحرمين الشريفين عفي عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم

نسال الله بجوده الذى هو سبب الوجود نورا يهدينا الى الاقبال عليه • ويميل بنا
الى الاصغاء اليه • ويدلنا على حسن معاملته • والقوة على النفاذ على طاعته
وان يجعلنا من جملة من ضمن ان يحرسهم من غوائل الشيطان • حيث قال ان عبادى
ليس لك عليهم سلطان • الا من اتبعك من الغاوين • وجعلهم الشيطان مثنوية
اليمين حيث فبعزتك لاغوينهم اجمعين • الا عبادك منهم المخلصين قال
ابو القسم الراغب رحمه الله كنت قد اشرت فيما امليته من كتاب تحقيق البيان فى تاويل
القرآن الى الفرق بين احكام الشريعة ومكارمها وان المكارم المطلقة هى اسم
لما لا يتحاشى من وصف البارى تعالى باكثرها نحو الحكم والجود والحلم والعفو وان كان وصفه تعالى
بذلك على حد اشرف مما يوصف به البشر وان الاحكام تتناول ذلك والعبادات
وانه باكتساب المكرمة يستحق الانسان ان يوصف بكونه خليفة الله تعالى المعنى بقوله
انى جاعل فى الارض خليفة وبقوله ويستخلفكم فى الارض فينظر كيف تعملون
وقوله وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم
فيما آتيكم واشرت الى ان خلافة الله تعالى لا تصح الا بطهارة النفس كما ان اشرف العبادات
لا تصح الا بطهارة الجسم وقد استخرت الله تعالى الآن وعملت فى ذلك كتابا يكون ذريعة
الى مكارم الشريعة وبينت كيف يصل الانسان الى منازل العبودية التى جعلها الله
شرفا للاتقياء وكيف يترقى عنها اذا وصلها الى منزلة الخلافة التى جعلها الله
شرفا للشهداء والصديقين فبالجمع بين احكام الشرع علما وابرازها عملا يكتسب
العلى ويتم التقوى ويتبلغ الى جنة المأوى ورغبنى ايها الفاضل وفقك الله لرشدك
واعاذك من شر نفسك فى تصنيفه ما رايت من تشوقك بان تزين ما ولاه الله
من حسن خلقك وخلقك بما يتولاه من تحسين ادبك واكمال مروتك فما اجدر

٢٨٣

ذلك الصبيح ان يحصل وراءه الراى الصحيح حتى تصادف اترجا طيبا معا
حملا ونورا وطاب العود والورق فما اقبح بالمرء ان يكون حسن جسمه باعتبار قبح
نفسه جنة يعمرها بوم وصرمة يحرسها ذيب كما قال الحكيم لجاهل صبيح اما البيت
فحسن واما ساكنه فردى وان يكون باعتبار كثرة ماله وحسن اثاثه ثورا عليه
جل فقد سمى بعض الحكماء الاغنياء الاغبياء تيوسا صوفها در وحمرا جلالها حبر
ودخل حكيم على رجل فراى دارا مشيدة وفرشا مبسوطة وراى صاحبها خلوا من
الفضيلة فبزق فى وجهه فقال ما هذا السفه ايها الحكيم فقال بل هذا حكمة ان البصاق
ليرمى به الى اخس مكان فى الدار ولم ار فى دارك اخس منك فنبهه بذلك على دناءة الجهل
وان قبحه لا يزول بادخار القنيات فكن ايها الاخ عالما وبعلمك عاملا تكن من اولياء
الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون واحذر الشيطان ان يسبيك ويغويك باعراض
الدنيا وزخارفها فيجعلك من اوليائه ويخوفك بوساوسه كما قال تعالى انما ذلكم الشيطان
يخوف اولياءه واعلم انه قبيح بذى العقل ان يكون بهيمة وقد امكنه ان يكون انسانا وقد
امكنه ان يكون ملكا وان يرضى بقنية معارة وحيوة مستردة وله ان يتخذ قنية
مخلدة وحيوة مؤبدة فلم نر فى عيوب الناس نقصا كنقص القادرين على التمام
وان اردت ان تعرف بقاء العلماء الاتقياء فاعتبر ما قال امير المؤمنين على رضى الله عنه
مات خزان الاموال وهم احياء والعلماء باقون ما بقى الدهر اعيانهم مفقودة
وآثارهم فى القلوب موجودة وان اردت ان تشاهدهم فى الجنة يتنعمون فاستفد
من حال حارثة حيث قال للنبى عليه السلام اصبحت مؤمنا حقا فقال عليه السلام لكل حق حقيقة فما
حقيقة ايمانك فقال فى جملة جوابه وكانى انظر الى اهل الجنة يتزاورون فيها فصدقه فيها
وقال له عرفت فالزم ولا يحد عنك عن طلب ذلك واحذر الذين يصدون عن سبيل الله
ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون فقد وصفهم الله تعالى بالصمم والعمى اذ قال

ما يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ۝ ثم ذمّهم بقوله اولئك الذين خسروا انفسهم وضلّ
عنهم ما كانوا يفترون ۝ ثم فرّق بينهم وبين من ضادّهم فقال مثل الفريقين كالاعمى والاصمّ
والسميع والبصير هل يستويان مثلا افلا تذكرون ۝ فاخبر تعالى انهم لا يسمعون ولا يبصرون
لفقدان سمع القلب وبصيرته اللذين لهما ينال حقايق المسموعات والمبصرات ذكر
الفصول والابواب الفصل الاول في احوال الانسان وقواه وفضيلته
واخلاقه مثل اهل الدنيا وما رشح اليه ماهيّة الانسان وكيفية تركيبه في قوى الانسان
تعاون القوى الروحانية وكيفية ادراكها بيان فضيلة الانسان على ساير الحيوان
بيان ما به يفضل الانسان كون منزلة الانسان بين البهيمة والملك ما لاجله
اوجد الانسان السياسة التي يستحق بها خلافة الله تعالى الفرق بين مكارم الشريعة
وبين العبادة وعمارة الارض كون طهارة النفس شرطا في صحة خلافة الله وكمال
عبادته فيما يفزع اليه في طهارة النفس بيان منازعة العقل والهوى الفرق بين ما
يسومه الهوى وما يسومه العقل في ذكر الخاطر الذي يعرض من جهة العقل والهوى
حصول الخلق المحمود بطهارة النفس الفرق بين الطبع والسجية والخلق والعادة
والهوى امكان تغيير الخلق صعوبة اصلاح القوة الشهوية وما في هذه القوة من
المنفعة والمضرة ازدياد الانسان في الفضائل والرذائل بتعاطيها الفرق بين ما
يحمد ويذم من الخلق سبب اختلاف الناس في اخلاقهم وجوب اكتساب الفضيلة
المحمودة انواع نعم الله الموهوبة والمكتسبة حاجة بعض هذه الفضائل الى بعض
الفضايل المطيفة بالانسان الفضايل الجسمانية ما يتولد من الفضايل النفسية
الفضايل التوفيقية في تلازم الفضايل بعضها بعضا البواعث على فعل الخير وتحرّي
الفضايل المانع من تحرّي الفضايل الارتقاء في درجات الفضائل والانحدار عنها
الى اقصى الرذايل تهذيب الدين تردّدوا في الرذائل حتى فسدت اخلاقهم اصناف الناس

الفصل الثاني في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادّها فضيلة العقل
انواع العقل المكتسب من العقل الدنيوي والاخروي منازل العقل واختلاف اساميها
بحسبها جلالة العقل وشرف العلم الفرق بين العلم والعقل وبين العلم والمعرفة والدراية
والحكمة توابع العقل ثمرة العقل من معرفة الله الضرورية والمكتسبة وغاية ما يبلغه
الانسان من ذلك وجوب بعثة الانبياء عم وفقد الاستغناء عنهم ما يعرف به صحة
النبوة كون الرسل والعقل هادين للخلق الى الحق تعذّر ادراك العلوم النبوية على
من لم يتدرّب في العلوم العقلية الايمان والاسلام والتقوى والبرّ في الايمان في معنى
قول النبي عم الايمان بضع وسبعون بابا في انواع الجهل كون العلم مركوزا في نفوس الناس
حصر انواع المعلومات ما يعرف به فضيلة العلوم استحسان معرفة انواع العلوم
معاداة بعض الناس لبعض العلوم الحث على تناول البلغة من كل علم والاقتصار عليه
احوال الناس في استفادة العلم وافادته ما يجب على المتعلم ان يتحرّاه مع المعلم ما يجب على
المعلم ان يتحرّاه مع المتعلمين منه وجوب منع الجهلة عن حقايق العلوم والاقتصار بهم على
قدر افهامهم وجوب ضبط المتصدّين للعلم ومضرة اهمال ذلك ذكر من يصلح لوعظ
العامة الحال التي يجب ان يكون الواعظ عليها صعوبة المعيار الذي يعرف به حقايق العلوم
كراهية الجدال للعوام وذمّه على كل حال ما يجب ان يعامل به الجدل المماحك الوجوه التي من اجلها
يقع الشبه والخلاف بيان اختلاف الناس في الاديان والمذاهب النطق والصمت الصدق
ومدحه الكذب وذمّه ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب انواع الكذب والسبب
الداعي اليه الذكر الحسن من المدح والثناء الشكر الغيبة النميمة الكلام المستقبح المزاح
والضحك الحلف الفصل الثالث فيما يتعلق بالقوى الشهوية الحياء كبر الهمة الوفاء
والعدل المشاورة النصح كتمان السرّ التواضع والكبر الفخر العجب انواع اللذات وتفاصيلها
ما يحسن تناولها من المطعم وما يقبح ما يحسن تعاطيه من المنكح وما يقبح ذكر العفة القناعة

والزهد الورع **الفصل الرابع** فيما يتعلق بالقوى الغضبية ما ينبع من القوى
الغضبية الحمية انواع الصبر ومدح الشجاعة اسماء انواع الفزع والفرق بين ما يحمد
منها وما يذم مداواة الغم وازالة الخوف احوال الناس في محبة الموت وكراهته الاختيار
لقلة المبالاة به السرور والفرح الغدر والتوبة الحلم والعفو ثوران الغضب وفضل
كظم الغيظ والجزاء الغبطة والمنافسة والحسد **الخامس** في العدالة والظلم
والمحبة والبغض ذكر العدالة وفضيلتها انواع العدالة وما يستحسن ذلك فيه ما يحسن
ترك العدالة فيه ذكر الظلم الاسباب التي يحصل منها الاضرار ذكر المكر والخديعة
والكيد والحيلة ماهية المحبة وانواعها فضيلة المحبة فضيلة الصداقة ذكر التحبب
في الناس الحث على مصاحبة الاخيار ومجانبة الاشرار فضيلة التفرد من الناس
ورذيلته العداوة **الفصل السادس** فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب
والانفاق والجود والبخل حاجة الناس الى اجتماعهم للتظاهر تسخير الله همم الناس
للصناعات المختلفة وعناية كل احد بما يتحراه كون الفقر وخوفه سبب نظام امور الناس
مناسبة الابدان للصناعات وجوب التكسب مدح السعي وذم الكسل تقاسيم الصناعات
وتفضيل بعضها على بعض في ان اصول الصناعات ماخوذة عن وحي والهام في ثبات
الناس المعاملة وبيان حكم الله تعالى فيه مدح المال وذمه ذكر المال والادب في
اقتنائه والوجوه التي منها يحصل سبب اخفاق العالم وانجاح الجاهل تحقيق كون
المال في ايدي الناس بتفاوت احوال المتساوين للاعراض الدنيوية في بيان ما وله
من الآيات المتفاوتة الظاهرة في شأن الدنيا احوال الناس في مراعاة امور
الدنيا والآخرة بيان حال من يجوز له الاستكثار من اعراض الدنيا ومن لا يجوز له
ذلك ما ينال ارباب الدنيا من العقوبات الدنيوية الانفاق الممدوح والانفاق
المذموم حقيقة السخاء والجود والشح والبخل فضيلة الجود وذم البخل انواع الجود والمجود به

الفصل السابع في ذكر الافعال انواع الافعال الفرق بين الفعل والعمل والصنع
انواع الصناعات الافعال الارادية ما يستحق به من الافعال اللوم وما لا يستحق
ذلك الاسباب التي يمكن نسبة الفعل اليها فهذا مائة وستة واربعون بابا والله اعلم

الفصل الاول في احوال الانسان وقواه وفضيلته وما يشبه به الانسان في احواله
مثل اهل الدنيا وما يتحراه الانسان في هذه الدار كما قال امير المؤمنين علي رضي
الناس سفر والدنيا دار ممر لا دار مقر وبطن امه مبدأ سفره والآخرة مقصده
وزمان حياته مقدار مسافته وسنوه منازله وشهوره فراسخه واسابيعه ميادله
وايامه امياله وانفاسه خطاه يسار به سير السفينة براكبها كما قال رايت اخا الدنيا
وان كان خافضا اخا سفر يسرى به وهو لا يدري وقد دعى الى دار السلام كما قال
لهم دار السلام عند ربهم وقوله تعالى والله يدعو الى دار السلام ويوجه به الى اشرف
الدرجات واللذ الثمرات جنات تجري من تحتها الانهار بل جنة عرضها السموات والارض
اعدت للمتقين لكن لما كان الطريق اليها مضلة ومظلمة قد استولى عليها اشرار ظلمة
جعل الله تعالى من العقل الذي ركبه فيها وكتبه التي انزلها علينا نورا وهاديا ومن عبادته
كتبها علينا وامرنا بها حصنا واقيا فقال في وصف نوره الله نور السموات والارض
مثل نوره الآية فجعل المصباح مثلا للعقل والمشكوة مثلا لصدر المؤمن والزجاجة
لقلبه والشجرة المباركة وهي الزيتونة للدين وجعلها لا شرقية ولا غربية تنبيها انها
مصونة عن التفريط والافراط كما قال تعالى ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم والزيت للقرآن
وبين ان القرآن يمد العقل مد الزيت المصباح وانه يكفي لوضوحه وان لم يعاضده العقل
وقال نور على نور اي نور القرآن ونور العقل وبين انه يخص بذلك من يشاء وقال في وصف
ما جعله لنا من الحصن ان عبادي ليس لك عليهم سلطان اي المتخصصين بعبادتي فمن لم يتم
برعاية نوره وحماية حصنه عمه في دجاه فتمكن من استغوائه عداه كما قال تعالى ومن يعش عن

ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وانهم ليصدونهم الآية فمن لم يتزود من دنياه
زاده كما امر الله تعالى بقوله وتزودوا فان خير الزاد التقوى وكان رحلته فيسترجع منه
اعيز من حسد وداتره فيتحسر حين لا يغنيه تحسره فيقول يا ليتنا نرد ولا نكذب الآية
ويقول هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا الآية ح لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل
وايضا فان الانسان من وجه في دنياه حارث وعمله حرثه ودنياه محرثه ووقت الموت
وقت حصاده والآخرة بيدره ولا يحصد الا ما زرعه ولا يكيل الا ما حصده ولذا قال تعالى
من كان يريد حرث الدنيا الآية وكما ان البيدر مكاييل وموازين وامناء وحفاظا
وشاهدين كذلك في الآخرة مثل ذلك كما في قوله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة
وقال تعالى وان عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون وقال تعالى وجيء بالنبيين
والشهداء الآية وكما ان البيدر تذرية وتمييزا بين النقاوة والحطام كذلك في الآخرة
تمييز بين الحسنى والآثام كما قال الله تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب الآية وقال تعالى
في اعمال الكفار مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح الآية وقدمنا
الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا فمن عمل للآخرة بورك في كيله ووزنه وجعل له
منه زاد الابد كما قال تعالى ومن اراد الآخرة وسعى لها الآية ومن عمل للدنيا خاب سعيه
وبطل عمله كما قال من كان يريد الحيوة الدنيا وزينتها الآية واعمال الدنيا كشجر الخلاف
بل كالدفلى والحنظل في الربيع يرى غض الاوراق حتى اذا جاء حين الحصاد لم ينل طائلا
واذا حضر محتبناه البيدر لم يغن نائلا ومثل اعمال الآخرة كشجر الكرم والنخل المنقبح
المنظر في الشتاء واذا جاء وقت القطاف والاجتناء افاد نزلا وله خرت منه
علقة وعتادا والى نحوها اشار بقوله تعالى ضرب الله مثلا كلمة طيبة الى قوله ما لها من قرار
ولما كان زهرات الدنيا رائقة الظاهر خبيثة الباطن يسرع الاغترار بها قال ولا تمدن
عينيك الى ما متعنا الآية **مائية الانسان** وكيفية تركيبه الانسان مركب من جسم

مدرك بالبصر ونفس مدركة بالبصيرة واليهما اشار بقوله تعالى اني خالق بشرا فاذا سويته
الى قوله ساجدين فاشار بالروح الى النفس واضاف الروح الى النفس واضافه تعالى
اليه تشريف له وعنى بها النفس المذكورة في قوله تعالى اخرجوا انفسكم ووجود النفس للانسان
لا يحتاج ان يدل عليه لوضوح امره بل ينبه الجاهل لها والغافل عنها بانها هي التي
بحصولها في الجسم يحصل الحيوة والحركة والحس والعلم والراي والتمييز ويكون الجسم متصرفا
بها وحاملا ومستحسنا ومستطابا ومحببا ويفقد بعدم هذه الاشياء فتصير جيفة
يحتاج الى عدة تحمله وهي محل الاعراض الروحانية كالجسم في كونه محلا للاعراض الجسمانية
وقد حث الله تعالى على تدبر النفس والتفكر فيها وجعل معرفتها مقرونة بمعرفته في قوله
وفي الارض آيات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون وقال سنريهم آياتنا في الآفاق
وفي انفسهم وكان تعالى في الامم السالفة من انكر البارئ رجم ومن انكر النفس رجم لكونه
جاهلا وقيل في الكتب المنزلة اعرف يا انسان نفسك تعرف ربك وقال النبي عم اعرفكم بنفسه
اعرفكم بربه بل قد قال تعالى ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانسيهم انفسهم تنبيها انهم
لما نسوا الله دل نسيانهم اياه على نسيانهم لها وقالت الحكماء قد ركب الله تعالى الانسان تركيبا
محسوسا معقولا على هيئة العالم واوجد فيه نسخة كل ما هو موجود في العالم حتى قيل
الانسان هو عالم صغير ومختصر للعالم الكبير وذلك ليدل به على معرفة العالم ليتوصل
بها الى معرفة صانعها فغاية معرفة الانسان لبارئه تعالى ان يعرف العالم فيعلم انه موجد
وان له موجدا ليس مثله تعالى **في قوى الانسان** قد جعل الله للانسان خمس قوى تدل على وجودها
فيه ما يظهر من تأثيراتها قوة الغذاء وبها يظهر النشو والتربية والولادة وقوة الحس
وبها الاحساس واللذة والالم وقوة التخيل وبها تصور اعيان الاشياء بعد غيبوبتها
عن الحس وقوة النزوع وبها يكون الطلب للموافق والهرب من المخالف والرضا والغضب
والايثار والكراهية وقوة التفكر وبها يكون النطق والعقل والعلم والحكمة والروية والتدبير

والمهنة والرأي والمشورة فاما القوى المدركة منها فالحواس الخمس والخيال والتفكر والعقل
والحفظ واما الحواس فلكل منها ادراك مخصوص فللمس عشر ادراكات الحرارة البرودة
الرطوبة اليبوسة اللين الخشونة الصلابة الرخاوة الثقل الخفة وللذوق سبع الحلاوة
المرارة الملوحة الحموضة الحرافة العفوصة التفه وللشم اثنان الطيب والنتن
وللسمع اثنان الصوت الخفيف الصوت الثقيل وللبصر احد عشر النور الظلمة اللون
الجسم وسطحه وشكله ووضعه ورفعه وابعاده وحركاته وسكناته واعداده فادون
هذه الادراكات اللمس ثم الذوق ثم الشم فالنفس لا تكاد تستعين بها الا فيما يعود نفعها
الى صلاح الجسم وارفع الادراكات العقل ثم الفكر ثم التخيل ثم الحس لان العقل والفكر يدركان
الاشياء الروحانية فاما السمع والبصر فمتوسطان فانهما يخدمان النفس والجسم
وخدمتهما للنفس اكثر ويدركان الاشياء الجسمانية والتخيل متوسط بين العقل والفكر
وبين السمع والبصر فتارة ياخذ من السمع والبصر ويسلم الى العقل والفكر وذلك في حال
اليقظة وتارة ياخذ من العقل والفكر ويسلم الى السمع والبصر وذلك في حال النوم ولما كان
مبدأ تأثير هذه القوى من الدماغ قيل مسكن الفكرة وسط الدماغ ومسكن الخيال مقدمه
ومسكن الحفظ والذكر مؤخره ولما كان قوام الدماغ بل قوام الجسم كله من القلب الذي منه
منشأ الحرارة الغريزية صار في كلام الناس يعبر عن هذه القوى مرة بالدماغ فيقال
لفلان دماغ اذا قوي منه هذه القوى المدركة وفلان خالي الدماغ اذا ضعف منه هذه
القوى وتارة يعبر عنها بالقلب والثاني اكثر وعلى ذلك قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان
له قلب ولما كان ادراك الحقائق بهذه القوى المدركة وكان الفكر خادمة للعقل والتخيل خادما للعقل
والفكر تارة وللسمع والبصر تارة خص الله تعالى بالذكر القلب وهو احد الطرفين والسمع والبصر
وهو الطرف الآخر وبذلك عظم الله تعالى المنة على الانسان باعطائه اياه هذه الثلاثة وحمد من
استعملها وذم من اهملها فقال جعل لكم السمع والابصار والافئدة وقال في ذم من لا ينتفع

بها لهم قلوب لا يفقهون بها الآية وقال صم بكم الآية اي لا يفهمون المعنى الا انهم لا يسمعون
الاصوات ولا يبصرون الذوات وانما جعلهم كذلك من حيث انهم لا يوردون معنى مستنبطا
بالفكر ومدركا بالعقل واعلم ان السمع والبصر اخوين يخدم كل واحد منهما صاحبه في ادراكه
فقد ينوب السمع عن البصر في ابلاغ القلب ما ياخذه من اللفظ فيدرك في ساعة ما لا يدركه
البصر في برهة وينوب عن السمع في ابلاغ القلب بمطالعة الكتب ما لا يدركه السمع هذا
سيما اذا كان المخاطب ناقص العبارة او غير متثبت في الكلام او دق المعنى وغمض

تعاون القوى الروحانية وكيفيات ادراكها القوى الروحانية متعاونة في ادراك
رسوم المعلومات فان الخيال يتصور عن المحسوس فيقع فيه صورته الروحانية
فينتقش بها انتقاش الشمع بصورة الخاتم ثم ياخذه الفكر فيميز بعضها عن بعض بنور
العقل فيبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ثم يؤديه الى القوة الحافظة فان اراد
ابرازه قولا سلط عليه القوة الناطقة فيعبر عنه باللسان وان اراد ابرازه فعلا سلط
عليه العاملة فتوصله بالجوارح وقد ذكر بعض الحكماء مثلا لهذه القوى يعرف منه
تصورنا تأثيراتها فقال ان القوة المفكرة ومسكنها وسط الدماغ بمنزلة الملك يسكن
وسط المملكة والخيالية ومسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى خازنه والقوة الناطقة
جارية مجرى ترجمانه والعاملة جارية مجرى كاتبه والحواس جارية مجرى الجواسيس
واصحاب الاخبار الصادقي اللهجات فما يرفعونه من الاخبار فيلتقط كل واحد الخبر
من الصقع الذي وكل به فيرفعه الى صاحب البريد وصاحب البريد يسقط منه ما يراه
حشوا ويرفع الباقي صافيا الى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره ويسلمه الى خازنه
الى وقت الحاجة فيتقدم باخراجه قالوا وكما ان للملك افعالا يستعين فيها بغيره وافعالا يتعاطاها
هو فيها بنفسه والافعال التي يتولاها بنفسه اشرف مما يفوضها الى غيره كذلك للقوة المفكرة
افعال يفوضها الى غيرها وافعال تختص هي بها وهي الروية والفكر والاعتبار والقياس

والفراسة فبهذه الاشياء تدبير الامور واستخراج الغوامض وتحصيل التجربة واستنباط
المجهول بتوسط المعلوم والاطلاع على الاسرار ونحو هذا المعنى ما روى ان كعب الاحبار
قال دخلت على ام المؤمنين عايشة رض فقلت الانسان عيناه هاد واذناه قمع ولسانه
ترجمان ويداه جناحان ورجلاه بريد والقلب ملك فاذا طاب الملك طاب جنوده فقالت
هكذا سمعت رسول الله صلعم **بيان فضيلة الانسان** للانسان فضل على الحيوان كلها
في نفسه وجسمه اما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العقل والعلم والحكمة والتمييز
والرأي فان البهايم وان كانت كلها يحس وبعضها يتخيل فليس لها فكر ولا روية ولا استنباط
المجهول بالمعلوم ولا تعرف علل الاشياء واسبابها وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية
وانما يتعلم بعضها بعض الصناعات المتخيلة وانواعها في ذلك الفيل والقرد واما فضله في جسمه
فاليد العاملة واللسان الناطق وانتصاب القامة الدال على استيلائه على كل ما وجد في
هذا العالم وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم وبقوله
وصوركم فاحسن صوركم ولم يعن الصورة التخطيطية فقط بل عناها والصورة المعقولة وبتشريفه
تعالى اياه بذلك قال ولقد كرمنا بني آدم الآية ومن زعم ان الانسان خلق خلقة ناقصة
عن الوحشيات من حيث لم يكف الملبس كما كفيته ولم يعط سلاحا في ذاته كما اعطى كثير منها
فنظره ناقص اذ قد اعطي الانسان بدل ذلك التمييز الذي يمكنه ان يتخذ به كل ملبس وكل
سلاح حسب ما يريد فيفيده له متى اراد ويضعه متى احب ثم لو اعطي الانسان بعض الآلات
التي اعطيته لم يمكنه ان يستعمل غيره كالوحشيات وايضا فلو اعطي ذلك لكان من الحق ان
لا يعطى التمييز لانه كان يستغني عنه فيبطل فايدته وفعل الله تعالى منزه عن ذلك ان قيل فكيف
قال تعالى وخلق الانسان ضعيفا قيل ضعفه بالاضافة الى الملاء الاعلى لما فيه من الحاجات البدنية
التي قد كفيها واعلم ان كل ما وجد في هذا العالم فانما اوجد لاجل الانسان اما للانتفاع به
كالخيل والبغال والحمير وكالاغذية له كالبقر والغنم والحبوب والثمار واما للانتفاع بما ينتفع

الانسان كالعشب والحشرات وما لا يعرف الانسان فليس يخرج من كونه نافعا وقد بين الحكماء
نفع جلها وما لا سبيل لبعضنا او لكلنا الى معرفة نفعه فليس جهلنا به قادحا في حكمة الله
في ايجاده ورب شيء جهلنا نفعه وقد سخر لمعرفته بعض الحيوان كالشجر الذي فيه العسل
بالقوة وما سخر لمعرفته واستخراجه الا النحل وما اليق من اكرمه الله تعالى بحكمه ان
ينشد وما علي اذا لم تفهم البقر **بيان ما به يفضل الانسان الانسان** وان كان هو بكونه
انسانا افضل موجود فذلك بشرط ان يراعي ما به صار انسانا وهو العلم والعمل المحكم وبقدر
وجود ذلك المعنى فيه يتفاضل ولهذا قيل الناس ابناء ما يحسنون اي ما يعرفون ويعملون
من العلوم والاعمال الحسنة يقال احسن فلان اذا علم واذا عمل حسنا واما من حيث ما يتغذى
وينسل فنبات ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان ومن حيث الصورة التخطيطية فكصورة في جدار
وانما فضيلته بالنطق وقواه ومقتضاه ولهذا قيل ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة
او صورة ممثلة فالانسان يضارع الملك بقوة العلم والنطق والفهم ويضارع البهيمة بقوة
الغذاء والنكاح فمن صرف همته كلها الى تربية الفكرة بالعلم والعمل فخليق ان يلحق بافق
الملك فيسمى ملكا ربانيا كما قال تعالى ان هذا الا ملك كريم ومن صرف همته كلها الى تربية القوة
الشهوية باتباع اللذات البدنية ياكل كما تاكل الانعام فخليق ان يلحق بافق البهايم فيصير
اما غمرا كثور او شرها كخنزير او ضرعا ككلب او حقودا كجمل او متكبرا كنمر او ذا روغان
كثعلب او يجمع ذلك كله فيصير كشيطان وعلى ذلك قوله تعالى وجعل منهم القردة والخنازير
وعبد الطاغوت ولكون كثير ممن صورته صورة الانسان وليس هو في الحقيقة الا كبعض الحيوان
قال الله تعالى في الذين لا يعقلون عن الله ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا وقال ان شر الدواب
عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون فنبه ان الذين كفروا ولم يستعملوا القوة التي
جعلها الله لهم هم شر من الدواب وقال مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق الآية اي مثل
واعظ الكافرين كمثل ناعق الاغنام تنبيها انهم فيما يقال لهم كالبهائم وبهذا النظر عيّر الشاعر

عن بعض من دونهم فقال اللوم اكرم من وبر ووالده واللوم اكرم من وبر وما ولدا ولم يعلم
ومن ولدا تنبيها انه لا يستحق له ان يقال من لكونه بهيمة وعلى هذا قال المتنبي تخطى اذا جئت في
استفهامها بمن ولما ذكرنا لم يكن بين بعض هذه الانواع وبعضه من التفاوت ما بين
انسان وانسان فانك قد ترى واحدا كعشرة بل واحدا كمائة وعشرة اخرى هدرا دون
واحد كما قيل لامراة في منامها اعشرة هدرا احب اليك ام واحد كعشرة لا بل ترى
واحدا كالف والف مثل واحد كما قال ولم ار امثال الرجال تفاوتت لدى المجد حتى عد الف
بواحد بل قد ترى واحدا كعشرة الاف وترى عشرة الاف دون واحد كما قال عم وهو اصدق
قيلا الناس كابل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة والابل في تعارفهم اسم لمائة بعير فانه ابل هي
عشرة الاف بل لو قيل يرى واحد كعالم وعالم مثل هذا قال ابو نواس ليس من الله بمستنكر
ان يجمع العالم في واحد كون منزلة الانسان بين البهيمة والملك الانسان لما ركب تركيبا بين بهيمة
وملك فشبهه بالبهيمة لما فيه من الشهوات البدنية من الماكل والمشارب والمناكح وشبهه
بالملك لما فيه من القوى الروحانية من الحكمة والعدالة والجود صار واسطة بين جوهرين وضيع
ورفيع ولهذا قال تع وهديناه النجدين والنجدان من وجه العقل والهوى ومن وجه الآخرة
والدنيا ومن وجه الايمان والكفر ومن وجه الهدى والضلالة ومن وجه موالاة الله وموالاة
الشيطان المذكوران في قوله تع الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور الآية ومن وجه
النور والظلمة المذكوران في هذه الآية اي الفضيلة والنقيصة ومن وجه الحيوة والموت المذكوران
في قوله اومن كان ميتا فاحييناه فمن وفقه الله للهدى واعطاه قوة لبلوغ المدى فراعى
نفسه فزكاها فقد افلح ومن حرمه التوفيق فاهمل نفسه ودساها فقد خاب وخسر كما قال
قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها ما لاجله اوجد الانسان الانسان من حيث هو انسان
وكل واحد كالآخر فالارض من تربة والناس من رجل وانما شرفه بان يوجد كاملا المعنى
الذي اوجد له وبيان ذلك ان كل نوع اوجده الله في هذا العالم اوجده لفعل الخاص

فانه يوجد لفعل يختص به ولولاه لما اوجد وله غرض لاجله خص بما خص به كالبعير انما خص بذلك
ليحملنا واثقالنا الى بلد لم نكن بالغيه الا بشق الانفس والفرس ليكون لنا جناحا نظيره والمنشار
والمنحت ليصلح بهما الباب والسرير ونحوهما والباب ليحرز به البيت فالفعل المختص بالانسان
ثلثة عمارة الارض المذكورة في قوله تع واستعمركم فيها وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه
ولغيره وعبادته المذكورة في قوله تع وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون وذلك هو الامتثال
للباري عز وجل في اوامره ونواهيه وخلافته المذكورة في قوله ويستخلفكم في الارض فينظر
كيف تعملون وغيرها من الآيات وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر في السياسة
باستعمال مكارم الشريعة ومكارم الشريعة هي الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس في الحكم والاحسان
والقصد منها ان يبلغ الى جنة المأوى وجوار رب العزة تع وكل ما اوجد لفعل ما فشرفه بتمام
وجود ذلك الفعل كالفرس للعدو والسيف للقطع والنعل المختص به في القتال ومتى لم يوجد فيه المعنى
الذي اوجد لاجله كان ناقصا فاما ان يطرح طرحا واما ان يرد الى منزلة النوع الذي دونه
كالفرس اذا لم يصلح للعدو اتخذ حمولة او اعد اكولة فمن لم يصلح لخلافة الله تع ولا العبادة ولا
لاستعمار ارضه فالبهيمة خير منه ولذلك قال في ذم الذين بطلوا هذه الفضيلة ان هم الا كالانعام
الآية السياسة التي يستحق بها خلافة الله تع قد تقدم ان الخلافة يستحق بالسياسة وذلك بتحري مكارم
الشريعة والسياسة ضربان سياسة الانسان نفسه وبدنه وما يختص به والثاني سياسة غيره من
ذويه واهل بلده ولا يصلح لسياسة غيره من لا يصلح لسياسة نفسه ولهذا ذم الله تع من ترشح لسياسة
غيره فامر بالمعروف ونهى عن المنكر وهو غير مهذب في نفسه فقال اتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم
وقال تع لم تقولون ما لا تفعلون وقال تع يا ايها الذين آمنوا عليكم انفسكم اي هذبوها قبل الترشح
لتهذيب غيركم وبهذا النظر قيل تفقهوا قبل ان تسودوا تنبيها انكم لا تصلحون للسيادة قبل
معرفة الفقه والسياسة العامية ولان السائس يجري من المسوس مجرى ذي الظل من الظل
ومحال ان يعوج ذو الظل ويستقيم الظل ولا حالة ان يهتدي المسوس مع كون السائس ضالا قال

الله تعالى يا ايها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان الآية فحكم انه محال مع اتباع الشيطان
ان يأمر الا بالفحشاء والمنكر الفرق بين مكارم الشريعة وبين العبادة وعمارة الارض اما
مكارم الشريعة فمبداها طهارة النفس بالتعلم واستعمال العفة والصبر والعدالة ونهايتها
التخصيص بالحكمة والجود والحلم والاحسان وبالتعلم يتوصل الى الحكمة وباستعمال العفة يتوصل
الى الجود وباستعمال الصبر يدرك الشجاعة والحلم وباستعمال العدل يصح الافعال ومن حصل له
ذلك فقد تدرع المكرمة الموعود بقوله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقيكم ويصلح لخلافة الله تعالى
فصار من الربانيين والشهداء والصديقين واعلم ان العبادة اعم من المكرمة فان كل مكرمة
عبادة وليس كل عبادة مكرمة ومن الفرق بينهما ان العبادات فرائض معلومة وحدود
مرسومة وتاركها يصير ظالما متعديا ولن يستكمل الانسان مكارم الشرع ما لم يقم بوظائف
العبادات فتحري العبادات من باب العدل وتحري المكارم من باب الافضال والنفل ولا يقبل
تنفل من اهمل الفرائض ولا تفضل من ترك العدل فان العدل فعل ما يجب والنفل الزيادة
على ما يجب وكيف يصح تصور الزيادة على شيء هو غير حاصل في ذاته ولهذا يقال لا يستطيع
الوصول من ضيع الاصول فمن شغله الفرض عن الفضل فمعذور ومن شغله الفضل عن الفرض
فمغرور وقد اشار تعالى بقوله بالعدل الى الاحكام وبالاحسان الى المكارم بقوله ان الله يأمر
بالعدل والاحسان وقوله يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير
لعلكم تفلحون ففعل الخير هو الزيادة على العبادة واما عمارة الارض فالقيام عامة تزجية
حيوة الناس وصلاح معاشهم والانسان الواحد من حيث هو لم يكف امر معاشه بانفراده
من مأكله وملبسه ومسكنه ولم يكن له سبيل الى ثباته في الدنيا الا بما يسد جوعته ويستر عورته
ويقيه من الحر والبرد لم يكن له بد من تحصيل ذلك من الوجه المباح له ولذلك قال تعالى ان لك الا
تجوع فيها ولا تعرى وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ومتى سعيه في ذلك سعي العبد في ذلك على الوجه
الذي يجب وكما يجب يكون سعيه عبادة وجهادا في سبيل الله كما قال عليه السلام من طلب الرزق على ما سن

فهو في جهاد ومن لم يكن على ذلك فسعيه هباء منثور كما قال تعالى قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الآية
وكان فيما يتولاه خادما للناس مسخرا بلا ارتفاق منه لخدمتهم كانه من جملة البهائم التي سخرها الله
للعباد وامتن عليهم بها في قوله والخيل والبغال والحمير كون طهارة النفس شرطا في صحة خلافة
الله تعالى وكمال عبادته لا يصلح لخلافة الله تعالى ولا يكمل لعبادته وعمارة ارضه الا من كان طاهر
النفس قد ازيل رجسه ونجسه فللنفس نجاسة كما ان للبدن نجاسة لكن نجاسة البدن يدرك
بالبصر ونجاسة النفس لا تدرك الا بالبصيرة واياها قصد تعالى بقوله انما المشركون نجس وبقوله
والرجز فاهجر وبقوله كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون وانما لم يصلح لخلافة الله
الا من كان طاهر النفس لان الخلافة هو الاقتداء به على قدر طاقة البشر في تحري الافعال
الالهية ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر الفعل فكل اناء بالذي فيه يترشح ولهذا قال
من طابت نفسه طاب عمله ومن خبثت نفسه خبث عمله وقال عليه السلام المؤمن الخبيث من عمله والكافر
اخبث من عمله بل قد اشار تعالى بقوله الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين
والطيبون للطيبات وقوله والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا
ولاجل انه لا يطيب عمل من خبث نفسه قال الله تعالى اولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال
بعضهم في قوله لا يدخل الملائكة بيتا فيه كلب انما اشار بالبيت الى القلب واشار بالكلب الى
الحرص والحسد وغيرهما ونبه ان نور الله لا يدخله اذا كان فيه ذلك واستدل على ذلك ان
الحريص يقال له الكلب وانه يقال فلان احرص من الكلب ويقوى ذلك جاردي التقوى لا يسكن
الا قلبا لطيفا والى الطهارتين اشار بقوله تعالى وثيابك فطهر والرجز فاهجر وكنى بالثياب
عن البدن قال الشاعر ثياب بني عوف طهارى نقية واوجههم عند المشاهد غران
وقال تعالى انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا وقال تعالى ويطهركم وقال تعالى
ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وقال ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين
وقد قال بعض العلماء انما سمي الحواريون بذلك لانهم كانوا يطهرون نفوس الناس بافادتهم

الدين والعلم من قولهم حورته اى بيضته وما روى انهم كانوا قصارين فاشارة الى هذا
المعنى وان كان من لم يختصص بمعرفة الحقايق تصور من هذا التفسير المهنة المعروفة
بين الناس فيما يفزع اليه فى طهارة النفس الذى يطهر به النفس حتى يترشح بخلافة الله
عز وجل ويستحق بها ثوابه هو العلم والعبادات الموظفة التى هى سبب الحيوة الاخروية
كما ان الذى يطهر به البدن الماء الذى هو سبب الحيوة الدنيوية ولذلك سماها الحيوة
وسمى ما انزل الله من كتابه الماء فقال استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم فسمى
العلم والعبادة حيوة من حيث ان النفس متى فقدتهما هلكت هلاك الابد كما قال فى الماء
وجعلنا من الماء كل شىء حى افلا يؤمنون وقال انزل من السماء ماء فسالت اودية
بقدرها قال ابن عباس رضه عنى بالماء القرآن اذ كان به طهارة النفس قال والاودية
القلوب احتملته بحسب ما وسعته قال بعض العلماء فى قوله تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا
وقوله وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به انه عنى به القرآن كقوله وننزل من القرآن
ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين واجدر بصحة قوله فان الماء المنزل من السماء المختص به
بالطهارة الذى لا يسد غيره من المياه مسده هو هذا الماء اعنى كلام رب العزة واما
المختص بطهارة البدن فقد يسد غيره مسده فى الطهارة لان الذى ينبع من الارض
يعمل عمله والذى يلزم تطهيره من النفس هو القوى الثلث قوة الفكر بتهذيبها حتى يحصل
العلم والحكمة وقوة الشهوة بقمعها حتى يحصل العفة والجود وقوة الحمية باسلاسها حتى
تنقاد للعقل فيحصل الشجاعة والحلم ويتولد من اجتماع ذلك العدالة فجميع الفساد ينبعث
من فساد هذه القوى اما من فساد الفكر فيتولد منها الجربزة او البله واما فساد القوى
الشهوية فيتولد منها الشره او خمود الشهوة واما من فساد الحمية فيتولد منه التهور
او الجبن ومن حصول هذه الاشياء او حصول بعضها يحصل اما الظلم واما الانظلام فجميع رؤس
الفضايل الخلقية اربعة وجميع الرذايل الخلقية ثمانية **بيان** منازعة الهوى والعقل اعلم

ان مثل الانسان فى بدنه كمثل وال فى بلده وقواه وجوارحه بمنزلة صناع وعملة والعقل له
كمشير ناصح عالم والشهوة فيه كعبد سوء جالب للميرة والحمية له كصاحب شرط والعبد
الجالب للميرة خبيث ماكر يتمثل الوالى بصورة الناصح وفى نصحه ذنب العقرب وتعارض
الوزير فى تدبيره ولا يغفل ساعة عن منازعته ومعارضته وكما ان الوالى فى مملكته
متى استشار فى تدبيراته وزيره دون هذا العبد الخبيث وادب صاحب شرطته وجعله
مؤتمرا لوزيره وسلطه على هذا العبد واتباعه حتى يكون هذا العبد مسوسا لا سايسا
ومدبرا لا مدبرا استقام امر بلده كذا ايضا النفس متى استعانت بالعقل فى التدبير
وادبت الحمية وسلطته على الشهوة وقواها استتب امرها والا فسدت ولهذا قد
حذرنا الله غاية الحذر من اتباع الهوى فقال ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله
وقال فى ذم من اتبعه افرايت من اتخذ الهه هواه واضله الله على علم وقال اخلد الى الارض
واتبع هواه فمثله كمثل الكلب وقال فى مدح من عصاه واما من خاف مقام ربه ونهى النفس
عن الهوى فان الجنة هى الماوى وقال عم اعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك اشارة الى الهوى
والعقل وان كان اشرف القوى وبه صار الانسان خليفة الله تعالى فى العالم فليس دابه الا الاشارة
الى الصواب كطبيب يشير الى المريض بما يرى فيه برؤه فان قبل منه المريض والا سكت عنه
ولذلك جعل له الحمية لتكون نايبة عنه فى المدافعة والممانعة ولهذا لا يتبين فضيلة العقل لمن
لا حمية له وبهذا النظر قيل المهين من لا سفيه له وقال الشاعر تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقى مربض المستاسد الحامى وايضا مثل النفس فى البدن مثل مجاهد بعث الى ثغر
ليراعى احواله وعقله خليفة مولاه ضم اليه ليسدده ويشهد له وعليه فيما يفعله اذا عاد
الى حضرة الملك وبدنه بمنزلة فرس دفع اليه ليركبه وشهوته كسايس خبيث ضم اليه ليتفقد
فرسه ولا قدر لهذا السايس عند المولى والقرآن بمنزلة كتاب اتاه من مولاه وقد ضمن كل
ما يحتاج اليه عاجلا وآجلا كما وصفه تعالى بقوله وانزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء

وهدى ورحمة وقوله ما فرطنا في الكتاب من شيء والنبي رسول الله اتانا بالكتاب ليبين له ما
يشكل عليه مما يقرأه من الكتاب وقبيح ان ينسى هذا الوالي مولاه ويهمل خليفته فلا يرجع
فيما يبرمه وينقضه ويصرف همته كلها الى تفقد فرسه وسايسه ويقيم سايس فرسه مقام خليفة
ربه ومن وجه آخر الانسان من حيث ما جعله الله عالما صغيرا وجعل بدنه كمدينة والعقل
كملك مدبر فيها وقواه من الفكرة والخيال والحواس كجند واعوانه والاعضاء كرعيته
والشهوة كعدو ينازعه في مملكته ويسعى في اهلاك رعيته صار بدنه كرباط وثغر ونفسه
مقيم فيه مرابط فان جاهد عدوه فهزمه واسره وقهره على ما يحب وكما يجب حمد اثره
اذا عاد الى حضرته كما حمد الله حيث يقول فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على
القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى فدفاع الهوى اعظم جهاد كما قال صلعم وقد سئل
اي الجهاد افضل فقال جهادك هواك وان ضيع ثغره واهمل رعيته ذم اثره اذا عاد اليه
كما قال عم كلكم راع مسئول عن رعيته ان الله تعالى يقول للكافر يا راعي السوء اكلت اللحم وشربت
اللبن ولبست الصوف ولم تؤو الضالة ولم تجبر الكسير اليوم انتقم منك وايضا مثل العقل
مثل فارس متصيد وشهوته كفرسه وغضبه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقا وفرسه مروضا
وكلبه معلما فقمن بادراك حاجته والنجح من الصيد ومتى كان اخرق وفرسه جموحا او حرونا
وكلبه عقورا فلا فرسه ينبعث تحته منقادا ولا كلبه يسترسل معه مطيعا فهو قمن بان يعطب
فضلا ان يدرك والانسان مع هواه ثلثة الاول ان يغلبه الهوى فيهلكه كما قال تعالى افرايت من اتخذ
الهه هواه الثانية ان يغالبه فيقهره مرة ويقهر مرة واياه قصد بمدح المجاهدين
وعنا النبي عم بقوله جاهدوا اهواكم كما تجاهدون اعداءكم والثالثة ان يغلب هواه
وقد فعل ذلك الانبياء وبعض صفوة الاولياء وهذا المعنى قصد بقوله تعالى واما من خاف
مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وقصد النبي عم بقوله ما من احد الا وله شيطان وان الله
قد اعانني على شيطاني حتى ملكته فان الشيطان يتسلط على الانسان بحسب وجود الهوى فيه

الفرق بين ما يسومه العقل وما يسومه الهوى من شان العقل ان يرى ويختار ابدا الافضل
والاصلح في العواقب وان كان على النفس في المبدا مؤنة ومشقة والهوى على الضد من ذلك فانه
يؤثر ما يدفع به المؤذي في الوقت وان كان يعقب مضرة من غير نظر منه في العواقب كالصبي
الرمد الذي يؤثر اكل الحلاوات واللعب في الشمس على اكل الاهليلج والحجامة ولهذا قال النبي عم
حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات وايضا فالعقل يرى صاحبه ماله وعليه
والهوى يريه ما عليه دون ماله ويعمي عليه ما يعقبه من المكروه ولهذا قال عم حبك الشيء
يعمي ويصم وكذلك ينبغي للعاقل ان يتهم رايه ابدا بالاشياء التي هي له لا عليه ويظن انه
هوى لا عقل ويلزمه ان يستقصي النظر فيه قبل امضاء العزيمة وحتى قيل اذا عرض لك
امران فلم تدر ايهما اصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه فاكثر الخير في الكراهة قال تعالى
وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وقال وعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا
وايضا فان ما يريه العقل يتقوى به اذا فزع اليها بالاستشارة وينشرح له الصدر اذا
استعين الى الله عز وجل بالاستخارة ويساعد عليه العقول الصحاح اذا فزع اليها بالاستشارة
وينشرح له الصدر اذا استعين فيه بالعبارة وما يشير به الهوى فبالضد من ذلك وايضا
فالعقل يرى ما يرى بحجة وعذر والهوى يرى ما يرى بشهوة وميل وربما يشبه الهوى بالعقل
فيتعلق بشبهة مزخرفة وحجة مموهة كالعاشق اذا سئل عن عشقه والمتناول للطعام
النيء اذا سئل عن فعله قال بعض العلماء اذا مال العقل نحو مؤلم حمل والهوى نحو ملذ قبيح
فتنازعا بحسب غرضهما وتحاكما الى القوة المدبرة بادر نور الله الى نصرة العقل ووساوس
الشيطان الى نصرة الهوى كما قال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين
كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من الظلمات الى النور فمتى كانت القوة المدبرة من اولياء
الشيطان وحزبه وجنده لم ير نور الحق فعميت عن نفع الآجل واغترت بلذة العاجل فجنحت الى
الهوى كما قال تعالى افرايت من اتخذ الهه هواه الآية ومتى كانت من حزب الله واوليائه

اهتدت بنوره واستهانت بلذة العاجل فجنحت الى الهوى وطلبت سعادة الاجل كما قال
الله تعالى فاما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم ان الذين اتقوا
اذا مسهم الآية ومما ينبه على فساد الهوى قوله ولو اتبع الحق اهواهم لفسدت السموات
والارض ومن فيهن اى لو اعطى كل انسان ما يهواه مع ان كل واحد يهوى ان يكون اعلى
الناس ولا هم منزلة وان ينال فى الدنيا الخير الابدى بلا منازلة ولا تعلم لكان فى ذلك فساد
العالم وقيل فى قوله تعالى الم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة الآية انه ضرب الشجرة الطيبة مثلا للعقل
والخبيثة مثلا للهوى ففرع الطيبة النور والاسلام وفرع الخبيثة الكفر والظلال ان قيل
ما الفرق بين الشهوة والهوى قيل الشهوة ضربان محمودة ومذمومة فالمحمودة من فعل الله
وهى قوة حصلت فى الانسان لينبعث بها النفس لينيل ما يطلق فيه صلاح البدن والمذمومة
من فعل البشر لما فيه لذتها البدنية والهوى هذه الشهوة الغالبة اذا استتبعت للفكرة
وذاك ان الفكرة بين العقل والشهوة والعقل فوقها والشهوة تحتها فمتى ارتفعت الفكرة
وصلت نحو العقل صارت رفيعة فولدت المحاسن واذا اتضعت ومالت نحو الهوى والشهوة
صارت وضيعة وولدت المقابح والعقل قد يريد ما يريد بمشورة العقل تارة وبمشورة
الهوى تارة ولذا قد يسمى الهوى ارادة **فى ذكر الخاطر** الذى يعرض من جهة العقل والهوى اول
ما يعرض من ذلك السانح ثم الخاطر والى ذلك اشار النبى عم بقوله ان للشيطان لمة بابن
آدم وللملك لمة فاما لمة الملك فوعد بالخير وتصديق بالحق واما لمة الشيطان فايعاد بالشر
وتكذيب بالحق ثم قرا الشيطان يعدكم الفقر الآية ثم من بعدها الارادة ثم العزم ثم العمل
والسانح علة الخاطر والخاطر علة الارادة والارادة وهى الهمة علة العزم والخاطر والسانح
يعبر عنهما بالهاجس والهاجس متجافى عنهما ما لم يصر ارادة وعزما فى الانسان اذا خطر له خاطر
ان يستر عاجلا فان وجده ضررا بادر حتى جعله فعلا وان وجده شرا بادر الى قلعه وقمعه
قبل ان يصير ارادة وتطهر قلبه منه تطهير ارضه من خبث النبات وهذا المعنى الحسن

اراد بقوله رحم الله عبدا وقف عند همه فان كان لله امضى والا كف قال بعض الحكماء ان تداركت
الخطرة اضمحلت والا صارت شهوة وان تداركت الشهوة والا صارت طلبا وان تداركت الطلب
والا صار عملا قال بعض الحكماء ان ولى الله اذا اتته لمة الشيطان انزعج لذلك وراى بصدره
ظلمة ووجد روعة فاذا اتته لمة الملك انشرح صدره واولياء الشيطان بخلافه قال الله تعالى
واذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة **حصول** الخلق المحمودة
بطهارة النفس قد تقدم ان طهارة النفس باصلاح القوى الثلث واصلاح الفكر بالتعلم
حتى يميز بين الحق والباطل فى الاعتقاد وبين الصدق والكذب فى المقال وبين القبيح والجميل
فى الفعال واصلاح الشهوة بالعفة حتى تسلس للجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة
واصلاح الحمية باسلاسها حتى يحصل الحلم وهو كف النفس عن قضاء وطر الغضب وتحصل
الشجاعة وهى كف النفس عن الخوف وعن الحرص المذمومين وباصلاح القوى الثلث تحصل
للنفس العدالة والاحسان وهذه جماع المكارم وطهارة النفس وحسن الخلق الممدوح
بقوله عم اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم خلقا والطفهم باهله ويعنى باللطافة بالاهل
تهذيبهم وتاديبهم المشار اليه بقوله يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا والممدوح
ايضا بقوله عم احبكم الى احاسنكم اخلاقا الموطؤن اكنافا الذين يالفون ويؤلفون
وقيل جماع المكارم فى قوله تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا الآية
وذلك انه بالايمان يحصل العلم والحكمة وذلك باصلاح الفكرة وبالمجاهدة بالاموال يحصل
العفة والجود اللذان هما باعثان لاصلاح الحمية وعلى ذلك قوله تعالى خذ العفو وامر بالعرف الآية
وقال النبى عم فى تفسير ذلك هو ان تعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك وتصل من قطعك فالعفو
من ظلمك نهاية الحلم والشجاعة واعطاء من حرمك غاية الجود ووصل من قطعك نهاية
الاحسان **الفرق** بين الطبع والسجية والخلق والعادة الطبع اصله من طبع السيف
وهو اتخاذ الصورة المخصوصة فى الحديد وكذلك الطبيعة والضريبة اعتبارا بضرب الدراهم

والنحيزة اعتبارا بالنحز والنحز اعتبارا بنحز الخشب والغريزة لما غرز عليه وكل ذلك اسم للقوة التي
لا سبيل الى تغييرها والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريزة اعتبارا بالشامة التي في اصل الخلقة
والسجية اسم لما سجي عليه الانسان من قولهم عين ساجية اي فاترة خلقة واكثر ما يستعمل
ذلك كله فيما لا يمكن تغييره واما الخلق في الاصل كالخلق كقولهم الشرب والشرب والصرم والصرم
لكن الخلق يقال في القوى المدركة بالبصيرة والخلق في الهيئات والاشكال والصور المدركة بالبصر
وجعل الخلق تارة اسما للقوة الغريزية ولهذا قال عم فرغ الله من الخلق والخلق والرزق
والاجل وتارة جعل اسما للحالة المكتسبة التي بها يصير الانسان خليقا ان يفعل شيئا دون
شيء كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه ولهذا اخص كل حيوان بخلق في اصل خلقته كالشجاعة
للاسد والجبن للارنب والمكر للثعلب ويحصل الخلق تارة من الخلاقة اي الملاسة وكانه
اسم لما جرت عليه الانسان من العادة وقد روي افضل الاعمال الخلق الحسن فجعل
الخلق مرة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر وجعل مرة اسما للفعل
الصادر عنها وعلى ذلك اسماء انواعها نحو العفة والعدالة والشجاعة فان ذلك يقال للهيئة
والفعل جميعا وانما سمي الهيئة باسم والفعل الصادر عنها باسم كالسخاء والجود فان السخاء
اسم للهيئة التي عليها الانسان والجود اسم للفعل الصادر عنها وان كان قد يسمى كل
واحد باسم الآخر واما العادة فاسم لتكرير الفعل او الانفعال من عاد يعود وبه يكمل
الخلق وليس للعادة فعل الا تسهيل خروج ما هو بالقوة في الانسان الى الفعل فاما
ان يجذب السجية الى خلاف ما خلقت له فمحال فالسجية فعل الخالق والعادة فعل المخلوق ولا يبطل
فعل المخلوق فعل الخالق لكن ربما يقوى العادة قوة يحكمه حتى يعد سجية وبهذا النظر قيل للعادة
طبيعة ثانية **امكان تغيير الخلق** اختلف الناس في الخلق فقال بعضهم هو من جنس الخلقة
ولا يستطيع احد تغيير ما جبل عليه ان خيرا وان شرا كما قال وما هذه الافعال الا غرائز
فمنهن محمود ومنها مذمم ولن يستطيع الدهر تغيير خلقة لئيم ولا يستطيع مكرم ونعلق

ايضا بقول النبي عم من آتاه الله وجها حسنا وخلقا حسنا فليشكر الله وما روي فرغ الله
من الخلق والخلق الخبر وقال ومحال ان يقدر المخلوق على تغيير فعل الخالق وقال بعضهم
يمكن ذلك واستدل عليه بما روي حسنوا اخلاقكم ولو لم يمكن لما امر به وقال ان الله خلق
الاشياء على ضربين احدهما بالفعل ولم يجعل للعبد فيه عملا كالسماء والارض والبينات
والثاني خلقه خلقا ما وجعل فيه قوة ورشح الانسان لاكماله وتغيير حاله وان لم يرشحه
لتغيير ذاته كالنوى التي جعل فيها قوة النخل وسهل للانسان سبيله الى ان يجعله بعون الله نخلا
وان يفسده افسادا والخلق يجري هذا المجرى في انه لا سبيل للانسان الى تغيير القوة
التي هي السجية وجعل له سبيلا الى اسلاسها ولهذا قال الله تعالى وقد خاب من دسيها
ولو لم يكن كذلك لبطل فائدة المواعظ والوصايا والوعد والوعيد والامر والنهي ولما جوز
العقل ان يقال للعبد لم فعلت ولم تركت وكيف يكون هذا في الانسان ممتنعا وقد وجدناه
في بعض البهائم ممكنا فالوحش قد ينقل بالعادة الى التانس والجامح الى السلاسة لكن الناس
في غرائزهم مختلفون فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول
وبعضهم في الوسط وكل لا ينفك من اثر قبول وان قل وارى من منع تغيير الخلق فانه اعتبر
القوة نفسها وهذا صحيح فان النوى محال ان ينبت الانسان منه تفاحا ومن اجاز تغييره
فانه اعتبر ما في القوة الى الوجود وافساده باهماله نحو النوى فانه ممكن ان يتعهد فيجعل نخلا
وان يترك مهملا حتى يعفن وهذا صحيح ايضا فاذن اختلافهما بسبب اختلاف نظرهما **صعوبة
اصلاح** القوة الشهوية وما في هذه القوة من المنفعة والمضرة اصعب هذه القوى الثلث
مداواة قمع الشهوة لانها اقدم القوى وجودا في الانسان واشدها به تشبثا واكثرها منه تمكنا
فانها تتولد معه وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنسه بل في النبات الذي هو جنس جنسه
ثم توجد فيه قوة الحمية ثم آخرا ما توجد فيه قوة الفكر والنطق والتمييز ولا يصير الانسان
خارجا من جملة البهائم واسر القوى الا باماتة الشهوات البهيمية وتهذيبها ومنها ان لم يمكنه

اماتته اياها فهي التي تغفر وتغر وتعر وتصرفه عن طريق الآخرة وتثبط ومتى قهرها
واماتها صار الانسان حرا نقابل بصيرا لكيا ربانيا فتقل حاجاته ويصير غنيا عما في
يد غيره وسخيا بما في يده ومحسنا في معاملاته فان قيل فاذا كانت الشهوة بهذه المثابة
في الاضرار فاي حكمة اقتضت ان يبلي الانسان بها قيل الشهوة انما تكون مذمومة اذا
كانت مفرطة واهملها صاحبها حتى ملكت القوى فاما اذا ادبت فهي المبلغة الى السعادة
وجوار رب العزة حتى لو تصورت مرتفعة لما امكن الوصول الى الآخرة وذلك ان الوصول
الى الآخرة بالعبادة ولا سبيل الى العبادة الا بالحيوة الدنيوية ولا سبيل الى الحيوة الدنيوية
الا بحفظ البدن ولا سبيل الى حفظه الا باعادة ما يتحلل ولا يمكن اعادته ذلك الا بتناول
الاغذية ولا يمكن تناول الاغذية الا بالشهوة فاذا الشهوة محتاج اليها ومرغوب فيها
ويقتضي الحكمة الالهية ايجادها وتزيينها كما قال تع زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين
الآية لكن مثلها كمثل عدو يخشى مضرته من وجه ويرجى منفعته من وجه ومع عداوته
لا يستغنى عن الاستعانة به فحق العاقل ان يأخذ نفعه ولا يسكن اليه ولا يعتمد عليه الا بقدر
ما ينتفع به وما اصدق في ذلك قول المتنبي ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدوا له
ما من صداقته بد وايضا هذه الشهوة هي المشوقة لعامة الناس الى لذات الجنة
من المآكل والمشارب والمناكح اذ ليس كل الناس يعرف اللذات المعقولة ولو توهمناها
مرتفعة لما تشوقوا الى ما وعدوا به من قول النبي عم فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت
ولا خطر على قلب بشر ازدياد الانسان في الفضائل والرذائل يتعاطيها كل متعاط يفعل
من الافعال النفسية فانه يقوى فيه بالازدياد منه ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا فباحتمال
صغار الامور يمكن احتمال كبارها وباحتمال كبارها يستحق الحمد كما قال امير المؤمنين علي رض
الايمان يبدو نكتة بيضاء في القلب كلما ازداد الايمان ازداد ذلك البياض واذا استكمل العبد
الايمان ابيض القلب كله وان النفاق يبدو نقطة سوداء كلما ازداد النفاق ازداد ذلك

السواد فاذا استكمل النفاق اسود القلب كله والانسان يكمل في الفضيلة باربع درجات
اثنتين في الاعتقاد وهما ان يعتقد الجميل ويحصل اعتقاده عن براهين واضحة ودلالة قاطعة
لا عن شبهات واهية واقناعات متداعية واثنتين في الفعل وهما ان يترك العادات
السيئة فيجعلها بحيث يبغضها ويجتنب الرذيلة ويتوصل الى الفضيلة وان يتعود العادات
الحسنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعم بها كما قال ع م وجعلت قرة عيني في الصلوة وكما انه
يكمل باربع درجات فانه ينتكس باربع درجات درجتين في الاعتقاد وهما ان لا يعتقد شيئا
من العلوم الحقيقية فيبقى عنها غفلا وان يعتقد عن تقليد اعتقادا فاسدا فيتلطخ به
ودرجتين في العمل وهما ان لا يتعود العادة الجميلة راسا وان يتعود العادة القبيحة
فمن صار في الفضيلة الى الدرجة الرابعة فهو ممن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور
من ربه ومن صار في الرذيلة الى الدرجة الرابعة فهو من الذين وصفهم الله تع اولئك الذين
لعنهم الله فاصمهم الآية ثم قال افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها وقيل
لحكيم الا تعظ فلانا قال ان ذلك على قلبه قفل قد ضاع مفتاحه فلا سبيل الى معالجته
فالانسان مع كل رذيلة وفضيلة بالنظر الى احوال اربعة اما ان يكون في ابتدائها فيقال هو عبدها و
ابنها ولهذا قال بعضهم من لم يخدم العلم لم يرعه والثاني ان يتوسطها فيقال هو اخوها
وصاحبها والثالث ان ينتهي فيها بقدر وسعه ويتصرف فيها كما اراده فيقال هو
سيدها وربها ومنه قيل فلان رباني في العلم فان رب الشيء هو الذي يربيه وسيده هو الذي
يملك سواده اي جمعه وغاية الفاضل في الفضيلة ان ينبع منه الفضائل ابدا من غير
فكر ولا روية لغلبة قواها عليه ويعد ما نافيها منه كالصانع الحاذق في صنعه وغاية
الرذل في الرذيلة ان ينبع منه الرذائل لغلبة قواها عليه ولهذا حد الخلق بانه حال
للانسان داعية الى الفعل من غير فكر ولا روية الفرق بين ما يحمد ويذم من التخلق
الفرق بين الخلق والتخلق ان التخلق معه استثقال واكتساب ويحتاج الى بعث وتنشيط

والخلو معه استخفاف وارتياح ولا احتياج الى بعث من خارج فالتخلق والتشبه بالافاضل
ضربان محمود وذلك ما كان على سبيل الارتياض والتدرب وتحري صاحبه سواء جهده
على الوجه الذي ينبغي وبالمقدار الذي ينبغي واياه قصد الشاعر بقوله ولن يستطيع الخلق
حتى تخلقا بل قد قال النبي عم ما العلم الا بالتعلم وما الخلق الا بالتخلق وضرب منه مذموم وذلك
ما كان على سبيل المراءاة ولا يتحرى صاحبه الا حيث يقصد ان يذكره ويسمع ذلك رياء وسمعة
وتصنعا وتشبعا ولن ينفك صاحبه من اضطراب يدل على تشبعه كما قال كليل الطبع
المتكلف كلما نهته تشبعا زاده تعقيفا وعلى ذلك قال الشاعر فاسرع مفعول فعلت
تغييرا تكلف شيء في طباعك ضده واياه قصد امير المؤمنين عمر بن الخطاب رض من تخلق
للناس بغير ما فيه فضحه الله وقال المتشبع كالجرح يندمل على فساد ولا بد وان ينفجر
وان كان بعد حين فان الجرح ينتقض بعد حين اذا كان انبناؤه على الفساد وكما ان العضو
المفلوج لا يطاوع صاحبه في تحريكه وان جاهده فمتى حركه الى اليمين تحرك نحو الشمال
كذا ايضا الشره والظلوم والمتهور وان جاهدوا انفسهم فان قواهم تابى مطاوعتهم وقد
ذم النبي عم بقوله المتشبع بما ليس عنده كلابس ثوبي زور تنبيها انه كاذب بقوله وفعله
فيتضاعف وزره وقد حمل على ذلك قوله عز وجل وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون
واياه قصد النبي عم الشرك اخفى في امتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء واقبح
الرياء النفاق في الدين واقبح النفاق ما كان في اصل الاعتقاد وهو اظهار الايمان مع ابطان
الكفر ولذلك جعل الله عقابهم اعظم فقال ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار سبب اختلاف
الناس في اخلاقهم جميع الفضائل النفسية ضربان نظري وعملي وكل ضرب منها يحصل على وجهين
احدهما بتعلم بشري يحتاج فيه الى زمان وتدرب وممارسة ويتقوى الانسان فيه درجة فدرجة
وان كان فيهم من يكفيه ادنى ممارسة ومنهم من يحتاج الى زيادة ممارسة وذلك بحسب اختلاف
الطباع في الذكاء والبلادة والثاني يحصل بفيض الهي نحو ان يولد انسان فيصير من غير

تعلم من البشر عالما كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا وغيرهما من الانبياء عم الذين حصل لهم
من المعارف من غير ممارسة ما لم يحصل لغير الانبياء وقد ذكر بعض الحكماء ان ذلك قد يحصل
لغير الانبياء ايضا في الفينة بعد الفينة وكل ما كان يتدرب فقد يكون بالطبع كصبي
يوجد صادق اللهجة وسخيا وجريا وآخر على عكس ذلك وقد يكون بالتعلم والعادة فمن
صار فاضلا طبعا وعادة وتعلما فهو كامل الفضيلة ومن كان رذلا بثلاثتها فهو
كامل الرذيلة وجوب اكتساب الفضيلة المحمودة حق الانسان في كل فضيلة ان يكتسبها
خلقا ويجعل لنفسه ذات هيئة مستعدة لذلك سواء امكنه ان يبرز ذلك فعلا او لم يمكنه
وذلك بان يكون على هيئة الاسخياء والشجعان والحكماء والعدول وان لم يكن ذا مال يبذله
ولا عرض له مقام يظهر فيه نجدته ولا معاملة بينه وبين غيره يبرز عدالته وقد قيل
لبعض الحكماء هل من جود يعم به الورى قال نعم ان تحسن خلقك وتنوي لكل احد خيرا
وقال عم لن تسعوا الناس باموالكم فسعوهم باخلاقكم واعلم ان كل فعل يحتاج الى
ايجاد وتجويد وتزيينه دنيويا كان او اخرويا لكن متى كان اخرويا يحتاج فيه
مع ذلك الى امور لا يتم ولا يكمل الا بها كما قال تع مثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات
الله الاية وان يتحرى بخلوص طويته كما قال وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين
وان لا يقصد جلب منفعة دنيوية او دفع مضرة فانه يكون بفعله ذلك تاجرا وتجب عند
بعض المحققين ان لا يطلب به منفعة اخروية ايضا فقد قيل من عبد الله لعوض فهو لئيم
ومن فعل ذلك بانتزاع صدر فهو ادنى ممن يفعله بمجاهدة نفس ولهذا قال النبي عم ان استطعت
ان تعمل في الرضاء باليقين فاعمل والا ففي الصبر على ما تكره خير كثير وقولهم الحق مر فهو
باعتبار من لم يتهذب نفسه ولم يزل مرضه شيء فمن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء
الزلالا فاما من كان فانه يستطيب الحق وان كان ثقيلا كما قال عم وجعلت قرة عيني في
الصلوة ومن اصلح خلقه وهذب نفسه فقد صار اعظم الملكين بملك نفسه وقواها

وهذبها وزكاها فقد اطلع به على ملكوت السموات والارض وملك اطوع جيش بلا عطاء بلا رزقه
وقد نبه الله على ذلك بقوله اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا الاية فجعل النبوة مخصوصة
فيهم وجعل الملك عاما لهم تنبيها على المعنى الذي ذكرت وعلى ذلك قوله ام يحسدون الناس
على ما اتيهم الله من فضله الاية ويذكر بعد ذلك نعم الله وما يكتسب فيها انواع نعم الله تعالى
الموهوبة والمكسوبة نعم الله عز وجل وان كانت لا تحصى ولا تعد مفصلة كما قال وان تعدوا
نعمة الله لا تحصوها فانها بالقول المجمل خمسة انواع الاول وهو اعلاها واشرفها السعادة
الاخروية واياها قصد بقوله واما الذين سعدوا ففي الجنة الاية وذلك هو الخير المحض
والفضيلة الصرف وهو اربعة اشياء بقاء بلا فناء وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل وغنى بلا فقر
ولا يمكن الوصول الى ذلك الا باكتساب الفضائل النفسية واستعمالها كما قال ومن اراد
الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن الاية واصول ذلك اربعة اشياء العقل وكماله العلم والعفة
وكمالها الورع والشجاعة وكمالها المجاهدة والعدالة وكمالها الانصاف وهو المعبر
عنها بالدين ويكمل ذلك بالفضائل البدنية وهي اربعة اشياء الصحة والكمال والقوة والجمال
وطول العمر وبالفضائل المطيفة بالانسان وهي اربعة اشياء المال والاهل والعز
وكرم العشيرة ولا سبيل الى تحصيل ذلك الا بتوفيق الله وذلك باربعة اشياء هدايته ورشده
وتسديده وتاييده فمجموع ذلك خمسة انواع هي عشرون ضربا ليس للانسان مدخل في اكتسابها
الا فيما هو نفسي فقط واعلم ان الفضيلة الكاملة والسعادة الحقيقية هي الخيرات الاخروية
وما عداها فتسميته بذلك اما لكونه معاونا في بلوغ ذلك واما نافعا له وكل ما اعان على سعادة
وخير فهو خير وسعادة وهذه الاشياء التي هي معينة ونافعة في بلوغ السعادة الاخروية
متفاوتة الاحوال فمنها ما هو نافع في جميع الاحوال وعلى كل وجه ومنها ما هو نافع
في حال دون حال وعلى وجه دون وجه وربما كان ضرره اكثر من نفعه فحق الانسان
ان يعرفها بحقائقها حتى لا يقع الخطأ عليه في اختيار الوضيع على الرفيع وتقديم

وتقديم الخسيس على النفيس والناس في مجراها طالب لخير وهارب من شر كما قال
كل يحاول حيلة يرجو بها دفع المضرة واجتلاب المنفعة والمرء يغلط في تصرف حاله
فلربما اختار العناء على الدعة لكن قد يحسب الشحم فيمن شحمه ورم وتقدر في الشيء
انه رزق نافع وحشوه سم ناقع ولذلك يحق للعاقل ان يجلي بصيرته ويعرف من كل
مطلب حقيقته لئلا يكون كمن يريد حبلا ينطوق فرأى حية فظن مسعا فاخذها
فلدغته وقد قسم الخيرات على وجه آخر فقيل الخيرات ثلثة مؤثرة لذاتها ومؤثرة لغيرها
ومؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها فالمؤثرة لذاتها السعادة الاخروية والنفع المؤثرة
لغيرها الدراهم والدنانير فانا لو تصورنا ارتفاع الضرورات التي يستدفع بها لكانت هي
والحصباء سواء والمؤثرة تارة لذاتها وتارة لغيرها كصحة الجسم فمعلوم ان الرجل وان اريدت
للمشي فالانسان يريد ان يكون صحيح الرجل وان استغنى عن المشي ويقال ايضا الخيرات نافع
وجميل ولذيذ والشرور ثلثة ضار وقبيح ومولم وكل واحد من ذلك ضربان احدهما مطلق وهو
الذي يجمع الاوصاف الثلثة في الخير كالحكمة فانها نافعة وجميلة ولذيذة وفي الشر كالجهل فانه
ضار وقبيح ومولم والثاني مقيد وهو الذي جمع شيئا من اوصاف الخيرات وشيئا من اوصاف
الشرور فرب نافع موذ كجدع قصير فانه وان نفع في ادراك الثار فقد آذى ورب نافع
قبيح كالحمق فانه وان نفع من حيث ما قيل استراح من لا عقل له فهو قبيح ورب نافع من وجه
ضار من وجه كمن في سفينة فخاف الغرق فالقى متاعه في الماء فصلحت السفينة وكل ما نفعه وحالة
ولذته اطول مدة واعم فائدة وهو افضل فحق العاقل ان يرغب الى الله في ان يعطيه ما فيه
مصلحته مما لا سبيل له الى اكتسابه وان يبذل جهده مستعينا بالله في اكتساب ما له كسبه
وبلوغ الاعلى فالاعلى على الترتيب فبذلك يشرف ومن ضيع الفضل المكتسبات مع التمكن من
تحصيلها فهو دني الهمة راض بخسيس الحال واشرفها ما اذا حصل لم يعدم ولم يحتج في حفظه
الى اعوان وحفظة فكان نافعا عاجلا وآجلا ومطلقا في كل حال وكل زمان وكل مكان وذلك

هو الفضائل النفسية ولاسيما العقل والمال فاما المحسنات الحالية من المال والجاه فانها تعد من
الخيرات المتوسطة فانها تجذب الى الفضيلة مرة والى الرذيلة مرة لانها سبب للخيرات اذا كانت
مع العقل وسبب للشرور اذا كانت مع الجهل وقد نبه الله على كون ذلك سببا للشر بقوله انما
اموالكم واولادكم فتنة وقوله فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم ولذلك قيل العبد هو الخير العاقل
غنيا كان او فقيرا قويا او ضعيفا ان قيل ما الخير والسعادة والفضيلة والنافع وهل
بينها فرق قيل اما الخير المطلق فهو المختار من اجل نفسه والمختار غيره لاجله وهو
الذي يتشوقه كل عاقل بل قد قيل هو الذي يتشوقه الكل بلا مثنوية فان الكل يطلب بالحقيقة
الخير وان كان قد يعتقد في الشر انه خير فيختاره فمقصده الخير ويضاده الشر وهو
المحتوى من اجل نفسه والمحتوى غيره من اجله قال النبي عم لا خير في خير بعده النار
ولا شر في شر بعده الجنة فجعل الخير المطلق الجنة والشر المطلق النار كما يرى وقد يقال لكل
ما يتوصل به الى الخير خير ولهذا سمى الله المال خيرا في قوله ان ترك خيرا لكن المال والجاه
في الحقيقة قد يكون خيرا لبعض الناس وشرا لبعضهم فمعلوم انه كان شرا لمن قال الله تعالى
فيه الذي جمع مالا وعدده يحسب ان ماله اخلده واما السعادة المطلقة فحسن الحيوة
في الآخرة وهي الاربع التي تقدم ذكرها من البقاء بلا فناء والقدرة بلا عجز والعلم بلا جهل و
الغنى بلا فقر وقد يقال لما يتوصل به الى هذه السعادات الاربع سعادة وهي الستة عشر
المتقدمة ويضادها الشقاوة واما الفضيلة فاسم لما يحصل به للانسان مزية على الغير
وهو اسم لما يتوصل به الى السعادة ويضادها الرذيلة واما النافع فهو ما يعين على بلوغ
الفضيلة والنافع في الشيء ضربان ضروري وهو ما لا يمكن الوصول الى المطلوب الا به كالعلم والعمل
الصالح في البلوغ الى النعيم الدائم وغير ضروري وهو الذي قد يسد غيره مسده كالسكنجبين
في كونه نافعا في قمع الصفراء فان ذلك قد يسد غيره مسده وكل نافع فقد يسمى فضيلة وسعادة
وخيرا لكونه مبلغا الى ذلك

حاجة بعض هذه الفضائل الى بعض

قد ثبت مما تقدم ان
الخيرات والفضائل خمسة انواع اخروية ونفسية وبدنية وخارجة وتوفيقية فيجب ان
يعلم ان بعض ذلك يحتاج الى بعض اما حاجة ضرورية بحيث لو لم يوجد ذلك لم يصح وجود
الآخر او حاجة نافعة بحيث لو لم يوجد لاختل حال الآخر وذلك ان السعادة الحقيقية الاخروية
لا سبيل الى الوصول اليها الا باكتساب الفضائل النفسية ولذلك قال تعالى ومن اراد الآخرة
الآية فبين انه لا مطمع لمن اراد الوصول اليها الا بالسعي ولا سبيل الى تحصيل الفضائل النفسية
الا بصحة البدن وقوته ولانه لا غنى بكمال الفضائل النفسية والبدنية من الفضائل الخارجة
فانه وان امكن ان يتصور حصولها لمن لا اهل له ولا مال ولا عشيرة فلا يكمل الا بها

الفضائل المطيفة بالانسان

قد تقدم ان ذلك بالقول المجمل اربعة اشياء المال والاهل والعز وكرم
العشيرة وان هذه الاشياء نافعة في بلوغ الفضيلة الحقيقية والسعادة الاخروية وجارية
مجرى الجناح المبلغ وان لم يكن الحاجة اليها في بلوغ ذلك ضرورية فاما المال فصاحبه يتمكن
من فضائل اذا افتقد يتعذر بلوغها فمعلوم ان كثيرا من القرب كالزكوة والحج يتكلفه الفقير
والفقير في تحري الفضائل كساع الى الهيجاء بغير سلاح وكبازي متصيد بلا جناح وفضله
مغطى كماء تحت ارض ونار كامنة في الصخر وما اصدق ما قال الشاعر فلا مجد في الدنيا
لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده وقال الآخر والمرء يرفعه الغنى والفقر منقصة وقل
وكان النبي عم يقول اللهم اني اسالك الهدى والتقى والعفة والغنى وقال عم نعم العون على تقوى
الله المال واما الاهل فنعم العون على بلوغ السعادة فمن كثر اهله وصلحوا صار له منهم عيون
وآذان زوائد وقال تعالى حاكيا عن لوط لو ان لي بكم قوة او آوي الى ركن شديد قال الشاعر
الم تر ان جمع القوم يخشى وان حريم واحدهم مباح وقال عم في نفع الولد اذا مات الرجل
انقطع عمله الا من ثلث صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له وقال عم ريح
الولد من ريح الجنة وقال عم نعم العون على الدين المرأة الصالحة فالمرأة مزرعة للرجل قيضها
له ليزرع فيها نوعه كما قال تعالى نساؤكم حرث لكم واما العز فبه يتابى عن تحمل الذل ومن لا عز

له لا يمكنه ان يذود عن حريمه ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان وقرينان مؤتلفان
ومؤديان الى عمارة البلاد وصلاح العباد وقيل الدين اس والسلطان حارس وما لا اس له
فمهدوم وما لا حارس له فضايع وسمى الله تعالى الحجة سلطانا لقهرها اولى البصاير وقال عز وجل
ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض واما كرم العنصر فانه يقال له الحسب
والشرف والشرف اخص بمآثر الاباء والعشيرة ولذلك قيل للعلوية اشراف ومن الناس
من لا يعد شرف الاصل فضيلة وقال المرء بنفسه واستدل بقول امير المؤمنين الناس ابناء
ما يحسنون وبقوله قيمة كل امرء ما يحسنه وقول الشاعر كن ابن من شئت واكتسب ادبا
يغنيك محموده عن النسب وقول الحكيم الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية وليس ذلك
كما ظن لان كرم الاعمام والاخوال مخيلة لكرم المرء ومظنة له فالفرع وان كان قد يفسد احيانا
فمعلوم ان اصله يورثه الفضيلة والرذيلة وانه لا يكون من النخل الحنظل ولا من الحنظل النخل ولذلك
قال الشاعر شعر وهل يك من خير اتوه فانما • توارثه اباء اباؤهم قبل • وهل ينبت الخطي
الا وشيجه • ويغرس الا في منابتها النخل • وقيل ان السرى اذا اسرى فبنفسه • وابن السرى
اذا اسرى اسراهما • وسبب ذلك ان الاخلاق نتايج الامزجة ومزاج الابن كثيرا ما يتادى
الى الابن كالالوان والصور والخلق ومن اجل تاديها اليه قال عم تخيروا لنطفكم وقال عم
واياكم وخضراء الدمن وما ذكر من نحو قول امير المؤمنين الناس ابناء ما يحسنون فحث
على اقتباس العلم ونهى عن الاقتصار على مآثر الاباء فان المآثر الموروثة قليلة الغناء
ما لم يتضامها فضيلة النفس لان ذلك انما يحدث لكي يوجد الفرع مثله ومتى اخلف الفرع
وخلفه كأنه يخبر باحد شيئين اما يكذب من يدعى الشرف لعنصره او يكذبه في انتمائه
الى ذلك العنصر وما فيها حظ المختار والمحمود ان يكون الاصل في الفضل راسخا والفرع
شامخا كما قال الشاعر زانوا قديمهم بحسن حديثهم • وكريم اخلاق بحسن خصال •
ومن لم يجتمع له الامران فلان يكون المرء شريف النفس دنى الاصل اولى من ان يكون دنى النفس

شريف الاصل شعر فالحسب الموروث لا در دره • بمحتسب الا باخر مكتسب • اذا الغصن لم يثمر وان
كان شعبة • من المثمرات اعتده الناس في الحطب • ومن كان عنصره في الحقيقة دنيا
وفي نفسه دنيا فذلك الذي اما من اهماله نفسه وسوء منهاها واما التعود عادات قبيحة وصحبة
اشرار وغير ذلك من العوارض المفسدة للعناصر الكريمة فليس سبب الرذيلة شيئا واحدا

الفضايل الجسمية قد استهان قوم بذلك وقالوا كفى بالمرء ان يكون صحيح البدن بريا
من الامراض الشاغلة عن تحري الفضايل العقلية وليس كذلك فالبدن للنفس بمنزلة
الالة للصانع والسفينة للربان اللذين بهما صار صانعا وربانا وجميع اجزاء البدن
بالقول المجمل اربعة العظام التي تجري للبدن مجرى الالواح للسفينة والعصب الذي
يجري له مجرى الرباط الذي يشد به الالواح واللحم الذي يجري له مجرى الحشو للرباطات
والجلد الذي يجري مجرى الغشاء لجميعها فاذا اعتدلت هذه الاربعة بان يعتدل فيها
القوى الاربع وهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة سمي ذلك الصحة ولولا صحة البدن
لما حصل الانتفاع به واما القوة فهي جودة تركيب هذه الاركان الاربعة وهي العظام
والعصب واللحم والجلد وما يشبهها وبها يصلح البدن للسعي والتصرف في امور الدنيا
والاخرة واما الجمال فنوعان احدهما امتداد القامة الذي يكون عن الحرارة الغريزية
فان الحرارة اذا حصلت رفعت اجزاء الجسم الى العلو كالنبات اذا انجم كلما كان اطلب
للعلو في منبته كان اشرف من جنسه ولاعتبار ذلك استعمل في كل ما جاد في جنسه
العالي والفائق وكثر المدح بطول القامة نحو كان ذرور القعطبية علقت علاتها
منه بجذع مقوم وقال اخر اشم طويل الساعدين كانما يناط نجادا سيفه بلواء والثاني
من الجمال ان يكون معتدلا قوي العصب طويل الاطراف ممتدها رحب الذراع غير مثقل باللحم
والشحم كما قال شعر فتى قد قد السيف لا متضائل ولا رهل لباته واباجله ولا نعني
بالجمال ههنا ما يتعلق به شهوة الرجال والنساء فذلك انوثة وانما نعني به الهيئة التي

لا تسوا الطباع عن النظر اليها وهو ادل شيء على فضيلة النفس لان نورها اذا اشرق فادى
الى البدن اشراقها بكل بحصر فله حكمان احدهما من قبل جسمه وهو منظره والآخر من قبل
نفسه وهو مخبره وكثيرا ما يتلازمان ولذلك فزع اصحاب الفراسة في معرفة احوال النفس
اولا الى الهيآت البدنية حتى قال بعض الحكماء قل صورة حسنة يتبعها نفس ردية
فنقش الخواتم مقروء من الطين وطلاقة الوجه عنوان ما في النفس وليس في الارض قبيح
الا وجهه احسن ما فيه وقال عم اطلبوا الحاجات من حسان الوجوه وقال عمر رضه اذا
بعثتم رسولا فاطلبوا احسن الوجه حسن الاسم فالوجه والعين يظهر فيهما آثار النفس فكل المرء
يستدل بها عليها ولذلك يظهر فيهما اثر سرور النفس وحزنها ورضاها وسخطها ولذلك
عبر بالوجه عن الجملة وعن رئيس القوم فقيل فلان وجه القوم وعينهم وحتى قال تعالى
كل شيء هالك الا وجهه وكون الوجه المقبول في دلالته على فضيلة النفس وان لم يكن حكما لازما
فهو على الامر الاكثر وحكي ان المامون استعرض جيشا فمر به رجل قبيح الوجه فاستنطقه
فوجده الكن فامر باسقاطه وقال ان الروح اذا كانت ظاهرة كانت صباحة واذا كانت باطنة
كانت فصاحة واذا لا ظاهر ولا باطن وكفى من البيان في فضل كمال الجسم قوله تعالى ان الله
اصطفيه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم وقال وزادكم في الخلق بسطة واما طول العمر فلولاه
لقل حظ الانسان من السعادات الدنيوية التي لولاها لما نيلت السعادة الاخروية ما يتولد
من الفضائل النفسية امهات الفضائل النفسية وان كن اربعا فلها بنات هن امهات
لفضائل اخر وبيان ذلك ان العقل متى يقوى يتولد منه حسن نظر وجودة الفكر وجودة النظر
الذكر ومن حسن فعله الفطنة وجزالة الراي ويتولد من اجتماعها اربعتها جودة الفهم وجودة
الحفظ والشجاعة متى تقوت يتولد منها الجود في حال الغنى والصبر في حال المحنة والفقر بل الجزع
ويورث الشهامة المختصة بالرجولية كما قال خلقنا رجالا للتجلد والاسى وتلك الغواني
للبكا والماتم والعفة اذا تقوت ولدت القناعة والقناعة تمنع عن الطمع في مال الغير فتولد

الامانة والعدالة اذا تقوت تولد منها الرحمة والرحمة هي الاشفاق من ان ينوب
من ذا حق حقه فهي تولد الحلم والحكم يعني العفو والانسانية والكرم يجمع هذه الفضايل
وذلك لان الانسانية هي الفضايل النفسية المختصة بالانسان وبقدر ما يكتسبها الانسان
يستحق هذه الصفة وفيها تفاصيل كثيرة كما تقدم في الفرق بين الانسان والانسان
ومنهم من ارتفع حتى لحق بافق الملك فلو تصورنا ملكا جسمانيا لكان هو اياه لارتفاعه
عن الانسان الا بالصورة التخطيطية وعلى هذا قوله تعالى ان هذا الا ملك كريم ومنهم من
اتضع حتى صار في افق البهايم فلو تصورنا كلبا او حمارا منتصب القامة متكلما لكان
هو اياه لانسلاخه من الانسانية الا بالصورة التخطيطية وعلى هذا قوله تعالى ان هم
الا كالانعام بل هم اضل ومنهم من هو في اوساط هذين في درجة من درجات لها كثيرة
ولهذا صح ان يقال فلان اكثر انسانية من فلان وما يختص به لفظ الانسانية فهو الافعال
والاخلاق المحمودة واما المذمومات من الاخلاق فيشارك الانسان فيها البهايم والشياطين
واما المروة فلها اشتقاقان في احدهما يقتضي ان يكون هي والانسانية متقاربين
وهو ان يجعل من قولهم مرؤ الطعام وامرا اذا تخصص بالمرء لموافقة الطبع فكانها اسم
للاخلاق والافعال التي تقبلها النفوس السليمة فعلى هذا يكون اسما للافعال المستحسنة
كالانسانية والثاني ان يكون من المرء فيجعل اسما للمحاسن التي يختص بها الرجل دون
المراة فيكون كالرجولية وذلك اخص من الانسانية اذ الانسان يشترك فيها الرجال
والنساء والمروة اخص وكثيرا ما يكون فضيلة للمراة يكون رذيلة للرجل كالبله والجعد
والبخل والجبن ولهذا قيل افضل اخلاق الرجال ارذل اخلاق النساء فالكيس والشجاعة
والجود رذيلة لهن وقيل لمعوية ما المروة فقال الطعام الطعام وضرب الهام وقيل
للاحنف فقال ان لا تفعل في السر ما يستحي منه في العلانية وقيل لآخر فقال جماعها
في قوله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان الآية واما الكرم فاسم لجامع الاخلاق

والافعال المحمودة اذا ظهرت بالفعل والحرية مثله لكن يقال ذلك فيمن لا يستعبد المطامع
والاعراض الدنيوية وذكر بعض الحكماء ان الحرية يقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة
والكرم لا يقال الا في المحاسن الكبيرة كمن ينفق مالا في تجهيز جيش في سبيل الله او تحمل حمالة
يرقا بها دماء فقيل فكل كرم حرية وليس كل حرية كرما وايضا فالحرية تتعلق بالتطلف
عن الاضد الكثير والكرم يتعلق بالانفاق الكثير وبضاد الكرم اللوم والحرية العبودية
اعني المذكورة في قوله شعر والعبد لا يطلب العلاء ولا ● يعطيك شيئا الا اذا رهبا وكما
ان الكرم اعم من الجود فاللوم اعم من البخل ولا مدخل في الحرية والكرم للنساء فانهن
مستخدمات بل مستعبدات ولذلك لو امر الله مخلوقا بعبادة مخلوق لامر النساء
بعبادة ازواجهن وقيل ما حقيقة قول الله تعالى ان اكرمكم عند الله اتقيكم قيل لما كان
الكرم اسما للافعال المحمودة التي قد تقدم ذكرها وهذه الافعال انما تكون فاضلة اذا كانت عن
علم وقصد بها اشرف الوجوه اي وجه الله تعالى وذلك هو التقوى فليس التقوى الا العلم و
تحري الافعال المحمودة فاذا كل من اتقى كان اكرم والعزيز الذي يتابى تحمل المذلة واستعانة
من العزاز وهو كالمتطلف في الاسباع من تناول الشهوات المذلة واصله من الطلف
اي الارض الصلبة وفرق بعض الحكماء بين الكريم والعزيز فقال الكريم يابى ان يعطي له
والعزيز يابى ان يعطي عليه والظرف اسم لحالة تجمع عامة الفضايل النفسية والبدنية والخارجية
تشبيها بالظرف الذي هو الوعاء ولذلك قال اعرابي فلان حاصن الشرف معدن الفضل ولكونه
واقعا على كل ذلك قيل لمن حصل له علم وسخاء ظريف ولمن حسن لباسه ورياشه واثاثه
ظريف فالظريف اعم من الحرية والكرم واما الفتوة فكالمروة فانه اسم لما يختص به من
الفضايل الانسانية لكنه بالرجولية اشبه وقد استعارت الصوفية لفظ الفتوة
للتصوف لكونها مساوية له في جميع افعالها الا في الغرض فان غرض الفتيان استجلاب
محمدة الاقران وغرض المتصوفة استجلاب محمدة الرحمن بل مجرد مرضاته تعالى واما الحسب فقد يقال

فيما يختص الانسان به فيعد من مآثره وقد يقال فيما يوثر عن آبائه والشرف نحوه لكن اكثر
ما يقال فيما يوثر عن الآباء **الفضايل التوفيقية** التوفيق موافقة ارادة الانسان وفعله
قضاء الله وقدره وهو وان كان موضوعا على وجه يصلح استعماله في السعادة والشقاوة
فقد صار متعارفا في السعادة فقط والاتفاق مطاوعة التوفيق لكن قد يستعمل في السعادة
والشقاوة جميعا فيقال اتفاق جيد واتفاق ردي والتوفيق ما لا يستغني الانسان عنه في
كل حال كما قيل لحكيم ما الذي لا يستغنى عنه احد في كل حال فقال التوفيق وانشد شعر
اذا لم يكن عون من الله للفتى ● فاكثر ما يجني عليه اجتهاده فالسعادة التوفيقية هي
الهداية والرشد والتسديد والتاييد فيجب ان يعلم ان لا سبيل لاحد الى شيء من الفضايل
الا بهداية الله تعالى ورحمته فهي مبدا الخيرات ومنتهاها كما قال تعالى اعطى كل شيء خلقه
ثم هدى وخاطب الناس فقال ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد ابدا وقال
عم ما احد يدخل الجنة الا برحمة الله اي بهدايته قيل ولا انت يا رسول الله قال ولا انا
نبه بها انه لو توهمت رحمته مرتفعة ابتداء وانتهاء ما كان لنا سبيل الى ذلك وللهداية
ثلثة منازل في الدنيا الاول تعريف طريق الخير والشر المشار اليهما بقوله وهديناه
النجدين وقد خول الله تعالى الهدى كل مكلف بعضه بالعقل وبعضه بالسنة الرسل
واياه عنى بقوله واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى والثاني ما يمد به العبد حالا
فحالا بحسب استزادته من العلم والعمل الصالح واياه عنى بقوله والذين اهتدوا زادهم
هدى الثالث نور الولاية التي هي في افق نور النبوة واياه عنى بقوله قل ان هدى الله
هو الهدى فاضاف ذلك الى لفظة الله تعظيما له ثم قال هو الهدى فجعله الهدى المطلق وبقوله
يا ايها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم اي نورا يفرقون
به بين الحق والباطل وكل ذلك يسمى النور والحكمة نحو او من كان ميتا فاحييناه الآية
وقال افمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وبتحري هذه المنازل الثلثة

يتوصل الى الهداية للجنة المذكورة في قوله وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي
لولا ان هدانا الله والرشد عناية الهية تعين الانسان عند توجهه في اموره فتقويه
مما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده واكثر ما يكون ذلك من الباطن نحو قوله ولقد آتينا
ابراهيم رشده من قبل وكثيرا ما يكون ذلك بتقوية العزم او بفسخه واليه يتوجه قوله ان الله
ان الله يحول بين المرء وقلبه والتسديد ان يقوم ارادته وحركته نحو الغرض المطلوب ليهجم اليه
في اسرع مدة يمكن الوصول فيها اليه وهو المسؤول بقوله اهدنا الصراط المستقيم والنصرة من الله
معونة الاولياء والانبياء وصالحي العباد بما يؤدي الى صلاحهم عاجلا او آجلا وتارة يكون من
خارج بما يقيضه الله فيغنيه وتارة من داخل بان يقوي قلوب الاولياء او يلقي رعبا في قلوب
الاعداء وعلى ذلك قوله انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحيوة الدنيا وقوله ولقد سبقت كلمتنا
لعبادنا المرسلين الى قوله الغالبون واما ما يختص بسعادة الدنيا ولا يعتبر فيه العاقبة
فيقال لها الدولة والدولة وعلى هذا قوله وتلك الايام نداولها بين الناس وقوله في وصف
الفيء كيلا يكون دولة والتاييد تقويته امره من داخل بالبصيرة ومن خارج بقوة البطش
وللاول قال الله اذ ايدتك بروح القدس والعصمة فيض الهي يقوى به الانسان على تحري
الخير وتجنب الشر حتى يصير كمانع له من باطنه وان لم يكن منعا محسوسا واياه عني بقوله
ولقد همت به وهم بها لولا ان رأى برهان ربه وروي ان يوسف رأى صورة يعقوب وهو
عاض على انامله فانحجم وليس ذلك بمانع ينافي التكليف كما توهمه بعض المتكلمين فان ذلك كان
تصورا منه وتذكرا لما كان قد حذره منه وعلى هذا قال كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء
الآية ومن عصمته تعالى ان يكرر الوعيد على من يريد عصمته لئلا يغفل ساعة عن مراعاة نفسه
كقوله للنبي عم ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين
واعلم ان رشده تعالى للعبد وتسديده ونصرته وعصمته يكون بما يخوله من الفهم الثاقب
والسمع الواعي والقلب المراعي وتقييض المعلم الناصح له والصديق الموافق وامداده بالمال

بما لا يقعد به عن مجاراة قلبه ولا يستعمل فيه كثرته وعن العشيرة والعز ما يصونه عن سفه السفهاء
وعن الغض منه من جهة الاغنياء وان يخوله من كبر الهمة وقوة العزيمة ما يحفظه عن التسفف
الدنية والتاخر عن بلوغ كل منزلة سنية في تلازم الفضائل النفسية بعضها بعضا ٣٠
العقل والشجاعة والعفة والجود والعدالة وسائر الفضائل متلازمة فان العقل اذا اشرق
عقل صاحبه عن الاقدام على ما يورثه مذمة وحمله على الاقدام على المخاوف الذي يورثه
محمدة وعلى ان يسمح بفضلات ما في يده لمن يحتاج اليه وان يبذل لكل ذي حق حقه وذلك هو العفة
والشجاعة والجود والعدالة وكذلك اذا كان عدلا يحمله عدله على ترك تناول ما لا يجوز له تناوله وان لا
يحجم عما يلزمه الاقدام عليه وان لا يبخل بفضلات ما في يده واذا كان شجاعا لا يقهره شهوته على تناول
ما لا يجوز له تناوله وعلى ظلم غيره ولا يخاف الفقر فيبخل ولهذا النظر جعل بعض الشعراء الشجاعة
سماحة والسماحة شجاعة فقال ايقنت ان من السماح شجاعة تدمي وان من الشجاعة جودا وجعل
النبي عم دفع الشهوة جهادا فقال جاهد هواك وجعل العفة جودا فقيل الجود جودان جود بما
في يدك وجود بما في يد غيرك وهو اعظمهما وهذه الفضائل اذا حصلت حصل بها الانسانية
والحرية والكرم وعنها تتاصل الايمان والاسلام والتقوى والاخلاص البواعث على فعل
الخير وتحري الفضائل البواعث على فعل الخيرات الدنيوية ثلث اذناها الترغيب والترهيب
ممن يرجى نفعه ويخشى ضره والثاني رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه الثالث
تحري الخير وطلب الفضيلة فالاول من مقتضى الشهوة وذلك من فعل العامة والثانية من مقتضى
الحياء وهو من فعل السلاطين وكبار ابناء الدنيا والثالثة من مقتضى العقل وذلك من فعل
الحكماء ولهذه المنازل الثلثة قيل خير ما اعطى الفتى عقل يردعه فان لم يكن فحياء يمنعه
فان لم يكن فخوف يقمعه فان لم يكن فمال يستره فان لم يكن فصاعقة تحرقه فتريح منه العباد
والبلاد وكذلك البواعث الى الخيرات الاخروية ثلثة الاول الرغبة في ثواب الله والمخافة
من عقابه وذلك منزلة العامة والثاني رجاء حمده ومخافة ذمه وذلك منزلة الصالحين

والثالث طلب مرضاة الله في المجربات وذلك منزلة النبيين والصديقين والشهداء وهي
اعزها وجودا ولذلك قال بعضهم افضل ما يتقرب به العبد الى الله ان يعلم انه لا يريد العبد
من الدنيا والآخرة غيره قال الله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي
يريدون وجهه وقيل لرابعة رضي الله عنها سل الله في دعائك الجنة فقالت الجار قبل الدار
وبهذا النظر قال بعضهم من عبد الله بعوض فهو لئيم وقال بعضهم من العلماء هذه المنازل
الثلث منازل الظالم والمقتصد والسابق واحد بهذه الثلث ما روي عنه عم انه قال
سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء وقد قال بعض العلماء مسائلة العلماء ترغبك
من الله في ثوابه وتخوفك من عقابه ومخالطة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك من الذم و
مجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل الباري **الموانع** من تحري الفضائل وذلك ضربان
قصور وتقصير فاما القصور فان لا يكون له المعاني العشرة التي قدمناها ولا التمكن من اكتسابها
او يكون له ذلك ولكن يعوقه عن استعماله عائق من مرض او شغل ضروري يعذر كحاجته الى السعي
فيما يسد به جوعته ويستر به عورته وهما عدم الوسع المذكور في قوله تعالى لا يكلف الله نفسا
الا وسعها وذوا الامرين الفزع الى الله تعالى والتضرع اليه بان يجبر نقصه بتمام جوده وسعة
رحمته واما التقصير فبأربعة اشياء الاول ان يكون لشأنه لا يعرف الحق من الباطل والجميل
من القبيح فيتقي عملا ودواؤه سهل وهو التعليم الصائب الثاني ان يكون قد عرف ذلك لكن
لم يتعود فعل الصالح وزين له سوء عمله فرآه حسنا فتعاطاه فامره اصعب من الاول لكن
يمكن ان تتمرن على العادة الجميلة حتى يتعودها وان كان قد قيل ترك العادة شديد والثالث
ان يعتقد في الباطل والقبيح انه حق وجميل فربي على ذلك ومداواة ذلك صعب جدا فقد صار
ممن طبع على قلبه اذ قد نقش بنفسه كما نقش كتب فيه ما يؤدي صرفه منه الى حرقه
وفساده والرابع ان يكون مع جهله وتربيته على الاعتقاد الفاسد شريرا في نفسه
يرى الخلاعة وفقد الناس طاعة وذلك اصعب الوجوه الى نحو فقصد من قال من التعذيب

تاديب الذئب ليتهذب وغسل الزنجي المسح ليبيض فالاول من هؤلاء الاربعة يقال له
الجاهل والثاني يقال له جاهل وضال والثالث يقال له جاهل وضال وفاسق والرابع يقال
له جاهل وضال وفاسق وشرير **الارتقاء** في درجات الفضائل والانحدار عنها الى اقصى
الرذائل للانسان في منازل الفضائل مرتقى صعب ومنحدر سهل وعلى الارتقاء فيها حث
ربنا تعالى بقوله وسارعوا الى مغفرة من ربكم وبقوله فاستبقوا الخيرات ومدح
قوما بقوله اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون وعن الانحدار منها نهى تعالى بقوله
ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين وبقوله ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها
الآية وذم قوما شانهم ذلك بقوله ومنهم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم بعد علم
شيئا الآية فان الآية تقتضي هذا المعنى وان كان ظاهرها يدل على الجهل الذي يورثه
الهرم فالخيرات يترقى فيها فيبلغ الى اشرف المنازل باربع درجات وينحدر عنها
فيبلغ الى ارذل المنازل باربع درجات واما درجات الارتقاء فاولها ان يرتدع
الانسان عن المآثم ويهجرها ويندم عليها ويعزم على ترك معاودتها وذلك اول درجة
التائبين المطيعين لله ولرسوله وثانيها ان يقوم بالعبادات الموظفة عليه ويسارع
بقدر وسعه وذلك درجة الصالحين وثالثها ان يتحرى بعلمه الحقيقي تعاطي الحسنات
من غير يلتفت منه الى المحصورات بمجاهدة هواه واماتة شهواته وذلك منزلة الشهداء
ورابعها ان يكون مع هذه الاحوال المتقدمة مرضيا ظاهرا وباطنا بقضاء الله وقدره
فلا يتبرم بحكمه ولا يتسخط شيئا من امره ويعلم ان الله تعالى ادى به من يقع وذلك
درجة الصديقين وهذه المنازل الاربعة هي المراد بقوله من يطع الله والرسول فاولئك
مع الذين انعم الله عليهم من النبيين الآية وجدير ان يكون هذه المنازل الاربعة هي المامور
بها في قوله تعالى يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا الآية واعلم ان منزلة
الرضا اشرف المنازل بعد النبوة فمن رضي عن الله رضي الله عنه لقوله تعالى رضي الله

عنهم ورضوا عنه فيحل احد الرضائين مقرونا بالآخر فمن بلغ هذه المنازل فقد عرف
خساسة الدنيا واطلع على جنة المأوى وحظي بقرب الملأ الأعلى وحظي بمحبتهم المخبة
بقوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم واما درجات الانحدار والارذال
عنها فاولاها الكسل عن تحري الخيرات ويورثه ذلك الزيغ المعني بقوله فلما زاغوا ازاغ
الله قلوبهم وثانيها الغباوة وهو ترك النظر وبغض العلم فيورثه ذلك رينا على قلبه
المعني بقوله كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وثالثها الوقاحة وهو ان يرتكب
الباطل ويراه في صورة الحق ويذب عنه فيورثه ذلك قساوة القلب كما قال تعالى
ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة او اشد قسوة ورابعها الانهماك في الباطل
وهو ان يستحسنه فيحبه ويحسنه فيورثه ذلك ختما على قلبه واقفالا عليه كما قال تعالى
ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم الآية وكما قال ام على قلوب اقفالها فالكسل سبب الغباوة
والغباوة سبب الوقاحة والوقاحة سبب الانهماك في الباطل كما ان الزيغ اوجب الرين
والرين اوجب الغباوة والقساوة يوجب الختم والاقفال فحق الانسان ان يراعي نفسه
في الابتداء ولا يترخص في ارتكاب الصغائر فيؤديه الى ارتكاب الكبائر ان الامور
ومنها مما يهيج لك العظيم وقد قال الله تعالى فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك
للخروج فقل لن تخرجوا معي ابدا الآية فدل ان قعودهم اول مرة ادى بهم الى ان صاروا
محكوما عليهم انه لا يتأتى منهم الخروج معه بوجه سنة عادة الله في تهذيب الدين تردد
في الرذائل حتى فسدت اخلاقهم الانسان متى تركوا تعاطي الاحسان والافعال وتحري
العدالة فما يستهم ولا يأتوننا لا حلفا ولا تخلفا ولا رياء ولا سمعة ولا رغبة ولا رهبة
فصاروا في تعاطي الشر سواسية كأسنان الحمار عدم فيهم الفضائل كما قال عم لن يزال الناس
بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا فحق ان يتقي في نفوسهم اثر قبول الخير ان شاء الله فيهم من
يهديهم باللسان والسيف ويختص لبعثة النبي عم في العرب لما بقي فيهم من اثر الخير من تعظيم

الشهر الحرام والبيت الحرام والوفاء بالذمام وان قل فيهم اثر قبول الخير سلط الله عليهم
سلطانا جائرا كما قال وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا وكما قال عم ان الله ينتصف
من اوليائه باوليائه ومن اعدائه باعدائه وعاملهم بما عامل به بني اسرائيل حيث سلط
عليهم بخت نصر وقد ذكر ذلك في قوله تعالى فاذا جاء وعد اوليهما بعثنا عليكم عبادا لنا اولي
باس شديد وان عدم منهم اثر القبول بعث فيهم عذابا يفنيهم اما طوفانا او صيحة او نارا
محرقة او رجفا فيها عذاب اليم او الجراد او القمل والضفادع والدم ليطهر منهم البلاد
ويريح منهم العباد كما صنع الله بعاد وثمود وقوم نوح ولوط وذلك كالارض اذا استولى
٣٦ عليها الشوك وهو الوغل لا بد من نسفها وتسليط النار عليها حتى يعود بيضاء اصناف
الناس اصناف الناس ضربان خاص وعام فالخاص ما قد تخصص من المعارف بالحقائق
دون التقليدات ومن الاعمال بما يبلغ به الى جنة المأوى دون ما يقتصر على الحيوة الدنيا
والعام اذا اعتبر بذلك فالذين يرضون من المعارف بالتقليدات ومن اكثر الاعمال مما
يؤدي الى منفعة دنيوية واذا اعتبر بامور الدنيا فالخاص من يتخصص بامور البلد
بما يتحرم بافتقاده شيء منها وهم من وجه آخر ثلثة خاصة وعامة والاوساط
هم المسمون في كلام العرب بالسوقة والخاص هو الذي يسوس ولا يساس والعام الذي
يساس ولا يسوس والوسط الذي يسوسه من فوقه وهو يسوس من دونه ومن وجه آخر
ثلثة اضرب اصحاب الشهوات وهمتهم الجدة واليسار والاكل والشرب والنكاح
واصحاب الكرامة والرياسة وهمتهم المدح واستجلاب الحمد والصيت واصحاب الحكمة وكل
واحد منهم من يستعظم من هو من جنسه ولهذا احتاج السلطان ان يتخصص بكل ذلك
ونفسه ليكون معظما عند كل ضرب من الناس فيعظمه اصحاب الحكم لحكمته واصحاب الكرامة
والرياسة لرياسته واصحاب الشهوات لماله وكثرة قنياته ومن وجه آخر ثلثة اضرب
ملكي وشيطاني وانسي فالملكي الذي يستعمل القوة العاقلة بقدر جهده وهم المؤمنون حقا

والشيطاني الذي يستعمل القوة الشهوية من غير يلتفت منه الى مقتضى العقل والانسي الذي
خلط عملا صالحا وآخر سيئا وهم المذكورون في قوله تعالى وكنتم ازواجا ثلثة الى قوله اولئك
المقربون ومن وجه آخر ضربان ابرار وفجار فالابرار ثلثة اضرب ظالم ومقتصد وسابق
وهم المذكورون في قوله تعالى ثم اورثنا الكتاب وهم ايضا اعني الابرار ثلثة اضرب انبياء
للمشاهدة والدلالة كقوله تعالى لقد ارسلنا رسلنا الى قوله بالقسط وحكماء وهم الاولياء
للمراقبة والرعاية كقوله الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الى قوله ذلك هو
الفوز العظيم وعوام للمجاهدة والكفاية وهم المذكورون في قوله تعالى يجاهدون في سبيل
الله ولا يخافون لومة لائم وهم ايضا ضربان عبد بالطبع وان كان ملكا وملك بالطبع
وان كان عبدا مسترقا والملك من فضل الخصائل النفيسة التي بها يصير الانسان
بحيث يصح ان يوصف بانه رباني او ولي او ملكي ويصلح ان يكون خليفة الله تعالى في ارضه
والعبد من قال النبي عم فيه تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس ولا انتعش
قال بعض الحكماء ما من انسان الا وفيه خلق من اخلاق بعض الحيوانات وبعض النبات
ليكون الانسان مشاركا لها في الجنسية وان كان مباينا لها في نوعه فمن الناس غشوم
كالاسد وغائث كالذئب وخب كالثعلب وشره كالخنزير وخاضع كالكلب
ووقح كالذباب وبليد كالحمار والوف كطير الوفاء وصنع كالسرفة وانف كالاسد
وغيور كالديك وهاد كالحمام ومنهم حسن المنظر والمخبر كالاترج ومنهم خلاف ذلك
كالعفص والبلوط ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلى ومنهم قبيح المنظر
حسن المخبر كالجوز واللوز والمؤمن الخير هو في الحيوانات كالنحل يأخذ اطايب الاشجار
ولا يعطف ثمرا ولا يكسر شجرا ولا يؤذي بشرا ثم يعطي الناس ما يكثر نفعه ويحلو طعمه
ويطيب ريحه وفي الاشجار هو كالاترج يطيب جلا ونورا وعودا وورقا والمنافق الشرير
هو في الحيوانات كالنمل والافاعي وفي الاشجار كالكشوث فلا اصل ولا زرع ولا ورق

ولا نسيم ولا ظل ولا زهر يفسد الثمار ويبس الاشجار وكالشجرة التي قل ورقها وكثر شوكها
وصعب مرتقاها

الفصل الثاني في العقل والعلم والنطق وما يتعلق بها وما يضادها

العقل اول جوهر اوجده الله تعالى واشرفه يدل له ما روي عن النبي عم اول ما خلق الله العقل
فقال له اقبل فاقبل ثم قال له ادبر فادبر ثم قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا اكرم علي
منك بك اخذ وبك اعطي ولو كان على ما توهمه قوم انه عرض لما صح ان يكون اول المخلوق
لانه محال وجود شيء من الاعراض قبل وجود جوهر يحله وقال عم لا دين لمن لا عقل له
لا يعجبنكم اسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة عقله ومن هذا الوجه الذي اشار النبي عم
قالت الحكماء من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه في اغلب خصال الخير عليه
وبالعقل صار الانسان خليفة الله ولو توهم مرتفعا لارتفعت الفضائل عن العالم فضلا
عن الانسان وبما غرسه الله تعالى منه في الانسان اهتدى من وفقه الله لتزكيته نفسه المذكور
في قوله تعالى قد افلح من زكيها وحصل به حرث الآخرة المذكورة في قوله تعالى من كان يريد حرث
الآخرة نزد له في حرثه وبحرث الآخرة على التوصل سبعة اشياء بقاء بلا فناء
وقدرة بلا عجز وعلم بلا جهل وغنى بلا فقر وامن بلا خوف وراحة بلا شغل وعز بلا ذل
والى العقل اشار بقوله تعالى الله نور السموات والارض الآية فمعنى نور السموات والارض اي منور
السموات والارض والنور العقل وقد تقدم وجه ضرب هذا المثل والعقل يقال على ضربين
احدهما بغير اضافة وهو المذكور بانه اول مخلوق والثاني بالاضافة الى آحاد الناس
فيقال عقل فلان وهذا من الاول بمنزلة الضوء من الشمس

انواع العقل

العقل عقلان
غريزي وهو القوة المتهيئة لقبول العلوم ووجوده في الطفل كوجود النخل في النواة والسنبلة
ومستفاد وهو الذي يتقوى به تلك القوة وهذا المستفاد ضربان ضرب يحصل للانسان
حالا فحالا بلا اختيار منه فلا يعرف كيف حصل وضرب باختيار منه فيعرف كيف حصله
ومن اين حصله وحصوله بقدر اختياره في تحصيله ويكون العقل غريزيا ومستفادا

قال امير المؤمنين علي رض تم العقل عقلان مطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع اذا لم يكن مطبوعا
كما لا ينفع الشمس وضوء العين مم والى الاول اشار النبي عم بقوله ما خلق الله خلقا
اكرم عليه من العقل والى الثاني اشار بقوله عم لعلي رض اذا تقرب الناس الى خالقهم
بابواب البر فتقرب انت اليه بعقلك تسبقهم بالدرجات والزلفى عند الناس في الدنيا
والآخرة وقال ما اكتسب احد شيئا افضل من عقل يهديه الى هدى او يرده عن ردى والاصطلاح
النظريين قال قوم العقل مبدع وقال قوم هو مكتسب وكلا القولين صحيح من وجه
والعقل الغريزي للنفس بمنزلة البصر للجسد والمستفاد لها بمنزلة النور فكما ان الجسد متى
لم يكن له بصر لهو اعمى كذلك النفس متى لم تكن له بصيرة اي عقل غريزي فهي عمياء وكما
ان البصر متى لم يكن له نور من الخارج لم يجد بصرا كذلك العقل متى لم يكن نور مستفادا من العلم
لم يجد بصيرة وكذلك قال الله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور وقد جعل للعقل
نظر وادراك ورؤية وابصار وجعل له اضداد ذلك من العمى وغيره قال الله تعالى وتريهم
ينظرون اليك وهم لا يبصرون وقال ما كذب الفؤاد ما رأى وقال وكذلك نري ابراهيم ملكوت
السموات والارض وليكون من الموقنين ولما كان فقدان البصيرة اشنع من فقدان البصر
لان ارتفاع البصيرة ارتفاع النفع بالبصر قال الله تعالى فانها لا تعمى الابصار فذمهم
بفقدان البصيرة تنبيها ان فقداننا اختياري اذ هو بتركهم استفادة العلم واكثر
فقدان البصر ضروري قال الله تعالى الذين كانت اعينهم في غطاء عن ذكري فلولا ان العين
اراد بها البصيرة لما قال عن ذكري لان الذكر لا يدرك بحاسة العين وقال ابن عباس رضي الله عنه
لمن عيره بفقدان البصر انا نفاخ في ابصاركم وانتم تصابون في بصائركم وكيف لا يكون
فقدان البصيرة اعظم ضررا من فقدان البصر وقد تقدم ان البدن بمنزلة فرس والنفس
بمنزلة راكبه وضرر عمى الراكب اشد عليه من ضرر عمى فرسه المكتسب من العقل الدنيوي
والاخروي العقل المكتسب ضربان احدهما البحار بالدنيوية والمعارف الكسبية والثاني

العلوم الاخروية والمعارف الالهية وطريقاهما متنافيان وقد ضرب امير المؤمنين علي رضه
لذلك بلفظه امثالا وقال ان مثل الدنيا والآخرة ككفتي الميزان لا ترجح احديهما الا انقصت
الاخرى وكالمشرق والمغرب بكل من قرب احدهما بعد من الآخر وكالضرتين اذا رضيت
احديهما اسخطت الاخرى وكذلك ترى قوما اكياسا في تدبير الدنيا وسياستها بلهاء في
امور الآخرة وقوما بلهاء في امور الدنيا اكياسا في امور الآخرة حتى قال عم الكيس من
دان نفسه وعمل لما بعد الموت وقال لمن نسب بعض الصالحين الى البله اكثر اهل الجنة البله
ولاختلاف طريقتها قال الحسن لو ادركتم قوما لو رأيتموهم لقلتم مجانين ولو رأوكم لقالوا شياطين
ولعله لا اعتداد بالمعارف الدنيوية قال رجل لمن وصف نصرانيا بالعقل مه انما العاقل
من وحد الله وعمل بطاعته وقال تعالى حكاية عن اهل النار لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في
اصحاب السعير ومن تصور اختلاف الطريقين اعني طريق الدنيا والآخرة لم يعترض له الشبهة
التي اعترضت لقوم قالوا ان ههنا حقا لما جهله الدين لا يلحق شأوهم في تدبير الدنيا
ودقايق الصناعات وواضعوا الحكم والسياسات وذلك كما انه من المحال ان يظفر سالك
طريق المشرق بما لا يوجد الا في المغرب او يظفر سالك طريق المغرب بما لا يوجد الا في المشرق
كذلك من المحال ان يظفر سالك طريق معارف الدنيا بمعارف طريق الآخرة وقد نبه الله تعالى
على ذلك بقوله ان الذين لا يرجون لقاءنا الآية وبقوله ولكن اكثر الناس لا يعلمون يعلمون
ظاهرا من الحيوة الدنيا ولا يكاد يجمع بين معرفة طريق الدنيا والآخرة معا على التحقيق والتصديق
الا من رشحهم الله لتهذيب الناس في امر معاشهم ومعادهم جميعا كالانبياء وبعض الحكماء
ولما كان العقل هو الذي يردع الانسان من الذنب واكتسابه على التمام والكمال في الورى
عسير لم ينفك احد من ذنب يرتكبه ولذلك قال عم ما منا نبي الا اذنب او هم منازل العقل
واختلاف اساميها بحسبها العقل اسم عام لما يكون بالقوة وبالفعل ولما يكون غريزيا ومكتسبا
وهو في اللغة تقييد البعير لئلا يند وسمي هذا الجوهر به تشبيها على عادتهم في استعارة

اسماء المحسوسات للمعقولات وخص بناء المصدر به لما كان يستعمل مرة للحدث ومرة للفاعل نحو
عدل وصوم وزور ومرة للمفعول نحو خلق وامر لكي يتصور منه كونه سببا لتقييد الانسان
وكونه مقيدا له عن تعاطي ما لا يجمل وكونه مقيدا به من بين الحيوان والنهى في الاصل جمع نهية
او اسم مفرد نحو جمل وصرد او وصف نحو دليل خشع وساير حطم وجعل اسما للعقل الذي
انتهى من المحسوسات الى معرفة ما فيه من المعقولات ولهذا احيل اربابه على تدبر معاني
المحسوسات في نحو قوله تعالى اولم يهد لهم كم اهلكنا الآية وقال وانزل من السماء ماء فاخرجنا
به ازواجا من نبات شتى الى قوله لاولي النهى والحجر اصله من الحجر اي المنع وهو اسم لما يلزم
الانسان من حظر الشرع والدخول في احكامه وعلى ذلك قوله تعالى هل في ذلك قسم لذي حجر وهي
حجى من حجاه اي قطعه ومنه الاحجية وكانه سمي بذلك لكونه قاطعا للانسان عما تقبح والالباب
فهو الذي قد خلص من عوارض الشبه ويرشح لاستفادة الحقائق من دون المفزع الى
الحواس ولذلك علق الله تعالى في كل موضع ذكره حقائق المعقولات دون الامور المحسوسة نحو قوله
ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب فوصفهم بما انه
الله اياهم وقد سمى الله تعالى نورا والجهل ظلمة فقال الله ولي الذين آمنوا الآية وسماه روحا
في قوله وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا وسماه حيوة والجهل موتا فقال او من كان ميتا
فاحييناه الآية وقوله وما يستوي الاحياء والاموات الى قوله ارايت وسماه ماء
بقوله انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها والايمان زبدة العقل والعلم ولذلك
قال تعالى في مواضع ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون فعلق ما علق بها وسمى العقل القلب
وذلك انه لما كان القلب مبدا تاثير الروحانيات والفضايل سميت به ولذلك عظم الله تعالى
امره لاختصاصه بما قد اوصل لاجله وقال تعالى يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب
سليم وقال من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب وقال ان في ذلك لذكرى لمن كان له
قلب او القى السمع وهو شهيد فنبه ان القلب يكون في الحقيقة قلبا اذا كان متخصصا

بما اوجد لاجله وما اوجد لاجله هو المعارف الحقيقية وقال عم ان في البدن مضغة اذا استقامت
استقام البدن واذا اعوجت اعوج البدن ولما كان اشرف المعارف هو ما يتخصص به القلب
قال الله تعالى نزل به الروح الامين على قلبك فخصه بالذكر جلالة العقل وشرف العلم العقل حيث
ما وجد كان محتشما حتى ان الحيوان اذا راى انسانا احتشمه بعض الاحتشام وانزجر بعض
الانزجار ولذلك ينقاد الابل للراعي وكذلك جماعة الرعاة اذا ارادوا منهم من كان اذكى عقلا
واغزر فضلا فيما هم بصدده انقادوا وانطوعوا فالعلماء اذا لم يعاندوا انقادوا واضرعوا
لاكثرهم علما وافضلهم نفسا واوفرهم عقلا ولا ينكر فضله الا كل متدنس بالمعايب متطلب
لرياسة حافظ على عرضه ونيوي قد جعل عقله خادما لشهوته فليحفظ على رياسته ينكر
فضل الفاضل ولفضيلة العقل الوافر كان كثير ممن كانوا يعاندون النبي عم ويقصدون
ليقتلوه فما كان الا ان وقع طرفهم عليه فتراءى لهم نور الله معربا عنه فالقى في قلوبهم منه
روعة فهابوه فمن منذ عن له طايعا من حيث لا يكره بعد الا جاهلا ولهذا المعنى قال
الشاعر لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تغنيك عن نفسك صدر وقد تقدم ان
ان الانسان لم يتميز عن الحيوان والبهايم الا بالعقل ولم يشرف الا بالعلم ومن شرف العلم
ان كل حيوان انفك منه فهو غير معتد بها بل ليست في حكم الموجود فان الحيوانية لا تحصل
ما لم يقارنها الاحساس ويتلذذ بما يوافقه ويطلبه ويتالم بما يخالفه فيهرب منه وذلك
اخص المعارف بمقتضى الحيوة الانسانية انها اذا تعرت من المعارف المختصة بها ان
ان لا يعتد بها ولهذا سمى الله تعالى الجاهل ميتا في غير موضع من كتابه فقال او من كان ميتا
فاحييناه ولاجل ان الحيوة بمقارنة العلم سمى الله تعالى العلم روحا في قوله وكذلك اوحينا اليك
روحا من امرنا وقد ذكرنا ان حاجة الانسان الى العلم اكثر من حاجته الى المال لان العلم
نافع لا محالة ونفعه دايم في الدنيا والآخرة والمال قد ينفع ويضر فاذا نفع فنفعه منقطع
فمن استفاد علما ثم ضيعه اذ تمكن من استفادته فاهمله فقد خسر خسرانا مبينا كما قال

واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا الى قوله لعلهم يتفكرون الفرق بين العلم والعقل
والدراية والمعرفة والحكمة العلم ادراك الشيء بحقيقته وهو ضربان احدهما حصول صورة
المعلومات في النفس والثاني حكم النفس على الشيء بوجود شيء له هو موجود له او نفي شيء عنه
غير موجود له نحو الحكم على زيد بانه خارج او ليس هو خارجا اما الاول هو الذي قد يسمى في الشرع
وفي كلام الحكماء العقل المستفاد وفي النحو المعرفة ويتعدى الى مفعول واحد والثاني يسمى العلم
دون العقل ويتعدى الى مفعولين ولا يجوز الاقتصار على احدهما من حيث ان القصد
اذا قيل علمت زيدا منطلقا اثبات العلم بانطلاق زيد دون العلم بزيد واعلم ان العلم و
العقل يتقاسمان احدهما الى الآخر على ثلاثة اوجه احدها عقل ليس بعلم وهو العقل الغريزي
والثاني علم ليس بعقل وهو المتعدي الى مفعولين والثالث عقل هو علم وعلم هو عقل وهو
العقل المستفاد والعلم الذي يقال له المعرفة ولم يصح ان يعدى العقل الى مفعولين فيقال
عقلت زيدا منطلقا كما يقال في علمت لكون العقل موضوعا للعلم البسيط دون المركب
وسمي عقلا من حيث انه مانع لصاحبه ان يقع افعاله على غير نظام وسمي علما من حيث
انه علامة على الشيء وهذا اذا اعتبر حقيقته مما يتبين به شرف اللغة العربية واما
الفرق بين العلم البسيط اعني المتعدي الى مفعول واحد وبين المعرفة فهو ان المعرفة قد يقال
فيما يدرك آثاره وان لم يدرك ذاته والعلم لا يكاد يقال الا فيما يدرك ذاته ولهذا يقال فلان
يعرف الله ولا يقال يعلم الله لما كانت معرفته ليست الا بمعرفة آثاره دون معرفة
ذاته وايضا فالمعرفة يقال فيما لا يعرف الا كونه موجودا فقط والعلم اصله ان يقال فيما يعلم
وجوده وجنسه وكيفيته وعلته ولهذا يقال الله تعالى عالم بكذا ولا يقال عارف لما كان
العرفان يستعمل في العلم القاصر وايضا فالمعرفة يقال فيما يتوصل اليه بتفكر وتدبر والعلم
قد يقال في ذلك وفي غيره وايضا فالعرفان الانكار والعلم الجهل واما الدراية فالمعرفة
المدركة بضرب من الختل وهو تقديم المقدمة واجالة الخاطر واستعمال الروية واصله

من دريت الصيد والدرية يقال لما يتعلم عليه الطعن وللناقة التي يستتر بها القانص
ليأنس الصيد بها فيرمى من ورائها والدرى يقال لما يصلح به الشعر والقرن الشاة
ولا يصلح ان يوصف البارئ تعالى بذلك لان معنى الختل لا يصح عليه ولم يرد بذلك سمع فيتبع
وقول الشاعر لاهم لا ادري وانت داري هو من بجفوة اخلاق الاعراب واما الحكمة
فاسم لكل علم حسن وعمل صالح وهو بالعلم العملي اخص منه بالعلم النظري وفي العمل اكثر
استعمالا منه في العلم واركان العمل لا يكون محكما من دون العلم به ومنها قيل احكم العمل
احكاما وحكم بكذا احكاما والحكمة من الله اظهار الفضل المعقولة والمحسوسة ومن العباد
معرفة ذلك بقدر الطاقة البشرية وقد حد الحكمة بالفاظ مختلفة على طرق مختلفة فقيل
هي معرفة الاشياء الموجودة بحقائقها وبمعنى كليات الاشياء فاما جزئياتها فلا سبيل
للبشر الى احاطتها بها وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعلم وقيل هي اماتة الشهوات على ما يجب
وهذا الحد بحسب اعتبارها بالعمل فيما هو غاية المراد من الانسان وقيل هي الاقتداء بالخالق
في السياسة بقدر طاقة البشر وذلك بان يجتهد ان ينزه علمه عن الجهل وعدله عن الجور
وجوده عن البخل وحلمه عن السفه وبهذا الفعل يقرب العبد من خالقه سبحانه
في الدنيا ونسبة العلوم الى الحكمة من وجه كنسبة الاعضاء الى البدن في كونها ابعاضا
لها ومن وجه كنسبة الاولاد الى الام في كونها مولدة لها وهي في معارف الشرع اسم للعلوم
العقلية المدركة بالعقل وقد افرد ذكرها في عامة القرآن عن الكتاب فجعل الكتاب اسما لما
لا يدرك الا من جهة النبوات والحكمة لما لا يدرك الا من جهة العقل وجعلا منزلين وان كان
انزالهما من الله قد يكونان مختلفين وجمع بينهما في الذكر لحاجة كل واحد منهما الى الآخر
فقد قيل لولا الكتاب لاصبح العقل حائرا ولولا العقل لم ينتفع بالكتاب وقيل الكتاب
بمنزلة اليد والحكمة بمنزلة الميزان ولا يعرف المقادير الا بهما ولذلك عبر عن الحكمة بالميزان
في قوله تعالى الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان ولا يبلغ الحكمة الا احد رجلين مهذب في فهمه

موفق في فعله ساعة معلم ناصح وكفاه ذلك واما الذي يصطفيه الله فيفتح عليه ابواب الحكمة بفيض الهي ويلقي اليه معاليه جود فيبلغ ذروة السعادة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم **توابع العقل** العقل المركوز في الانسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة وقد تقدم ذكرهن ويحصل عنه الذكاء والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر وجودة الوهم والتخيل والبديهة والروية والكيس والخبرة واصابة الظن والفراسة والزكانة والكهانة والعرافة والالهام ودقة النظر والرأي والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر وجودة الحفظ والبلاغة والفصاحة واما الذكاء فالمضاء في الامور وسرعة القطع بالحق واصله من ذكت النار وذكت الريح وشاة مذكاة مدرك ذبحها بحد السكين وذكى الرجل تم فيه قوة الذكاء لكن لما كان اكثر ما يوجد ذلك فيمن تمت سنه صار يعبر به عن تمام السن واما الذهن فقريب من الرأي لكن يقال في ادراك ما وقع فيه التنازع واما الفطنة فسرعة ادراك ما يقصد اشكاله ولهذا اكثر استعماله في استنباط الاحاجي والرموز واما الفهم فمقدمة العقل فمن لا يعرف معنى الشيء فما لم يحققه عقلا وقد يسمى الفهم عقلا وان كانت مرتبته دون مرتبة العقل فقوة العقل ان يدرك به الاشياء الجزئية والعقل يدرك كلياتها ومعنى ذلك ان العقل يدرك ان العدالة حسنة والظلم قبيح والفهم يميز وبين كل واحد من الفعل هل هو عدل او جور وقد يوصف بالفهم من لا يوصف بالعقل كالحاذق في لعب الشطرنج وكل من يوصف بالعقل فانه يوصف بالفهم فاما الخاطر فحركة الفهم نحو الشيء يقال خاطر الشيء ببالي ولا يقال خطر بالي بالشيء فيجوز ان يكون ذلك من المقلوب كقولهم عيس عسن ناصب وقد قيل في قولهم عقلت الشيء واحسست ايضا من المقلوب فالشيء هو المؤثر في الحاسة والعقل لا هما فيه واما الوهم فاعتقاد النفس لقبول اثر ما يرد عليها من قولهم جمل وهم وطريق وهم والفرق بينه وبين الخاطر ان الخاطر يقال فيما لا يقبله النفس والوهم لا يقال الا فيما يقبله واما الخيال فنحو الوهم لكن يقال اعتبارا بما يكون من جهة الك

وخياله صورته وما منه سمي الطيف الوارد من جهة المحبوب خيالا والخيال قد يقال لتلك الصورة في المنام وفي اليقظة والطيف لا يقال الا فيما كان في حال النوم ولهذا ينسب الطيف الى الخيال لما كان ذلك من حواليه قال الشاعر ثم فارك الخيال وكلك لعكرر طيف الخيال واما البديهة فمعرفة بانه يجيء بلا فكر ولا قصد فالبديهة في المعرفة كالبديع في العقل واما الروية فما كان من المعرفة بعد فكر كثير وهو من رويت واما الكيس فالقدرة على جودة استنباط ما هو اصلح في بلوغ الخير ولهذا قال عم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت وقول العرب الكيس من فسه على وجه الارض ليصورها بصورة الكيس لانها ذات كيس في الحقيقة وكاس في مشيته اي اظهر الكيس بدفع احدى رجليه وتسميتهم الغادر كيسان اما على طريق التهكم او تشبيها ان الغادر يعد ذلك كيسا او لان كيسان في الاصل اسم الغادر ثم كل غادر كيسان كتسميتهم كل صدله ناكيا اما الخبرة فالمعرفة والتوصل اليها من قولهم خبرته اي اصبت خبره وقيل هو من قولهم خبرت اي عرفت فكان الخبر هو عرفان المعرفة ويجوز ان يكون قولهم نافذ خبر هي المخبر عن عرفانها كقولهم نافذ ناجز واما الظن فاصابة المطلوب بضرب من الامارة ولما كانت الامارة مترددة بين يقين وشك فيقرب تارة من طرف اليقين وتارة من طرف الشك صار يعبر اهل اللغة بها فمتى رؤي الى طرف اليقين اقرب استعمل معه ان المثقلة والمخففة منها نحو قوله تعالى الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وقوله تعالى وظنوا انهم واقع بهم ومتى رؤي الى طرف الشك اقرب استعمل معه ان التي للمعدوم من الفعل نحو ظننت ان يخرج وان يخرج وانما يستعمل الظن بمعنى العلم في قوله تعالى الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وقوله وظنوا انهم واقع بهم لامرين لاحدهما تنبيه ان علم اكثر الناس في الدنيا بالاضافة الى علمه تعالى في الآخرة كالظن في جنب العلم والثاني ان العلم الحقيقي في الدنيا لا يكاد يحصل الا للنبيين والصديقين المعنيين بقوله تعالى الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم

يدنا بوا والظن متى كان عن امارة قوية فانه يمدح به ومتى كان عن تخمين لم يعتمد
ذم به كما قال الله تعالى ان بعض الظن اثم واما الفراسة والاستدلال بهيئات الانسان
واشكاله والوانه واقواله على اخلاقه وفضايله ورذايله وربما تعالج صناعة صياد
لمعرفة اخلاق الانسان واحواله وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله ان في ذلك لآيات
للمتوسمين وقوله تعرفهم بسيماهم وقوله ولتعرفنهم في لحن القول ولفظها من قولهم فرس
السبع الشاة وكان الفراسة اختلاس المعارف وذلك ضربان ضرب يحصل للانسان
عن خاطر لا يعرف سببه وذلك ضرب من الالهام بل ضرب من الوحي واياه عني بقوله عم
المؤمن ينظر بنور الله وهو الذي يسمى صاحبه المروع والمحدث وقال عم ان يكن
في هذه الامة محدث فهو عمر وقيل في قوله تعالى ما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا
او من وراء حجاب الاية ان ما كان وحيا فهو بالقائه في الروع وذلك يكون للانبياء
كما قال تعالى نزل به الروح الامين على قلبك وقد يكون بالالهام في حال اليقظة وقد يكون في حال
المنام ولذلك قال عم الرؤيا الصادقة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة والضرب
الثاني من الفراسة يكون بصناعة متعلمة وهي معرفة ما بين الالوان والاشكال وبين الامزجة
وما بين الامزجة والاخلاق والافعال الطبيعية ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب قوي
كالفراسة وقد عمل في ذلك كتب من تتبع الصحيح منها اطلع منها على ما ضمنوه والفراسة
ضرب من الظن وسئل بعض محصلة الصوفية عن الفرق بينهما فقال الظن بتقلب القلب
والفراسة بنور الرب ثم قال ومن قوي فيه الروع المذكور في قوله ونفخت فيه من روحي كان
ممن وصف بقوله تعالى افمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه وكان ذلك النور شاهدا
منه اصاب فيما حكم به ومن الفراسة قال عم في المتلاعنين ان امرها بين لولا حكم
الله ومن الفراسة علم الرؤيا وقد عظم الله امرها في جميع كتبه المنزلة وقال للنبي عم
وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس وقال تعالى اذ يريكهم الله في منامك قليلا الى

قوله والى الله ترجع الامور وقال في قصة ابراهيم يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك وقال تعالى
حكاية عن يوسف يا ابت اني رايت احد عشر كوكبا الاية والرؤيا من فعل النفس الناطقة
ولو لم يكن حقيقة لم يكن لايجاد هذه القوة في الانسان فايدة والله تعالى عن الباطل وهي ضربان
ضرب وهو الاكثر اضغاث احلام واحاديث النفس من الخواطر الردية لكون النفس في تلك
الحال كالماء المتموج الذي لا يقبل صورة وضرب وهو الاقل صحيح وذلك قسمان قسم لا يحتاج
الى تاويل وقسم يحتاج الى تاويل ولهذا يحتاج المعبر الى مهارة للفرق بين الاضغاث وغيرها
والتمييز بين الكليات الروحانية والجسمانية ويفرق بين طبقات الناس اذ كان فيهم من
لا يصلح لهم رؤيا ومنهم من يصح رؤياه ثم من يصح له ذلك منهم من يترشح ان يلقى اليه في المنام
الاشياء العظيمة الخطيرة ومنهم من لا يترشح لذلك ولهذا قال اليونانيون يجب للمعبر ان
يستعمل بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام وذلك لان له حظا من النبوة وقد قال
عم الرؤيا الصادقة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة وهذا العلم يحتاج الى مناسبة
بين مخبره وبينه وقد حكم لا يرزق صرفا فيه ورب نور الحظ من الحكمة وساير العلوم لو جد
له قوة عجيبة واما الذكاء فضرب من الفراسة وهو معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب
من التوهم وقد ذكرت والقيافة ضرب من الذكاء لكنه ادق وهو ضربان
احدها تتبع اثر الاقدام والاستدلال به على السالكين والثاني الاستدلال بهيئة الانسان
وشكله على نسبه وخص من العرب بالقيافة بنو مدلج وقيل ان ذلك مناسبة طبيعية
لا تتعلم وهي محكوم بها في الشرع وقال بعض الحكماء خص الله تعالى بذلك العرب ليكون سببا
لارتداع نسائهم عما يورث تشوش نسبهم وخبث حسبهم وفساد بذورهم وزروعهم صيانة
لنسب النبوة وليكون ذلك شرفا للنبي عم ولاهل حفظ نسبهم بذلك قال وجعلناكم
شعوبا وقبايل لتعارفوا اي يعرف بعضكم بعضا بمعرفة اصليه واما الكهانة والعرافة
فان الكهانة مختصة بالامور المستقبلة والعرافة مختصة بالامور الماضية

وكان ذلك في العرب كثيرا واخر من جاد وروى عنه الاخبار العجيبة سطيح وسواد بن
قارب وقيل وجود ذلك في العرب احد اسباب معجزات النبي عم لما كان طبعه ولحق عليه
اتباعه ونزع عنه ذلك بعد النبوة حتى روي لا كهانة بعد النبوة وقال عم من اتى كاهنا
او عرافا فصدقه بما اتى به فقد كفر بما انزل على محمد بينهما على انه قد رفع ومما يجري مجراهما التطير
وهو تشاؤم الانسان بشيء يقع تحت المناظر والمسامع مما ينفر منه النفس مع البشر بطبعه
فاما تعارضها بما هو طبيعي في الشباب كتعارض ضرب الحديد وصوت الحمار فلا يعد من هذا
استعاذه من الطير واصله في زجر الطير وما سواه ملحق به على ذلك قول الشاعر
وما انا ممن يزجر الطير همه ۝ اصاح غراب ام تعرض طاير ۝ ثم كثر في غيره حتى قال تعالى
حكاية قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طايركم عند الله اي السبب الذي يسعدكم ويشقيكم
عند الله وقال تعالى وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا انما طايرهم عند الله وسمي
عمل الانسان الذي يعاقب عليه طايرا قال الله تعالى وكل انسان الزمناه طايره في عنقه
والنظر اجالة الخاطر نحو المرئي لادراك البصيرة اياه فللقلب عين كما ان للبدن عينا
فمن صح عين قلبه واعانه نور الله تعالى اطلع على حقائق الاشياء وادرك العالم العلوي
وهو في الدنيا فرأى ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولكون الاطلاع
عليه قال امير المؤمنين علي رض لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا والرأي اجالة الخاطر
في رؤية ما يريد وقد يقال للقضية التي تثبت عن الرأي رأي والرأي للفكرة كالآلة
للصانع التي لا يستغنى عنها ولا يكون في الامور الممكنة دون الواجبة والممتنعة ويكون من جملة
الممكنات فيما يكون الينا فالطبيب لا يجيل رأيه في تغير البدر انما يجيله في كيفية الوصول اليه ويحتاج
الرأي الى اربعة اشياء اثنان من جهة الزمان في التقديم والتاخير احدهما ان يعيد النظر
فيما يريده ولا يعجل امضاءه حتى يتعب فقد قيل اياك والرأي الفطير وقيل دع الرأي
يغب واكثر من يستعجل في ذلك ذوو النفوس الشهمة والامزجة الحادة والثاني ان لا يدافع

به بعد احكامه فقد قيل روّ تحزم فاذا استوضحت فاعزم وقيل احزم الناس
من اذا وضح له الامر صدع فيه وقال الله تعالى فاذا عزمت فتوكل على الله واكثر من
يدافع ذوو النفوس المهينة والامزجة البارقة واثنان من جهة الناس احدهما ترك الاستبداد
بالرأي والاستبداد عن الاستخارة من فعل المعجب بنفسه فقد قيل الاحمق من قطعه العجب
عن الاستشارة والاستبداد عن الاستخارة والثاني ان يتخير من يكون مشاورته شعر
فما كل ذي لب بموتيك نصحه ۝ ولا كل موت نصحه بلبيب ۝ ولكن اذا ما استجمعا عند واحد
فحق له من طاعة بنصيب ۝ ومن دخل في امر بعد الاحتراز عن هذه الاربعة فقد احكم تدبيره
فان لم ينجح عمله لم يلحقه مذمة واما التدبر فهو فتح الرأي لكن يقال اذا استعمل في النظر في عواقب
الامور واستعماله بعضهم وذلك لانه تامل دبر الامر وعليه حث الشاعر ومن يدرك العواقب
مهملات فاكثر سعيه ابدا تبار ۝ واما الفكر فهو مطرقة للعلم الى المعلوم وهو تحمل عقل
موجود في الانسان والتفكر جولان تلك القوة بين الخواطر بحسب نظر العقل وقد يقال للتفكر
الفكر وربما ضل الفكر الفكر واخطا ضلال الزايد وخطاه والتفكر لا يكون الا فيما له
ما له عما يصح ان يحصل له صورة في القلب مفهوما ولاجل ذلك قال النبي عم تفكروا في آلاء الله
ولا تفكروا في الله وقال تعالى اولم يتفكروا في ملكوت السموات والارض وقال ويبين الله
لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة وسئل بعض الحكماء عن الفكرة والعبرة
فقال الفكرة ان يجعل الغائب حاضرا والعبرة ان يجعل الحاضر غائبا واما الذكر فوجود الشيء
في القلب او في اللسان واذا كان الشيء له اربع وجودات وجود في ذاته ووجود في قلب
الانسان ووجود في لفظه ووجود في كتابته فوجوده في ذاته هو سبب لوجوده في لسانه
والوجود في كتابته ويقال للوجودين اي الوجود في القلب والوجود في اللسان الذكر ولا
اعتداد بذكر اللسان ما لم يكن ذلك عن ذكر في قلب بل لا يكون ذلك ذكرا والذكر بالقلب ضربان
احدهما استعادة ما فقد استثبته القلب فالمحي عنه بنسيان او غفلة وهذا هو في الحقيقة

التذكر والثاني ثبات وجود الشيء في القلب من غير نسيان او غفلة وذكر الله تعالى
على نحو الاول غير مرتضى عند الاولياء وانما يحمد اذا كان على النحو الثاني واعلم
ان ذكر الله تارة يكون لعظمته فيتولد منه الاجلال والهيبة وتارة يكون لقدرته فيتولد
منه الخوف والحزن وتارة لفضله ورحمته فيتولد منه الرجاء وتارة لنعمه فيتولد منه
الشكر ولذلك قيل ذكر النعم شكرها وتارة لافعاله الباهرة فيتولد العبرة فحق العبد
ان لا ينفك ابدا من ذكره على احد هذه الوجوه وعليها دل قوله تعالى ان في خلق السموات
والارض الى قوله فقنا عذاب النار اي يذكره في كل حال لان الانسان لا ينفك من هذه
الاحوال الثلثة ان قيل ما حقيقة ذكر الله تعالى عند ابتداء الاعمال حتى قال عم كل امر
ذي بال لا يبدا بذكر الله فهو ابتر قيل نبه بذلك ان الامور كلها يجب ان تقصد بها وجه
الله وان كل امر لا يقصد به ذلك فهو ناقص وشرع ذكره باللسان ليكون سببا للتذكر
بالقلب فيتحرى بفعله وجه الله ولا يفعل ما ينافي رضاه وعلى ذلك قوله تعالى واذكر ربك
اذا نسيت اي اذا عرض لك نسيان لما يلزمك فاذكر ربك يتذكر به انه مطلع عليك
ولهذا قال عم اعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك واما الحفظ فالمواظبة
على مراعاة الشيء وقلة الغفلة عنه ومنه محافظة الحرم حتى قيل للغضب المقتضي لذلك
حفيظة ويقال لثبات صورة الشيء في القلب حفظ ويقال للقوة الحافظة ايضا حفظ
وفلان جيد الحفظ اي القوة الحافظة والحفظ للنفس جار من وجه مجرى الخزانة للملك يضع
فيها الذخائر الى وقت الحاجة ومن وجه جار مجرى الكتاب الذي يكتب فيه الشيء فيرجع
اليه فيتذكر به والناس يتفاوتون فيه بحسب امزجتهم فمنهم من قوى الله ذلك فيه كما جعله
تعالى للنبي عم فلذلك كان كونه اميا شرفا له اذ كان له من الحفظ ما يغنيه عن الاستعانة
بالكتابة ولهذا قال لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه فضمن انه يحفظ عليه
بما جعل له من القوة الآية وروي انه لما نزل قوله تعالى وتعيها اذن واعية قال عم لعلي سالت

الله ان يجعلها اذنك فلم ينس بعد ذلك شيئا الا دعاء ومن الناس من يسرع اليه النسيان
فما يسمعه يكون كالخط يكتب في بسط الماء واما البلاغة فاجادة اختيار الالفاظ والاصابة
في تاليفها وقدرها ومعناها وتحري الصدق فيها ولا يكون الكلام تام البلاغة ما لم يجمع
هذه المعاني فانه متى قبح اللفظ او قبح التاليف او كان اكثر مما يجب او اقل مما يجب او
لم يطابق اللفظ المعنى اما حقيقة او استعارة رائقة او كان المعنى محالا او كذبا خرج الكلام
بقدر ما اختل عنه عن باب البلاغة وقد وصفت البلاغة باوصاف مختلفة فقال بعضهم
البلاغة هي الايجاز من غير عجز والاطناب من غير خطل وقيل ما فهمه العامة ورضيه الخاصة
وقيل ما اختياره عفو وفساد الى غير ذلك من الاوصاف واما الفصاحة فاشتقاقها
من فصح اللبن اذا خلص وهي الاصابة في اللفظ والايتلاف دون اعتبار الصدق
وصواب المعنى فكل كلام جزل اللفظ حسن التركيب موصوف بالفصاحة صدقا كان او كذبا
فالبلاغة يرجع الى اللفظ والمعنى والفصاحة الى اللفظ دون المعنى

ثمرة العقل

من معرفة الله الضرورية والمكتسبة وغاية ما يبلغ الانسان من ذلك اشرف ثمر العقل
معرفة الله تعالى وحسن طاعته والكف عن معصيته وعلى ذلك دل قوله عم العقل ثلثة اجزاء
جزء معرفة الله وجزء طاعة الله وجزء الصبر عن معصية الله وقال عم الايمان
عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وماله العفة وثمرته العلم فمعرفة الله تعالى
العامية مركوزة في النفس وهي معرفة كل احد انه مفعول وان له فاعلا فعله ونقله في
الاحوال المختلفة واليها اشار بقوله تعالى فطرة الله التي فطر الناس عليها وقوله صبغة
الله وقوله واذ اخذ ربك من بني آدم الآية فهذا القدر من المعرفة في نفس كل احد تنبه
الغافل عنه اذا نبه عليه بمعرفة كما يعرف ان من هو معا ولعين فذلك الغير هو اوله
ومن هذا الوجه قال تعالى ولئن سالتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال في
مخاطبة المؤمنين والكافرين ثم اذا مسكم الضر فاليه تجأرون وقال تعالى ثم اذا كشف

الصفات

الى عنكم الآية واما معرفة الله المكتسبة فمعرفة توحيده وصفاته وما يجب ان يثبت له من
وما يجب ان ينفى عنه وهذه المعرفة التي دعا الانبياء عليهم السلام اليها وحثوا ولذا قال كلهم قولوا
لا اله الا الله ولم يدع احد منهم بل دعى الى التوحيد وهذه المعرفة اعني المكتسبة على ثلثة اضرب
ضرب لا يكاد يدركه الا نبي وصديق وشهيد ومن داناهم وذلك معرفته بالنور الالهي من حيث
لا يعتوره فيه شك بوجه كما قال تعالى انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وضرب
يدرك بغلبة الظن اعني الظن الذي يفسره اهل اللغة باليقين كما قال تعالى الذين يظنون
انهم ملاقوا ربهم وضرب يدرك بخيالات وتمثل وتقليدات واباء على قوله وما يؤمن اكثرهم
بالله الا وهم مشركون فالاول يجري مجرى ادراك الشيء من قريب ولذا قال تعالى في وصفهم ان في ذلك
لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد والثاني يجري مجرى ادراك الشيء من بعيد
وقد يعتوره فيه شبهة ولكن يزول بادنى تأمل كما قال تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف
من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون والثالث يجري مجرى من يرى الشيء من وراء
ستر من بعيد فلا ينفك من شبهات كما اخبر تعالى عن هذه حالة بقوله ان نظن الا ظنا
وما نحن بمستيقنين ولاجل صعوبة معرفة الله على الحقيقة حتى يتخلص الانسان من آفات
الشرك قال تعالى وما يؤمن اكثرهم بالله الا وهم مشركون وقال تعالى قل اني امرت ان اعبد الله
مخلصا له الدين فاعبدوا ما شئتم من دونه وقال صلعم من قال لا اله الا الله مخلصا
دخل الجنة وغاية معرفة الانسان ربه ان يعرف اجناس الموجودات جواهرها واعراضها
المحسوسة والمعقولة ويعرف اثر الصنعة فيها وانها محدثة وان محدثها ليس اياها ولا مثلا
لها بل هو الذي يصح ارتفاع كلها مع بقائه ولا يصح بقاؤها وارتفاعه وبهذا النظر
قال الصديق رضه سبحان من لم يجعل سبيلا الى معرفته الا بالعجز عن معرفته بل لذا قال
النبي عم تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ولما كان معرفة العالم كله يصعب على
الانسان الواحد لقصور افهام بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التي

يعرفها منهم جعل لكل انسان من بدنه ونفسه عالما صغيرا اوجد فيه مثال كل ما هو
موجود في العالم الكبير ليجري ذلك من العالم مجرى مختصر عن الكتاب البسيط يكون مع
كل احد نسخة يتأملها في الحضر والسفر وبالليل والنهار فان نشط وتفرغ للتوسع في
العلم نظر في الكتاب الكبير الذي هو العالم فيطلع منه على الملكوت ليغزر علمه ويتسع
فهمه والا فله مقنع بالمختصر الذي معه ولذا قال تعالى وفي انفسكم افلا تبصرون ولشرف متأمل ذلك
قال تعالى اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض وقال ان في خلق السموات والارض الى قوله
فقنا عذاب النار فنبه بمدحهم حيث قالوا ربنا ما خلقت هذا باطلا انهم عرفوا الغرض
المقصود بخلقه وذلك هو آخر الابحاث لان الابحاث اربعة بحث عن وجود الشيء هل هو
وبحث عن جنسه ما هو وبحث عما يباينه غيره باي شيء هو وبحث عن الغرض لم هو
فهذه الابحاث يبتني بعضها على بعض فلا يصح معرفة الثاني الا بمعرفة الاول ولا معرفة الثالث
الا بمعرفة الثاني ولا معرفة الرابع الا بمعرفة الثالث وقوله ربنا ما خلقت هذا باطلا
يقتضي انهم عرفوا الابحاث الاربعة والا شهدوا بما لم يحققوا ومن شهد بما لا يحقق كذب
وان كان ما شهد به على ما شهد به الا ترى ان الله تعالى كذب المنافقين حيث قالوا انك
لرسول الله وان كان رسوله فدلت هذه الآية على ان البحث الذي يؤدي الى معرفة هذا الموجود
الذي يتضمن معرفة الله هو من العلوم الشريفة خلاف قول الصم البكم العمي الذين لم يجعل الله لهم
نورا حيث يدعون من اشتغل بمعرفة ذلك **وجوب بعثة الانبياء عليهم** وقلة الاستغناء عنهم ٤٤
بعثة الانبياء الى الناس من الضرورات التي لا بد لهم منها وذلك ان جل الناس يقصر عن معرفة
منافعهم ومضارهم الاخروية جزوياتها وكلياتها وبعضهم وان كان لهم سبيل الى معرفة كليات
ذلك على سبيل الجملة فليس لهم سبيل الى معرفة جزئياتها ولا يمكنهم ان يعرفوا الكيف يجب وفي اي
وقت يجب وكم يجب فلما كان ذلك من الله تعالى على كافة عباده خاصتهم وعامتهم ارسل اليهم
نبيهم من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة لكن اذا تمسكوا به صلح معادهم

ومعاشهم وسهل عليهم ادراكهم ولذا ازاح تعالى علتهم ببعثة الانبياء عم فقال وما كنا معذبين
حتى نبعث رسولا ما يوقف صحة النبوة لكل نبي سمات احديهما عقلية يعرفها اولو الابصار ٤٣
من الصديقين والشهداء ومن يجرى مجراهم والثانية حسية يدركها اولو الابصار من العامة
فالاولى لهم ما لهم من الاصول الزكية وصورهم المرضية وعلومهم الباهرة ودلايلهم المعقولة
عليهم والمستصحبة وانوارهم الساطعة التي لا يخفى على اولى البصاير كما قال الشاعر في مدح
النبي عم • لو لم تكن فيه آيات مبينة • كانت بداهته تعنيك عن خبر • وذلك ان حق النبي
ان يكون من اكرم تربة في العالم وحيث يكون عقل اربابها اوفر ولذلك لم يبعث نبي من
الاطراف التي يضعف عقول اربابها ويجب ان يكون من عنصر كريم من بيت الفضل ولهذا
قال تعالى ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها
من بعض ونبه بقوله بعضها من بعض انه جعلت النبوة في اهل بيت واحد ولا تخرج
عنهم لكونهم اشرف ويجب ان يكون عليه انوار نزول من رآه واخلاق يملك من ابتلاه كما قال
والقيت عليك محبة مني وقال لنبينا عم وانك لعلى خلق عظيم ويجب ان يكون كلامه ذا حجة وبيان
يشفي سامعه اذا كان متخصصا بنور العقل ولذلك قال الله تعالى وكذلك اوحينا اليك روحا
من امرنا الآية وهذه الاحوال اذا حصلت لا يحتاج ذوو البصيرة معها الى معجزة ولا يطلبها
كما لا يطلب الانبياء من الملائكة فيما يخبرونهم به حجة ولهذا لما عرض النبي عم على الصديق
ابي بكر الاسلام تلقاه بالقبول حتى قال عم ما عرضت عليه الاسلام الا كانت له كبوة
غير ابي بكر فانه لم يتلعثم فيه واما الآية الثانية فهي المعجزة التي يدركها الخواص من الانبياء
وذلك يطلبه احد رجلين اما ناقص عن الفرق بين الكلام الالهي وبين الكلام البشري
وعن ادراك سائر ما تقدم ذكره فيحتاج الى ما يدركه حسه لقصوره عن ادراك ذلك واما ناقص
مع نقصه هو معاند فقصده بما يطلبه العناد كما قال تعالى حكاية عن الكفار وقالوا لن نؤمن
لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا الى قوله قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا كون الرسل ٤٤

والعقل هما من الله عز وجل رسولان الى خلائقه احدهما من الباطن وهو العقل والثاني
من الظاهر وهو الرسول ولا سبيل لاحد الى الانتفاع بالرسول الظاهر ما لم يتقدمه
الانتفاع بالباطن فبالباطن يعرف صحة دعوى الظاهر ولولاه لما كان يلزم الحجة
بقوله ولهذا احال الله تعالى من تشكك في وحدانيته وصحة نبوة انبيائه على العقل وامر بان
نفزع اليه في معرفة صحتها فالعقل قايد والدين ولو لم يكن العقل لم يكن الدين باقيا
٤٧ ولو لم يكن الدين لاصبح العقل حائرا واجتماعهما كما قال تعالى نور على نور في تعذر ادراك
العلوم النبوية على من لم يتهذب في الامور العقلية المعقولات تجري مجرى الادوية
الجالبة للصحة والشرعيات تجري مجرى الاغذية الحافظة للصحة وكما ان الجسم متى كان
مريضا لم ينتفع بالاغذية بل يستضر بها كذلك من كان مريض النفس كما قال الله في قلوبهم
مرض لم ينتفع بسماع القرآن الذي هو موضوع الشرعيات بل صار ذلك ضارا له مضرة
الغذاء للمريض ولهذا قال تعالى واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول الآيتين وايضا فالعقل بمنزلة مرزع
للمعتقدات والاعتقاد فيه بمنزلة البذر ان خيرا وان شرا وكلام الله تعالى بمنزلة الماء الذي
يسقيه ولذلك سماه ماء على ما تقدم ذكره فكما ان الماء اذا سقى الارض يختلف نباته بحسب
اختلاف بذوره كذا القرآن اذا ورد على الاعتقادات الراسخة في القلوب يختلف باثاراته
والى ذلك اشار بقوله تعالى وفي الارض قطع متجاورات وقال تعالى والبلد الطيب يخرج نباته باذن
ربه والذي خبث لا يخرج الا نكدا وايضا فالجملة بالمعقولات جار مجرى ستر مرخى على البصر
وغشاء على القلب ووقر في الاذن والقرآن لا يدرك خفياته الا من كشف غطاءه ورفع
غشاوته وازيل وقره ولهذا قال تعالى واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون
بالآخرة الآيتين وايضا فالمعقولات الحيوة التي بها الابصار والاسماع والقرآن كالمدرك
بالسمع والبصر فكما انه من المحال ان يسمع ويبصر الميت قبل ان يجعل الله فيه الروح ويجعل له
السمع والبصر كذلك من المحال ان يدرك من لم يحصل المعقولات حقايق الشرعيات ولهذا قال تعالى

الايمان

والاسلام

لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء الآيتين وفي آيات السماوات والارض وغيرها
والتقوى والبر الا ان الايمان هو الاذعان للحق على سبيل التصديق له باليقين ولهذا وصف الله تعالى
العلم والايمان بوصف واحد وقال انما يخشى الله من عباده العلماء وقال انما المؤمنون
الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ووجل القلب هو الخشية للحق على سبيل التصديق له باليقين
هذا اصل الايمان لكن صار اسما لشريعة نبينا محمد عم كالاسلام وصح ان يطلق على ما
يظهر ذلك وان لم يخصص به اعتقادا عن يقين ويلج صدره كاليهودي فان اصله للمنسوب
الى يهود والنصراني فان اصله للمنسوب الى نجران وهي قرية ثم صارا اسمين للمخصصين
بالشريعتين على ان اشتقاق الايمان لا يمنع من ان يطلق على من يظهره فان معنى المؤمن
هو من صار ذا امن وباظهار الشهادتين يامن الانسان من ان يراق دمه ويباح ماله
في الحكم ولهذا قال عم من قال لا اله الا الله فقد عصم مني ماله ونفسه الا بالحق وروي شهادة ان
لا اله الا الله كلمة جعلها الله عصمة فمن قالها من قلبه فهو مؤمن ومن قالها بلسانه ولم يكن
في قلبه كان له ما لنا وعليه ما علينا وحسابه على الله وذلك انه لا يطلع على القلوب
الا الخالق تعالى والشريعة والله ان يطلق اسم الايمان على من يظهر ذلك من نفسه من غير تفحص
عن قلبه ولا يتحاشى من اطلاق ذلك عليه ما لم يظهر منه ما ينافي الايمان بخلاف ما ادعاه بعض
المعتزلة بانه لا يصح اطلاق اسم المؤمن على الانسان ما لم يختبر في الاصول الخمسة ويوقف
منه على حقيقة ما عنده والاسلام هو الاستسلام بما يدعو اليه الشرع من فعل ما يقتضي فعله
والملة العود الى الطاعة والدين الانقياد له وهما بالذات واحد لكن الدين هو الطاعة
فيقال اعتبارا بقول الداعي اليها والشارع لها ولكونهما بالذات واحدا قال الله تعالى دينا
قيما ملة ابراهيم حنيفا فابدل الملة من الدين والدين اعم من الاسلام اذ هو يستعمل في الحق
والباطل والاسلام لا يستعمل الا في الحق ولهذا قال الله تعالى ان الدين عند الله الاسلام
قال ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه والاحسان تحري الحسنى في الايمان

والاسلام ولهذا قال عم لما قيل له ما الاحسان فقال ان تعبد الله كانك تراه والتقوى
جعل النفس في وقاية من سخط الله وذلك بتجنب الهوى والبر التوسع في علم الحق وفعل الخير
مشتق من البر اي السعة من الارض وهو المعبر عنه بانشراح الصدر واطمينان القلب
وقال عم البر ما سكنت اليه نفسك واطمان اليه قلبك والاثم ما حاك في نفسك وتردد
في صدرك وقال البر طمانينة والشر ريبة ومن البر الجود ولذلك جعل الجود من الايمان
قال الله تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله الآية
والاخلاص ان يقصد الانسان بما يفعله وجه الله متعريا عن الالتفات الى غيره
ولذلك قال تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله ولعله وجود ذلك قال تعالى وما يؤمن اكثرهم
الا وهم مشركون ولما كان الايمان يقال باعتبار العلم وهو متعلق بالقلب والاسلام بفعل
الجوارح والتقوى بتجنب الهوى قال النبي عم الاسلام علانية والايمان في القلب والتقوى
ههنا واشار الى صدره ولما كان الصدر مقر قوى الانسان من الفكرة والشهوة والغضب
قال ولا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه وقال الايمان قائد
والعقل سائق والنفس حرون فان ابى قائدها لم يستقم سائقها وان ابى سائقها لم يطع
لقائدها ولما كان الايمان والاسلام والتقوى متلازمة قال في الجنة اعدت للمتقين
وقال في موضع آخر وجنة عرضها السموات والارض اعدت للذين آمنوا بالله ورسوله
وقال بلى من اسلم وجهه لله وهو محسن فله اجره عند ربه **في الايمان** اختلف في الايمان
هل هو الاعتقاد المجرد ام الاعتقاد والعمل جميعا واختلافهم بحسب اختلاف النظرين
قال هو الاعتقاد المجرد فنظر منه الى اشتقاق اللفظ والى انه قد فصل بينهما في عامة القرآن
فعطف العمل عليه كقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ولان النبي عم فرق بينهما في خبر
جبرائيل عن الاسلام وعن الايمان ففسر الاول بالاعمال والثاني بالاعتقاد ومن قال هو الاعتقاد
والعمل فلقوله عم الايمان معرفة بالقلب واقرار باللسان وعمل بالاركان وكذلك اختلفوا

هل يكون في الايمان زيادة ونقصان فقال قوم يكون في الايمان زيادة ونقصان فقال قوم
يكون ذلك فيه لقوله تعالى فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا الآية وقوله واذا تليت آياته زادتهم
ايمانا وقوله ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم ومن خالفهم قال الشيء انما يزيد بغلبته على ضده
وينقص بغلبة ضده عليه قالوا والآيات لا يحصل الا بعد ان يكون غالبا على الكفر فلا
حتى يقال انه يغلب عليه وكذلك اختلفوا في جواز اطلاق اسم الايمان على من اقر بالشهادتين
فقال بعضهم يجوز ذلك نظرا منه الى قوله عم في الجارية التي سألها عن الله فاشارت نحو
السماء وعن النبوة فاشارت اليه عم فقال اعتقها فانها مؤمنة ولان الايمان ليس بذي
منزلة واحدة ومن قال لا يجوز فنظر منه الى قوله تعالى انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله
وجلت قلوبهم ولما روي عم انه قال من قال انا مؤمن فهو فاسق ومن قال انا عالم فهو
جاهل ان قيل ما معنى قوله عم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق
حين يسرق وهو مؤمن قيل الايمان ذو منازل كما وصفه عم وانما يكون الانسان
مؤمنا بلا مثنوية اذا استوعب منازله فتعرى من جميع الشرور وتخصص بجميع الخيرات
على قدر طاقة البشر ومتى انخرم بعض ذلك خرج هو عما هو كقولهم عشرة من كونه اسما
لعدد مخصوص اذا اسقط بعضه سقط ذلك الاسم عنه ومن شرط الايمان الكامل ان
لا يكون زانيا ولا سارقا **في معنى قوله عم** الايمان بضع وسبعون بابا ثبت الحديث عن رسول
الله صلعم انه قال الايمان بضع وسبعون بابا اعلاها شهادة ان لا اله الا الله وادناها اماطة
الاذى عن الطريق وهذه لفظة من تأملها وعرف حقيقتها علم بالواجب ان الايمان هو اثنان
وسبعون درجة لا يصلح ان يكون اكثر منها ولا اقل ولا يوجد من الايمان من هو خارج
عنها بوجه وانه فيما يوضح كما وصفه عز وجل بقوله وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى
علمه شديد القوى وبيان ذلك ان الايمان شيئان اعتقاد واعمال فالاعتقاد على ثلث
منازل يقيني لا يعتريه شك ولا شبهة بوجه كما قال تعالى الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا

وظني وذلك ما كان عن امارة قوية واعني بالظن ما يفسره اهل اللغة باليقين نحو قوله تعالى
الذين يظنون انهم ملاقوا ربهم وتقليدي وذلك ما يعتقد عن رأي اهل البصائر كما وصفه
بقوله تعالى ولو ردوه الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم والاعمال ثلثة
عمارة الارض المعنية بقوله تعالى واستعمركم فيها وعبادة الله المعنية بقوله تعالى وما خلقت الجن
والانس الا ليعبدون وخلافته المعنية بقوله ويستخلفكم فيها وقوله اني جاعل في الارض
خليفة وذلك بتحري مكارم الشريعة فهذه ستة وكل واحد من هذه اما ان يتحراه الانسان
عن رهبة او رغبة كما قال تعالى ويدعوننا رهبا او رغبا او يتحراه عن اخلاص بطوع واختيار
نفس كما قال تعالى واخلصوا دينهم لله فهذه اثنى عشر منزلة وكل واحد من هذه اما ان يكون
الانسان في مبدأ او وسط او منتهى لان كل فضيلة ورذيلة لا ينفك فيه الانسان
من هذه الاحوال الثلث ولهذا قال تعالى في الفضيلة ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات
جناح فيما طعموا وقال في الرذيلة ان الذين كفروا ثم ازدادوا كفرا فجعل منازل الايمان ومنازل
التقوى ثلثة كما ترى فهذه اثنى عشر في ثلثة يكون ستة وثلثين وكل واحد من هذه الستة
والثلثين فاما ان يتوصل اليه الانسان عن طريق الاجتباء او من طريق الهداية فالاجتباء
للانبياء ومن يليهم من الاولياء وهو ايثار الله تعالى بعض عباده بفيض الهي يأتيهم الحكمة
بلا سعي منهم وعلى هذا قوله تعالى وكذلك يجتبيك ربك وقوله ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء
والاهتداء للحكماء والعلماء وهو توفيق الله تعالى للعبد ليطلب بسعيه وجهده الحكمة فيتحصل
له منها بقدر ما يتحمل من المشقة واياهما عنى بقوله تعالى الله يجتبي من رسله من يشاء ويهدي
اليه من ينيب وقوله تعالى وممن هدينا واجتبينا فهذه اثنان وسبعون درجة لا يمكن
الزيادة عليها ولا النقصان منها وكل ما ورد من الاخبار فليس بخارج منها فمما هو
من جملة العبادة قوله عم الوضوء نصف الايمان وقوله عم الايمان الصلوة ومن فرغ
لها قلبه واقامها بحدودها ووقتها وسننها ومما هو من مكارم الشريعة قوله عم الحياء

من الايمان وقال لا يجتمع شح وايمان في قلب عبد وقوله ثلث من جمعهن جمع الايمان الانصاف
من الاقتار وانصاف المؤمن من نفسه وبذل السلم وقوله اكمل المؤمنين ايمانا احسنهم
خلقا والطفهم باهله وقوله عم لاناس من الصحابه ما ايمانكم قالوا نصبر على البلاء ونشكر
في الرخاء ونرضى بالقضاء فقال مؤمنون ورب الكعبة **في انواع الجهل** الانسان في الجهل على
اربعة منازل الاول من لا يعتقد اعتقادا لا صالحا ولا طالحا فامره في ارشاده سهل اذا
كان له طبع فانه كلوح ابيض لم يشتغل بنقش وكارض بيضاء لم يلق فيها بذر ويقال له
باعتبار العلم النظري غفل وباعتبار العلم العملي غمر ويقال سليم الصدر والثاني معتقد
لراي فاسد لكنه لم ينشأ عليه ولم يتدرب به واستبداله عنه سهل وان كان اصعب من الاول
فانه كلوح يحتاج فيه الى حذف كتابه وكارض يحتاج فيها الى قلع زراعه ويقال له غاو
وضال والثالث معتقد لراي فاسد قد ران ذلك في ترائبه لصحبة فيركن اليه بجهله وصغر
بجرته فهو من وصفه الله تعالى بقوله ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون
فهذا ذو داء عياء باطنا فالكل داء له دواء لا سبيل الى هدايته وتنبيهه كما قيل لحكيم نغط شيخا
جاهلا ما تصنع به فقال اغسل مسحا لتبيض والرابع معتقد اعتقادا فاسدا عرف
فساده او يمكن من معرفته لكنه اكتسب لترأسه وكسب الرياسة فهو يتحامى عليها ويجادل
بالباطل ليدحض به الحق ويذم اهل العلم ليجر الى نفسه الخلق ويقال له فاسق وهو من الموصوفين
بالاستكبار والتكبر في قوله تعالى واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله الاية وقوله والذين
لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون فنبه تعالى انهم ينكرون ما يقولونه ويفعلونه
لمعرفتهم ببطلانه ولكن يستكبرون عن التزام الحق وذلك حال ابليس فيما دعي اليه من السجود لادم
الجنون هو عارض يغير العقل والحمق قلة التنبه لطرق الحق وكلاهما يكون تارة خلقة وتارة عارضا
وقد عظم الحمق بما لم يعظم الجنون فقد صدق الشاعر في قوله لكل داء دواء يستطب له الا الحماقة
اعيت من يداويها وقد ذكر حكاية هي وان لم يصح نافعها ذكرها وهي ان عيسى عم اتي باحمق

ليداويه فقال اعياني مداواة الاحمق ولم يعيني مداواة الاكمه والابرص ومما يكون الفرق بينهما
ان المجنون يكون غرضه الذي يريد صحيحا وسلوكه اليه خطاء ولهذا يعرف المجنون اذا راي
اوليائه قبل سلوكه الى المراد والاحمق لا يعرف المراد بل سلوكه ولهذا صح ان المجنون
صحيح فعله حتى يتعجب كثيرا من ملمات صوابه والاحمق لا يكاد يصيب في شيء من مسالكه
واما البله فقلة التنبه على الامور ويضاده الكيس وقد يعلم ان البله والكيس قد يقالان
تارة بالامور الدنيوية وتارة تكون بالامور الاخروية فمن كان في احديهما كيسا كان في
الاخرى ابله وقال الصديق رض اكيس الكيس التقي واحمق الحمق الفجور واما الرقيع فالذي
يلصق بعقله كل محال كانه رقع بذلك والارعن الذي ياتي بما يخرج عن الصواب بسببها
من الخيل وهو الجيد منه والاحمق الناقص العقل من قولهم انمحق السوق اي نقص واما
الغار فقلة التجربة في الامور العملية مع عقل سليم وقد يكون للانسان غرا في شيء غير غر
في شيء اخر والخرق يقال في الجاهل بالعلوم العمليه وذلك ان يفعل اكثر مما يجب او اقل
او على غير النظام المحمود وفساد كل عمل لا يتعدى هذه الوجوه الثلثة ويضاده الحذق
والغي اتباع الهوى وترك ما يقتضيه العقل والضلال ان يقصد لاعتقاد الحق
او فعل الجميل او قول الصدق فظن بتقصيره وسوء تصوره فيما كان باطلا انه حق
فاعتقده او فيما كان كذبا انه صدق فقاله او فيما هو قبيح انه جميل ففعله والجهل عام في ذلك
والجب استعمال الدهاء في الامور الدنيوية صغيرها وكبيرها والجربز مثله لكن يقال في
الامور العظام اذا ادرك غاياتها ولذلك قالوا الدهاة في الاسلام اربعة فذكروا المتوحشين
في الاضبالات في الامور الدنيوية التي بلغوا بها كبارا ومن الجهل الكفر وهو عناد الانسان
للحق على سبيل التكذيب له لا بتعين واصله ستر ما جعل الله للانسان بفطرته وصنعته
من المعارف بما يستعمله ونحوه من عباده الحق ومن ترك النظر والاطلاق بتزكية النفس المعنى
بقوله قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها **كون العلوم** مركوزة في نفوس الناس

نفس الانسان معدن الحكمة والعلوم وهي مركوزة فيها بالفطرة مجعولة اما بالقوة كالنار
في الحجر والنخل في النواة والذهب في الحجارة وكالماء تحت الارض لكن كما ان من الماء ما يجري
من غير فعل بشري ومنه ما يعاين تحت الارض لكن لا يوصل اليه الا بدلو ورشاء ومنه
ما هو كامن يحتاج في استنباطه الى حفر وتعب شديد فان عني به ادرك والا بقي غير
منتفع به كذا العلوم في نفوس البشر منه ما يوجد من غير تعلم بشري وذلك كحال الانبياء
فانه يفيض عليهم المعارف من جهة الملأ الاعلى ومنه ما يوجد بادنى تعلم ومنه ما يصعب
وجوده كحال اكثر عوام الناس ولكون النفوس مركوزة في النفوس قال الله تعالى واذا اخذ
ربك من بني آدم الى قوله بما فعل المبطلون فنبه انهم اقروا ان الله هو الذي يربهم
ويغذيهم ويرزقهم ويكلأهم من الطفولية فهذا اقرار نفوسهم كلهم بما ركز في عقولهم فاما
الاقرار باللسان فلم يحصل في كلهم وكذا المعنى بقوله تعالى ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن
الله اي لو اعتبرت احوالهم لرايت نفوسهم وجوارحهم ينطق بذلك وعلى هذا قوله تعالى
فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها فتبين ان الدين الحنيف وهو
المستقيم قد فطر الناس عليه اي خلقهم عالمين به فان المعاندين وان قصدوا تبديله
وازالة الناس عنه لم يقدروا عليه وعلى ذلك قوله تعالى صبغة الله ومن احسن صبغة وقال
فيمن قويت فيه الصبغة والفطرة اولئك كتب في قلوبهم الايمان فسمي ذلك كتابا وقال عم
كل مولود يولد على الفطرة وهذه الشهادة الماخوذة عليهم فالناس فيه ضربان ضرب
اجالوا خواطرهم حتى ادركوا حقايقها فصاروا كمن حملوا الشهادة فنسوها ثم تذكروا
وكذلك قال تعالى في غير موضع لعلهم يتذكرون وليتذكر اولوا الالباب وضرب اهملوا انفسهم
ولم يشتغلوا بتذكر ما حملوا من الشهادة كما قال تعالى واذا ذكروا فهم لا يذكرون فهم في الجهالة
متسكعون وعلى هذا حثنا الله على التذكر بقوله اذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي
واثقكم به وقال ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر اي يسرنا القرآن ليكون سببا

يتوصلوا به الى تذكر ما سبق من علمكم والتذكر على ثلثة اضرب الاول ان يكون باللسان
عن صورة ما حصل في القلب الثاني ان يكون بالقلب لصورة حصلت عن شيء معهود اما
بالبصر او البصيرة او غيره من المشاعر الثالث ان يكون عن صورة مصممة بالفطرة
في الانسان وهو المشار اليه بهذه الآيات ومن هذا الوجه قال الحكماء التعلم ليس
بجلب الى الانسان شيئا من خارج في الحقيقة انما يكشف الغطاء عما حصل في النفس
فيبرزه بجلائه فمثله كمثل الحافر المستنبط الماء من تحت الارض وكالصقيل الذي
يبرز الجلاء في المرآة وهذا ظاهر لمن نظر بعين عقله **في انواع المعلومات**
انواع المعلوم ثلثة نوع يتعلق باللفظ ونوع يتعلق باللفظ والمعنى ونوع يتعلق
بالمعنى دون اللفظ فاما المتعلق باللفظ فهو ما يقصد به تحصيل الالفاظ بوساطة
المعاني وذلك ضربان احدهما حكم ذوات الالفاظ وهو علم اللغة والثاني حكم لواحق
اللغة الالفاظ وذلك شيئان شيء يشترك فيه النظم والنثر وهو علم الاشتقاق
وعلم النحو وعلم التصريف وشيء يختص به النظم وهو علم العروض وعلم القوافي
واما النوع المتعلق باللفظ والمعنى فخمسة اضرب علم البراهين وعلم الجدل وعلم الخطابة
وعلم البلاغة وعلم الشعر واما النوع المتعلق بالمعنى فقط وذلك معرفة البارئ تعالى
ومعرفة النبوة ومعرفة الملائكة ويوم القيامة ومعرفة العقل ومعرفة النفس ومعرفة
مبادئ الامور ومعرفة الاركان ومعرفة الآثار العلوية من الفلك والنيرين
والنجوم ومعرفة طبايع النبات ويقال له علم الفلاحة ومعرفة طبايع الحيوانات
ومعرفة طبايع الانسان ويقال له علم الطب واما العملي فهو ما يجب ان يعلم ثم يعمل
ويسمى تارة السنن والسياسات وتارة الشريعة وتارة احكام الشرع ومكارمه وذلك
حكم العبادات وحكم المعاملات وحكم المطاعم وحكم المناكح وحكم المزاجر والطرق التي
يستفاد منها العلوم اربعة اضرب الاول المستفاد من بديهة العقل ومبادئ الحس

وذلك يحصل لكل من لم يكن ماووف الآلة وان اختلفت احوالهم في ذلك **الثاني** المستفاد
من جهة النظر اما بمقدمات عقلية او مقدمات محسوسة **الثالث** المستفاد بخبر الناس
اما بسماع من افواههم او بالقراءة من كتبهم ولا يكون الخبر علما الا ما كانت الطمأنينة عن مخبره
مرتفعة **الرابع** ما كان عن الوحي اما بلسان ملك مرئي كما قال تع نزل به الروح الامين
على قلبك واما بسماع كلام من غير مصادفة عين كحال موسى عم واما بالالقاء في روع في
حال اليقظة كما قال عم ان يكن في هذه الامة محدث فهو عمر واما بالمنام وهو المعني بقوله
الرؤيا الصالحة جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة وينطوي على ذلك قوله تع وما كان
لبشر ان يكلمه الله الآية **ما يعرف فضيلة العلم** فضيلة العلم يعرف بشيئين بثمرته
والآخر بوثاقة دلالته وذلك كشرف علم الدين على علم الطب فان ثمرة علم الدين الوصول
الى الحيوة الابدية وثمرة علم الطب الوصول الى الحيوة الدنيوية المنقطعة وعلم الدين اصوله
ماخوذة عن الوحي واصول الطب اكثرها ماخوذة من التجارب ورب علم يربى على غيره
باحد وجهين وذلك الغير يربى عليه بالوجه الآخر كالطب مع الحساب فللطب شرف
الثمرة اذ هو يفيد الصحة والحساب وثاقة الدلالة اذ كان العلم به ضروريا غير مفتقر
الى التجربة وليس يجب ان يحكم بفساد علم لخطاء وقع من اربابه كصنيع العامة اذا راوا
من اخطاء في مسئلة حكموا على صناعته بالفساد واذا راوا من اصاب في مسئلة
حكموا على صناعته بالصحة وذلك عادتهم في الطب والنجم فيعتبرون الصناعة بالصانع
خلاف ما قال امير المؤمنين علي رض يا حار ملبوس عليك الحق لا يعرف بالرجال اعرف الحق
تعرف اهله وليس يدرون ان الصناعة مبنية على شيء روحاني والمتعاطي لها يباشرها
بجسم وطبع بصناعتها العجز فلو ضلق بوقوع الخطاء منه ثم ان الانسان قد يستجل
ما لا يحسنه ويتذرع بدعوى ما لم يجز الله ثم كثير ممن يتخصص بصناعة يدعي الصناعة
ما ليس طبعها كالكثير من المتنجمين المدعين ما لا يوجد في النجم فاذا الاعتبار بدعاوي

الناس **امتحان** معرفة انواع العلوم حق الانسان ان لا يترك شيئا من العلوم ان امكنه
النظر فيه وان تسع العمر الا ويجد بسمة عرفه ويذوق طعمه ثم ان ساعده القدر على التعدي
به والتبرز منه فبها ونعمت والا لم يضره بجهله ذلك ويعاونه عن منفعة معاداته الطبيعة
فمن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا ومن جهل شيئا عاداه فالناس اعداء ما
جهلوا بل قال تعالى واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم وحكي عن بعض فضلاء العقلاء
انه راى بعد ما طعن في السن وهو يتعلم اشكال الهندسة فقيل له في ذلك فقال وصلت علما
نافعا فكرهت ان اكون لجهلي به معاديا له ولا ينبغي للعاقل ان يستهين بشيء من العلوم
بل يجب ان يجعل لكل واحد حظه الذي يستحقه ومنزلته الذي يستوجبه ويشكر من هداه بفهمه
وصار سببا لعلمه فقد حكي عن بعض الحكماء انه قال يجب ان يشكر اباء الليل ولد والنا
الشكوك اذ كانوا اسبابا لمن حرك خواطرنا للنظر في العلم فضلا عن شكر من افادنا
طرفا من العلم ولولا فكر من تقدمنا لاصبح المتاخرون حيارى قاصرين عن معرفة
دنياهم فضلا عن مصالح آخرتهم فمن بالغ حكمة الله في اقل آلة يستعملها الناس كالمقراض
حيث جمع بين السكينين مركبا على وجه يتوافى احدهما على غط واحد للقرض اكثر
تعظم نعمة الله وشكره ويقول سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين **معاداة**
بعض الناس بعض العلوم العلم طريق الى الله تع ذو منازل قد وكل الله تع بكل منزل
منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور في طريق الحج والغزو فمن منازله معرفة اللغة التي
عليها مبنى الشرع ثم حفظ كلام رب العزة ثم سماع الحديث ثم الفقه ثم علم الاخلاق
والورع ثم علم المعاملات وما بين ذلك من الوسائط من معرفة اصول البراهين والادلة
ولهذا قال تع هم درجات عند الله وقال تع يرفع الله الذين آمنوا وقال تع يرفع الله الذين آمنوا
منكم والذين اوتوا العلم درجات وكل واحد من هؤلاء الحفظة اذا عرف مقدار نفسه
ومنزلته وفي ما هو بصدده فهو في جهاد يستوجب من الله تع لحفظ مكانه ثوابا على قدر عمله

لكن قلما ينفك كل منزل منها من شرير في ذاته وشر في مكسبه وطالب لرياسته وجاهل
محب بنفسه يصير لأجل تلفيق سلعته صارفا عن المنزل الذي فوق منزلته من العلم و
عائبا له ولذا يرى كثيرا ممن حصل في منزل من منازل العلوم دون الغاية عائبا لما فوقه
وصارفا عنه من رامه فإن قدر أن يزوف عند الناس بشبهة مزخرفة فعل وإلا نفر
الناس عنه فعل من قال الله تعالى فيهم وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن الآية
وما أرى من هذا صنيعه إلا من الذين وصفهم الله تعالى بقوله الذين يستحبون الحياة الدنيا
على الآخرة الآية وذكر الشيخ الترمذي هذه المسئلة وقال إذا كان من يقطع على الناس طريق
مكاسبهم الدنيوية يستحقون ما ذكر الله في قوله إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الآية
فما الظن بما يستحقه من العقوبة من يقطع الطريق على المسافرين إلى الله تعالى وحكي عن عيسى عليه السلام
يا علماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها ولم تدعوا غيركم يدخلها مثلكم كمثل
الدفلى زهره حسن وثمره يقتل من أكله **الحث على تناول البلغة** من كل علم والاقتصار
عليه من كان قصده الوصول إلى جوار الله تعالى والتوجه نحوه كما قال تعالى ففروا إلى الله
كما أشار إليه النبي عليه السلام بقوله سافروا تغنموا الحجة أن تجعل أنواع العلوم كمنزله موضوع
في منازل السفر فيتناول منه في كل منزل قدر البلغة فلا تعرج على تقصيه واستفراغ
فتقصي الإنسان نوعا واحدا من العلوم على الاستقصاء يستفرغ عمرا بل أعمارا ثم لا يدرك
قعره ولا يسبر غوره وقد نبهنا على أن يفعل ذلك بقوله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
وقال علي رضي الله عنه العلم كثير فخذوا من كل شيء أحسنه وقال الشاعر قالوا خذ العين من كل
فقلت لهم ٭ في العين فضل ولكن ناظر العين ٭ وقيل خل طبعك بالعيون ذا الفنون فالشجر
لا يثبتها وله الحمل إذا كانت غرستها نافعة ويجب أن لا يخوض الإنسان في فن حتى يتناول
في الفن الذي قبله على الترتيب بلغته ويقضي منه حاجته فازدحام العلم في السمع مضلة
للفهم وعلى هذا قال تعالى الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أي لا يتجاوزون فنا

حتى يحكموه علما وعملا ويجب أن يقدم الأهم فالأهم من غير إخلال بالترتيب وكثير من الناس ثكلوا
الوصول بتركهم الأصول وحقهم أن يكون قصدهم من كل علم يتحراه التبلغ به إلى ما فوقه حتى يبلغ
النهاية والنهاية من العلوم النظرية معرفة الله تعالى على الحقيقة والمصدوقة والعلوم كلها
خدم لها وهي حرة وروي أنه رئي صورة حكيمين من الحكماء المتألهين في بعض مساجدهم
وفي يد أحدهما رقعة فيها إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئا حتى تعرف الله
وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء وفي يد الآخر كنت قبل أن عرفت الله أشرب
وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب بل قال الله تعالى ما أشار به إلى ما هو أبلغ من حكمة
كل حكيم قل الله ثم ذرهم أي اعرفه حق المعرفة ولم يقصد بذلك أن يقول ذلك قولا باللسان
اللحمي فذلك قليل الغناء ما لم يكن عن طوية خالصة ومعرفة حقيقية وعلى ذلك قوله عليه السلام
من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة ويجب أن لا يتعرى علمه عن مراعاة العمل فيه
ألا ترى أنه ما أخلى ذكر الإيمان في القرآن من ذكر العمل الصالح نحو الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وإلى ذلك أشار بقوله إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وقيل
كثرة العلوم من غير العمل مادة الذنوب وقيل العلم أس والعمل بناء والأس بلا بناء
باطل وقال حكيم لرجل يستكثر من العلم دون العمل يا هذا إذا أفنيت عمرك في جمع السلاح
فمتى تقاتل بها وقال الشاعر ما يصلح أن يكون إشارة إلى هذا المعنى ٭ فعلام إن لم أشف
نفسا حرة ٭ يا صاحبي أصيد حمل سلاحي **أحوال الناس** في استفادة العلم وإفادته
كما للإنسان في مقتنياته أربعة أحوال حال استفادة فيكون مكتسبا وحال ادخار لما
اكتسبه فيكون به غنيا عن المسئلة وحال إنفاق على نفسه فيصير به منتفعا وحال إفادة
غيره فيصير به سخيا كذا أيضا له في العلم أربعة أحوال حال استفادة وحال تحصيل وحال
استبصار وحال تبصير وتعليم ومن علمه بما لا ما ينتفع به ونفع مستحقيه كان
كالشمس يضيء لغيرها وهي مضيئة والمسك الذي يطيب غيره وهو طيب وهذا أشرف المنازل

ثم بعده من استفاد علماً فاستبصر به، وأما من أفاد غيره علمه ولم ينتفع هو به فكالدفتر
يفيد غيره الحكمة وهو عادمها، وكالمسن يشحذ ولا يقطع، وكالمغزل يكسو ولا يكتسي، وكذبالة
المصباح يحرق نفسها ويضيء لغيرها، ومن استفاد علماً ولم ينتفع هو به ولا غيره فإنه
كالنخل يشرع شوكاً لا يذود به عن حمله كف جاني وهو منتهب

شو ما يجب على المتعلم

أن يتحراه: حق المترشح لتعلم الحقائق أن يراعي ثلاثة من الأمور: الأول أن يطهر نفسه من رذائل
الأخلاق تطهير الأرض للبذر من خبائث النبات، وقد تقدم أن الطاهر لا يسكن إلا
بيتاً طاهراً، وأن الملائكة لا يدخل بيتاً فيه كلب. الثاني أن يقلل من الأشغال الدنيوية
ليتوفر فراغه على العلوم الحقيقية، شو فصاحب التطواف يعمر منهلاً وربعاً، وإذا لم
يحل ربعاً ومنهلاً. وقد قال الله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، والفكرة متى
توزعت تكون كجدول يفرق ماؤه، فتنشفه الجو وتنشف به الأرض فلا يقع به نفع
وإن جمع بلغ المزدرع ما ينتفع به. والثالث أن لا يتكبر مع معلمه ولا على العلم، فالعلم حرب
للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي، ولهذا قال العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك
فإذا أعطيته كلك فإنك من إعطائه إياك بعضه على خطر، وكان إياه عنى من قال حرام
العلى وضد منه وهي التي لا تخدم الأقوام ما لم يخدم. ومتى لم يكن المتعلم من معلمه كأرض
دمثة نالت مطراً غزيراً فتبلعه بالقبول لم ينتفع به، فحقه أن يفرغ له كما قال تعالى إن في
ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أي يلزم له بتفرغ علم يستغني به أو تنزلك
لاستماع الحق واقتباسه ممن عنده العلم. وقال بعض العلماء في قوله عليه السلام اليد العليا خير من اليد
السفلى إشارة إلى فضل المعلم على المتعلم، وفي تبيين فضل المعلم حث للمتعلم على الانقياد له
وكان من حق المريض أن يتكل على الطبيب الناصح الذي وقف على دائه، لا يطلب الطبيب دواءً
فإنه إن يشتهي لم يشتهه إلا ما فيه داؤه، ولم يجتو إلا ما فيه شفاؤه. شو فمن كذا فهو مريض
يجد مر به الماء الزلال، كذلك من حق المتعلم إذا وجد معلماً ناصحاً أن ينقاد له ولا يتأمر

عليه ولا يرد له فيما ليس بصدد تعلمه، وكفى على ذلك تنبيهاً ما حكى الله تعالى عن العبد الصالح
أنه قال لموسى عليه السلام حيث قال له هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً فقال لا تسألني عن
شيء حتى أحدث لك منه ذكراً، فنهاه عن مراجعته، وليس ذلك نهياً عما حث به عليه
بقوله فاسألوا أهل الذكر الآية، وذلك أن النهي إنما هو نهي عن نوع العلم الذي
لم يبلغ منزلته بعد، والحث إنما هو سؤال تفاصيل ما خفي عليه من النوع الذي لم يعلم
هو بصدد تعلمه، وحق من هو بصدد تعلم علم من العلوم أن لا يصغي إلى الاختلافات
المشككة والشبه الملبسة ما لم يتهذب في قوانين ما هو بصدده لئلا يتولد له شبهة
تصرفه من التوصل فيه فيؤدي ذلك إلى الارتداد، ولذلك نهى الله تعالى من لم يكن تقوى
في الإسلام عن مخالطة الكفار فقال يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا
يألونكم خبالاً، وقال لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً، ومن أجل ذلك
كره للعامة أن يجالسوا أهل الأهواء والبدع لئلا يغووهم، فالعامي إذا خلا بذوي البدع
نكسته إذا ضلت بالسبع. وقال بعض الحكماء إنما حرم الله تعالى في الإسلام لحم الخنزير لأنه
أراد أن يقطع العصمة بين العرب وبين الذين تشككونهم باجتماعهم معهم من اليهود
والنصارى، فحرم على المسلمين ذلك إذ هو أعظم مأكولاتهم، وعظم الأمر في تناوله ومسه
ليمتنع المسلمون عن الاجتماع معهم في المواكلة والأنس، وقال عليه السلام المؤمن والكافر لا تتراءى
ناراهما لذلك. فأما الحكيم فإنه لا بأس بمجالسته إياهم فإنه جار مجرى سلطان ذي عدد و
أجناد لا يخاف عليه العدو حيث ما توجه، ولهذا جوز له الاستماع إلى السنة بل أوجب عليه
أن يتتبع بقدر جهده كلامهم ويسمع شبههم ليجاهدهم ويدافعهم، فالعالم أفضل المجاهدين
الذابين عن الدين، فالجهاد جهادان جهاد بالبيان وجهاد بالسنان، ولما تقدم سمى الله تعالى
الحجة سلطاناً في غير موضع في كتابه كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام إني أتيتك بسلطان مبين

ما يجب للمعلم

أن يتحراه مع المتعلمين: حق المعلم أن يجري مع متعلميه مجرى بنيه فإنه

في الحقيقة لهم أشرف الأبوين كما قال الإسكندر وقد سئل أمعلمك أكرم عليك أم أبوك فقال بل
معلمي لأنه سبب حياتي الباقية ووالدي سبب حياتي الفانية وقد نبه النبي عم على ذلك
بقوله إنما أنا لكم مثل الوالد أعلمكم فحق معلم الفضيلة أن يقتدي بالنبي عم إذ هو في إرشاد
الناس خليفته ويشفق عليه إشفاقه ويتحنن عليه تحننه كما قال تع في وصفه عم حريص
عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم وأي عالم لم يكن له من يفيده العلم صار كعاقر لا نسل له فيموت
ذكره بموته ومتى استفيد علمه كان في الدنيا موجودا وإن فقد شخصه كما قال علي رض و
العلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وآثارهم في القلوب موجودة وقال بعض العلماء
في قوله تع فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب إنه سأله نسلا يورثه علمه لا من
يورثه مالا فأعراض الدنيا أدون عند الأنبياء أن يشفقوا عليها وكذا قوله وإني خفت
الموالي من ورائي أي خفت أن لا يراعوا العلم وعلى هذا قال عم العلماء ورثة الأنبياء
وكما أن من حق أولاد الأب أن يتحابوا ويتعاضدوا ولا يتباغضوا كذلك بني العلم بل بني
الدين الواحد أن يكونوا كذلك فأخوة الفضيلة فوق أخوة الولادة ولذلك قال تع إنما المؤمنون
إخوة وقال تع الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ومن حق العالم أن يصرف من يريد
إرشاده عن الرذيلة إلى الفضيلة بلطف في المقال وبتعريض في الخطاب فالتعريض أبلغ
من التصريح لوجوه أحدها أن النفس الفاضلة لميلها إلى استنباط المعنى تميل إلى التعريض شغفا
باستخراج معناه بالفكر ولذلك قيل رب تعريض أبلغ من تصريح الثاني أن التعريض
لا ينهتك به حجاب الهيبة ولا يرتفع به ستر الحشمة الثالث أنه ليس للتصريح إلا وجه واحد وللتعريض
وجوه فمن هذا الوجه يكون أبلغ ومن هذا الوجه حذف أجوبة كثيرة من الشروط المقتضية
للثواب والعقاب نحو قوله تع حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم
فادخلوها خالدين والرابع أن للتعريض عبارات مختلفة فيمكن إيراده على وجوه مختلفة و
لا يمكن إيراد التصريح إلا على وجه واحد إذ ليس له إلا عبارة واحدة والخامس أن تصريح النهي

داع إلى الإغراء ولذلك قيل اللوم إغراء وقال الشاعر ° دع اللوم إن اللوم يغري وإنما °
أراد صلاحا من يلوم فأفسدا ° وقال عم لو نهي الناس عن فت البعر لفتوه وقالوا ما
نهينا عنه إلا وفيه شيء وكفى بذلك شهادة ما كان من أمر آدم وحواء في نهي الله إياهما
عن أكل الشجرة ومن حق المعلم مع من يفيده العلم أن يقتدي بالنبي عم فيما علمه الله تعالى
حيث قال لا أسألكم عليه أجرا فلا يطمع في فائدة من جهة من يفيده علما بدلا لما يوليه
والتعليم إن من باع علما بعرض دنيوي فقد ضاد الله تع في حكمه وذلك أن الله تع جعل المال
خادما للمطاعم والملابس وجعل المطاعم والملابس خادما للعلم والعلم مخدوم غير خادم
والمال خادم غير مخدوم فمن جعل العلم ذريعة إلى اكتساب المال فقد جعل ما هو مخدوم غير خادم
خادما لما هو خادم غير مخدوم **وجوب منع الجهلة** عن حقائق العلوم والاقتصار بهم على قدر
أفهامهم واجب على الحكيم والعالم النحرير أن يقتدي بالنبي عم فيما قال إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل
الناس منازلهم ونكلم الناس بقدر عقولهم وأن يتصور ما قال أمير المؤمنين علي رض حيث قال
لكميل بن زياد وأومى بيده إلى صدره فقال إن ها هنا علوما جمة لو وجدت لها حملة بلى أصيبه لقنا
غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين والدنيا فيستظهر بنعم الله على عباده وبحججه على كتابه أو منقادا
لأهل الحق لا بصيرة له ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة وروي عن النبي عم كلموا
الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله وقال عم ما أحد حدث
قوما لا يبلغ عقولهم إلا كان ذلك فتنة على بعضهم وقال عيسى عم لا تضعوا الحكمة في غير أهلها
فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم وكن كالطبيب الحاذق يضع دواءه حيث يعلم أنه ينفع
وقيل تصفح طلاب علمك كما تتصفح خطاب حرمك وأنشد المبرد لأبي تمام فقال شعر ° وما أنا بالغيران
من دون جارتي ° إذا أنا لم أصبح غيورا على العلم ° وقيل لبعض الحكماء ما بالك لا تطلع كل
أحد على علمك يطلبها منك فقال اقتداء بالباري جل وعز قال ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم
الآية فتبين أن منعهم لما لم يكن فيهم خير وبين أن في إسماعهم ذلك مفسدة لهم وسأل جاهل

حكيما مسئلة عن الحقائق فاعرض عنه ولم يجبه فقال اما سمعت قول النبي عم من كتم علما نافعا
جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار فقال نعم سمعته اترك اللجام واذهب فاذا جاء من يفقه
ذلك وكتمته فليلجمني وقال بعض الحكماء في قوله ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما
انه نبه به على هذا المعنى وذلك لما منعنا عن تمكين السفيه من المال الذي هو عرض
حاضر ياكل منه البر والفاجر نفعا وما انه ربما يؤديه الى هلاك دنيوي فلان يمنع عن تمكينه
من حقائق العلوم الذي اذا تناوله السفيه اداه الى ضلال واضلال وهلاك واهلاك
اولى فانه اذا ما اقتنى العلم ذو شر تضاعف ما دام من مخبره وصادف من عمله قوة
يصول بها الشر جوهره وكما انه واجب على الحكام اذا وجدوا من السفهاء رشدا ان
يرفعوا عنهم الحجر ويدفعوا اليهم اموالهم فواجب من الحكماء اذا وجدوا من المسترشدين
قبولا ان يدفعوا اليهم العلوم بقدر استحقاقهم فالعلم قنية يتوصل بها الى الحيوة الاخروية
كما ان المال قنية في المعاونة على الحيوة الدنيوية وباذل العلم لمن لا يستحقه يستوجب عقوبة
ومانعه عن اهله يستوجب عقوبات ولذلك قال تع واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب
لتبيننه للناس ولا تكتمونه وقال ان الذين يكتمون ما انزل الله من الكتاب ويشترون به
ثمنا قليلا اولئك لا خلاق لهم في الآخرة واذا ثبت ذلك وجب ان يكون من تقيد من العامة
تقيدا شرعيا فحسنت حاله ان لا يصرف عما هو بصدده فيؤدي ذلك الى الحلالة عن قيد ثم لا يمكن
له التقيد بتقييد الخواص فيرتفع السد الذي بينه وبين الشرور وعن اشتغاله بعمارة الارض
من تجارة او مهنة فحقه ان يقتصر به من العلم على مقدار ما يحتاج اليه من هو في درجته
في عبادة الله العامية وان لا يعلا بعد من الرهبة والرغبة الوارد بها القرآن ولا يورد له
الشبه والشكوك وان اتفق اضطراب نفس بعضهم اما بانبعاث شبهة تولدت له او
ولدها ذو بدعة دفع اليه فتاقت نفسه الى معرفة حقيقتها فحقها ان يختبر فان وجد ذا
طبع للعلم موافق وفهم ثاقب ونفور صائب خلي بينه وبين التعلم وسوعد عليه بما يوجد

من السبيل اليه وان وجد شريرا في طبعه او ناقصا في فهمه منع اشد المنع ففي استعماله بما لا سبيل
له الى ادراكه مفسدة فان تعطله عما يعود نفعه الى العباد والبلاد واستعماله بما يكثر فيه شبهة
ليس فيه نفعا وكان بعض الامم المتقدمة اذا ترشح احدهم لتخصص احدهم بمعرفة العلم
وحقائق العلوم والخروج من جملة العامة الى الخاصة اختبره فان لم يجده خيرا في الخلق
او غير متهيئ للتعلم منعه اشد المنع وان وجده خيرا او متهيئا للتعلم شرطا ان تقيد
تقييد في دار الحكمة ومنع ان يخرج حتى يحصل له العلم او ياتي عليه الموت ويزعمون ان من شرع
في حقائق العلوم ثم لم يتبرع فيها تولدت له الشبه وكثرت فصار ضالا مضلا فيعظم
على الناس ضرره ولهذا النظر قيل نعوذ بالله من نصف متكلم **وجوب ضبط المتصدين**
للعلم ومضرة اهمال ذلك لا شيء اوجب على السلطان من مراعاة احوال المتصدين للرياسة
بالعلم فمن الاخلال بها ينتشر الشر ويكثر الاشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر
وذلك ان السواس اربعة الانبياء وحكمهم على العامة والخاصة باطنهم وظاهرهم
والولاة وحكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والحكماء وحكمهم على بواطن
الخاصة والوعظة وحكمهم على باطن العامة وصلاح العالم بمراعاة هذه السياسات
لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة وفساده في عكس ذلك ولما ترك مراعاة
المتصدين للحكم والوعظ وترشح قوم للزعامة في العلم من غير استحقاق لها فاحدثوا
بجهلهم بدعا استغووا بها العامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة فوجدوا في العامة
مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم **شعر** فكل قرين الى شكله كانس الخنافس
بالعقرب وفتحوا بذلك طرقا منسدة ورفعوا بها ستورا مسبلة وطلبوا منزلة الخاصة
فوصلوا اليها بالوقاحة وبما فيهم من الشره فبدعوا العلماء وكفروهم اغتصابا
لسلطانهم ومنازعة لمكانهم فاغروا بهم اتباعهم حتى وطئوهم باظلافهم فتولد من ذلك
البوار والجور العام **ذكر من يصلح لوعظ العامة** لا يصلح الحكيم لوعظ العامة لا لنقص

في الحكيم بل للنقص في العامي فكما ترى الشمس أبصار الخفافيش وأيضا فبين الحكيم والعامي
من تنافي طبعهما وتنافر شكلهما من البعد قريب مما بين الماء والنار والليل والنهار وقد
قيل لسلمة بن كميل ما بال علي رض رفضته العامة وله في كل خير ضرس قاطع فقال لأن ضوء
عيونهم قصر عن نوره والناس إلى أشكالهم أميل وبهذا النظر لما قال جاهل لحكيم إني
أحبك فقال له بغضت إلى نفسي فقال له ولم فقال لأنه إن صدق فليس ميله إلي إلا لنقيصة
بدت من نفسي لنفسه فأنست به وعلى هذا قال الشاعر لقد زادني حبا لنفسي أنني
بغيض إلى كل امرئ غير طائل ويجب الواعظ أن يكون له مناسبة إلى الحكماء ليقدر على الاقتباس
عنهم والاستفادة منهم ومناسبة إلى الدهماء ليقدر على الإفاضة منه كالوزير للسلطان
الذي يجب أن يكون فيه أخلاق الملوك وتواضع السوقة ليصلح أن يكون بينه وبينهم وكالنبي الذي
جعله الله من البشر وأعطاه قوة الملك ليمكنه أن يأخذ من الملك ويمكن للبشر أن يأخذوا
منه وإلى هذا الإشارة بقوله ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون تنبيها
أن ليس في وسعكم التلقف عن الملك ما لم يتجسم ويتصور في صورة رجل فإذا حق الواعظ
أن يكون له نسبة إلى الحكيم ونسبة إلى العامة يأخذ منه ويعطيهم كنسبة الغضاريف
إلى اللحم والعظم جميعا فلولاها لما أمكن للعظم أن يكتسب الغذاء من اللحم وهذا مما يؤمل
اطلع منه على حكمة عجيبة وصنعة غريبة **الحال التي** يجب أن يكون الواعظ عليها حق الواعظ
أن يتعظ ثم يعظ ويبصر ثم يبصر ويهتدي ثم يهدي ولا يكون دفترا يفيد ولا يستفيد
ومسنا يشحذ ولا يقطع بل يكون كالشمس التي تفيد القمر الضوء ولها أفضل مما تفيده
وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحماء أكثر مما تفيد ويجب أن لا يخرج مقاله بفعاله
ولا يكذب لسانه بحاله فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله ومن الناس من يعجبك قوله في الحيوة
الدنيا إلى قوله والله لا يحب الفساد ولهذا قال علي رض قصم ظهري رجلان جاهل متنسك
وعالم متهتك فالجاهل يغر الناس بنسكه والعالم ينفرهم بتهتكه والواعظ ما لم يكن

مع مقاله فعاله لا ينتفع به وذلك أن علمه يدرك بالبصيرة وعمله يدرك بالبصر وأكثر الناس
أصحاب الأبصار دون البصائر فيجب أن يكون عنايته بإظهار عمله الذي يدرك جماعتهم أكثر
من عنايته بالعلم الذي لا يدرك إلا بالبصيرة ومنزلة الواعظ من الموعوظ منزلة المداوي
من المداوى وكما أن الطبيب إذا قال للناس لا تأكلوا هذا فإنه سم ثم رآه أكله عد
سخرة وهزوا كذلك الواعظ إذا أمر بما لا يعمله وبهذا النظر قيل للطبيب يا طبيب طب
نفسك بل قد قال تعالى لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون
إلى غير ذلك من الآيات وأيضا فالواعظ من الموعوظ يجري مجرى الطابع من المطبوع
فكما أنه محال أن ينطبع الطين عن الطابع بما ليس منتقشا به كذلك محال أن يحصل في نفس
الموعوظ ما ليس بموجود في الواعظ وإذا لم يكن الواعظ إلا ذا قول مجرد من الفعل
لم يطع عنه الموعوظ إلا القول دون الفعل وأيضا فإن الواعظ يجري من الناس مجرى الظل
من ذي الظل فكما أنه محال أن يعوج ذو الظل والظل مستقيم كذلك محال أن يعوج الواعظ و
الموعوظ مستقيم وأيضا فكل شيء له مادة يختص بها فإنه يجر غيره إلى نفسه بقدر وسعه
بإرادة منه وغير إرادة كالماء الذي يحيل ما يبلغه من العناصر إلى نفسه بقدر وسعه
وكذلك النار والأرض والهواء فالواعظ إذا كان غاويا جر بغيه غيره إلى نفسه ولهذا
حكى الله تعالى عن الكفار ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا وقال تعالى فأغويناكم
إنا كنا غاوين ومن يترشح للوعظ ثم فعل فعلا قبيحا اقتدى به غيره فقد جمع وزره
ووزرهم كما قال عم من سن سنة سيئة فله وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيمة بل قد
قال ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم وقال تعالى
وليحملن أثقالهم **صفة المعيار** الذي يدرك به حقائق العلوم كما أن للدراهم والدنانير
ميزانا قد عرف أهلها صحته فلكل علم ميزان يعرف به نحو الحساب للمعدودات والهندسة
للممسوحات والعروض للشعر والنحو لألفاظ العرب وإلى هذا أشار بقوله تعالى لقد أرسلنا

رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان فاوصى الذين اعطاهم الموازين فقال
وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس الآية فكل شاك ومنازع غيره في مقدار
حقه ان يعتمد ميزانه ان عرفه ويقلد اربابه ان لم يعرف فان من ترك ذلك واخذ بخرص وحزر
وظن وتخمين لم يزل شكه ولم يسقط خلافه فالخرص قلما يصدق والظن قلما يحقق ولذلك
عبر عن الخرص بالكذب تعالى ان هم الا يخرصون وقال تعالى قتل الخراصون وقال في ذم الظن
ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا ومعلوم ان ميزان الدين الذي صوابه
يوصل الى الثواب العظيم وخطاؤه يفضي الى العذاب الاليم اصعب الموازين واشرفها واولاها
بالمعرفة وكثير في زماننا ممن يتحلى بعلم الكلام ويترشح فيه للجدال والخصام ورام الزعامة
فيه قبل اوانها وطلب تحقيق موزوناته بغير ميزانها اخذ كل واحد منهم يخرص خرصا
ويظن ظنا ويسلك بظنه طريقا غير نهج فاذا وقع بينهم خلاف جعل كل واحد ميزانه
خرصه واتبع فيما اعتقد ظنه فاذا تحاكموا الى ما اتخذوه ميزانا صار ضلالهم في
الميزان اكثر من ضلالهم بالموزون فهم في ذلك كمن غص بطعام فاستغاث بالماء فشرق
به كمن تقتح نار يستعد لها بالحمل في بعض من قار وكبريت لا جرم ان كثيرا من طرائقهم
لا يولد الا شبهة ولا يثمر الا حيرة ولا تقوم عنها اشنان الا بناء كمدت بما بل ظلمات
بعضها فوق بعض ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور **كراهية الجدال للعوام** وذم
الجدال على كل حال اباحة تعاطي الجدال للعامة الذين لم يتدربوا في تحصيل القوانين
ولم يتهذبوا في سبل البراهين يجري مجرى حل قيد الشياطين ورفع سد ياجوج وماجوج
فانها تثور سلطان وهمهم السبعية طالعة من برقابو العقل وقيد الشرع فالجدال مكروه
للعلماء الالباء فكيف للجهال والاغبياء الا ترى انه تعالى النبيه وجادلهم بالتي هي احسن
فلم يطلق له جدال مخالفيه حتى قيده بالاحسن هذا مع وصفه بقوله انك لعلى خلق عظيم وقال
في ذم الجدال ما ضربوه لك الا جدالا الآية وقال ومن الناس من يجادل في الله بغير علم وقال

واذا رايت الذين يخوضون في آياتنا وللجدال مع كونه مكروها شرايط وقوانين من تعاطاه و
لم يكن متدربا كان خصيما لا اصولا والخصومة عديمة الفايدة قليلة العايدة فان الجدال
مع ما فيه قد يوقظ الفهم وينبه الانفة لاقتباس العلم والخصومة لا تثمر الا العداوة
وانكار الحق ولذا جعلها الله سرا من الجدال فقال تعالى بل هم قوم خصمون وقال فاذا هو
خصيم مبين ولم يذكر الخصام في موضع الاعانة وايضا فالمتجادلان يجريان مجرى
فحلين تعاديا وكبشين تناطحا وستين تحاربا وكل واحد منهما يجتهد ان يكون هو الفاعل
وصاحبه هو المنفعل وان يكون هو الطابع وصاحبه هو المنطبع والقابل كالمؤثر
والسامع كالمتاثر ومتى لم يخضع المتاثر لقبول اثر المؤثر لم يتولد منهما خير بوجه
وقال حكيم المجادل المواقع يضع في نفسه عند الجواب في الجدال ان لا يقنع بشيء ومن
لا يقنعه الا ان لا يقنع فما الى اقناعه سبيل ولو اصفق عليه الحكماء بكل بينة بل لو
اجمع عليه الانبياء بكل معجزة كما قال تعالى ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة الى اخر الآية
ما يجب ان يعامل به الجدل المماحك اذا ابتليت بمجادل مماري ومساجل مناوش
قصده اللجاج ولا له الحجاج ومراده مباهلة العلماء ومماراة السفهاء كما قال عم من تعلم
العلم ليباهي به العلماء او يماري به السفهاء وقال الشاعر في مثله شعر تراه معد الخلاف
كانه برد على اهل الصواب موكل فحقك ان تفر منه فرارك من الاسد والاساود
فان لم تجد من منازلته بدا فقابل انكاره الحق بانكارك الباطل ودفاعه الصدق
بدفاعك الكذب معتبرا في ذلك قول الله تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون
فانظر كيف كان عاقبة مكرهم وقوله ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين وقوله حكاية
عن المنافقين انما نحن مستهزؤن الله يستهزئ بهم وقوله فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم
الآية وتتبلغ معه بذلك واياك وان تعرج معه الى بث الحكمة وان تذكر له شيئا من الحقائق
ما لم تتحقق ان له قلبا طاهرا لا عانة الحكمة فقد قال عم لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب

فان لكل تربة غرسا ولكل بناء اساسا وما كل راس يستحق التحال ولا كل طبيعة تستحق افادة
البيان وان كان لا بد فاقتصر معه على اقناع يبلغه فهمه فقد قيل كما ان لب الثمار معد للانام
والتبن مباح للانعام فلب الحكمة معد لذوي الالباب وقشورها مجعولة للانعام وكما انه
من المحال ان يشم الاخشم العالم ان يعقد الحمار شابا واعلم ان سبيل انكار الحجة والسعي
في افسادها اسهل من سبيل المعارضة بمثلها والمقابلة لها ولهذا يتحرى الجدل الخصم ابدا
الدفاع لا المعارضة وذلك ان الافساد هدم وهو سهل والاتيان بمثله بناء وهو
صعب فان الانسان كما يمكنه قتل النفس الزكية وذبح الحيوانات واحراق النبات ولا يقدر
على ايجاد شيء منها فكذلك الجدل يمكنه افساد حجة قوية بضرب من الشبهة المزخرفة ولا يمكنه
الاتيان بمثلها ولاجل ما قلنا دعا الله الناس في الحج على الاتيان بمثلها لا السعي في افسادها
فقال فاتوا بسورة مثله وقال فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وهلا ياتوا بما فيه
مشابهة له وان كان ذلك معترك وقال ابراهيم عم فان الله ياتي بالشمس من المشرق
فات بها من المغرب الوجوه التي يقع من اجلها الشبهة والخلاف السبب الموقع للشبهة والمولد للخلاف
على القول المجمل شيئان المعنى واللفظ فاما ما كان من جهة المعنى فاما ان يكون من جهة الناظر
او من جهة المنظور فيه وهو الحجة او من جهة الالة التي يستعمل في النظر فان الناظر في الشيء
المعتبر له جار مجرى وزان وحجة كالميزان والمنظور فيه كالموزون فمتى كان الناظر غير
تام العقل كان اعمى البصيرة فيجري مجرى وزان اعمى البصر فلا سبيل له الى الوزن ومتى
لم يكن عمى البصيرة ولكن هو مالك لقوا بين البراهين والحجج والادلة كان جاريا مجرى
وزان عدم الميزان فاخذ تخمينا والمخمن قلما ينفك من غلط بل ما وقع منه الصواب
فغير معتد به اذ لا اصل له يسكن اليه النفس ومتى لم يكن عمى البصيرة ولكن لا يعرف
اي حجة يستعمل فيما هو بصدده فيطلب المعقول من جهة المحسوس والمحسوس من جهة المعقول كان
جاريا مجرى وزان بصير لكن يزن الدراهم بسنج الدنانير والدنانير بسنج الدراهم واما

ما كان من جهة اللفظ فاما ان يكون من حيث ان اللفظ مشترك بين معنيين كالعين واليد
ونحوهما او يكون اللفظ عاما موضوعا موضع خاص او خاصا موضوعا موضع عام او يكون
اللفظ مستعملا على سبيل المثل والاشارة والرمز او يكون اللفظ مستعملا لشيء لم يتقرر صورة
ذلك الشيء في نفس السامع فيتخيل له وهم فاسد كاعتقاد كثير من الناس اعتقادات فاسدة
في الملائكة والجن والشيطان والجنة والنار والميزان والصراط والكرسي واما ما كان من جهة
التركيب فاما ان يكون من جهة الكمية وذلك بان يكون اللفظ اكثر مما يجب او اقل مما يجب او يكون
واما من جهة الكيفية وذلك ان يقدم ما حقه ان يؤخر او يؤخر ما حقه ان يقدم ومن
اجل ما وقع في الالفاظ من الشبه قال الحكماء يجب ان يكون نظر الانسان من المعنى
الى اللفظ اكثر من نظره من اللفظ الى المعنى فان في الحقيقة اللفظ لا يدل على المعنى الا بوساطة
صورة ذلك المعنى في القلب ومتى لا يثبت صورة المعنى في القلب لم يفهم من اللفظ المعنى بيان
جمع الخلاف بين الناس في الاديان والمذاهب جميع الاختلاف بين اهل الاديان والمذاهب
على اربع مراتب الاولى الخلاف بين اهل الاديان النبوية وبين الخارجين عنها من
الثنوية والدهرية وذلك في حدوث العالم وفي الصانع ونفي التوحيد والثانية
الخلاف بين اهل الاديان النبوية بعضهم مع بعض وذلك في الانبياء كاختلاف المسلمين
والنصارى واليهود والثالثة الاختلاف المختص في اهل الدين الواحد بعضهم مع بعض
في الاصول التي يقع فيها التبديع والتكفير كالاختلاف في شيء من صفات الله وفي القدر
وكاختلاف المجسمة الرابع الاختلاف المختص باهل المقالات في فروع المسائل كاختلاف
الشافعية والحنفية والاختلاف الاول يجري مجرى متنافيين في مسلكيهما كاخذ طريق المشرق
واخذ طريق المغرب او اخذ ناحية الشمال واخذ ناحية الجنوب والثاني يجري مجرى اخذ نحو
المشرق واخذ يمينه او شماله فهو وان كان اقرب من الاول فليس يخرج احدهما ان يكون
ضالا ضلالا بعيدا واياهما قصد بقوله تعالى ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا والثالث

يجري مجرى آخذين في جهة واحدة، ولكن احدهما سالك المنهج والآخر تارك المنهج وهذا
التارك للمنهج ربما يبلغ وان كان يطول عليه الطريق والرابع جار مجرى جماعة سلكوا منهجا
واحدا لكن اخذ كل واحد شعبا غير شعب الآخر وهذا هو الاختلاف المحمود وبقوله الاختلاف
في هذه الآية رحمة ونحوه نظر من قال كل مجتهد في الفروع مصيب ولاجل الطرق الباطلة
امرنا ان نستعيذ بالله ونتضرع اليه بقوله اهدنا الصراط المستقيم وان هذا صراطي
مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل الآية وجميع الخلافات الواقع في هذه الامة اثنان
وسبعون لا يزيد ولا ينقص وقد روي الخبر في ذلك على وجهين احدهما ستفترق امتي
على اثنين وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة وفي الخبر الثاني كلها في الجنة الا واحدة
وهم الزنادقة وهذا ان صح لا يمتنع ان يكونا صحيحين ولكن على نظرين
ومعنيين وقد ذكرت ذلك وبينته في رسالة مفردة. **النطق والصمت** النطق اشرف ما خص ٧٠
به الانسان فانه صورته المعقولة التي بها باين سائر الحيوانات ولذا قال تعالى خلق الانسان
علمه البيان ولم يقل وعلمه البيان اذ جعل قوله علمه تفسيرا لقوله خلق الانسان تنبيها
ان خلقته اياه هو تخصيصه بالبيان الذي لو توهم مرتفعا لكانت الانسانية مرتفعة
ولذلك قيل ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة او صورة ممثلة وقيل المرء مخبوء
تحت لسانه وقال الشاعر لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
اي اذا توهم ارتفاع النطق الذي هو اللسان والقوة الناطقة التي هي بالقوة لم يبق الا صورة
اللحم والدم فاذا كان الانسان هو اللسان فلا شك ان من كان اكثر منه حظا كان اكثر
انسانية والصمت من حيث ما هو صمت مذموم فذلك من صفة الجمادات فضلا عن الحيوانات
وقد جعل الله بعض الحيوانات بلا صوت وجعل لبعضها صوتا بلا تركيب ومن مدح
الصمت فاعتبارا بمن يسيء في الكلام فيقع منه جنايات عظيمة في امور الدين والدنيا
كما روي ان الانسان اذا اصبح امرت اعضاؤه لسانه فتقول اتق الله فانك ان استقمت

استقمنا وان اعوججت اعوججنا فاما اذا اعتبرا بانفسهما فمحال ان يقال في الصمت فضل فضلا
ان يقايس بينه وبين النطق وسئل حكيم عن فضلهما فقال الصمت افضل حتى يحتاج الى النطق وسئل
آخر فقال الصمت من الحياء افضل من الكلام بالخطاء وعنه اخذ الشاعر فقال الصمت
احسن بالفتى من منطق في غير حينه والفرق بين الصمت والسكوت والانصات والاصاخة
ان الصمت ابلغ لانه يستعمل فيما لا قوة فيه للنطق وفيما له قوة النطق ولذا قيل لما لا نطق له
الصامت والصمت والسكوت يقال لما له نطق فيترك استعماله والانصات سكوت مع استماع
ومتى انفك احدهما عن الآخر لا يقال له في الحقيقة انصات ولذلك قال تعالى واذا قرئ القرآن
فاستمعوا له وانصتوا فقوله وانصتوا بعد قوله فاستمعوا يدل على ان الانصات بعد الاستماع ذكر خاص
بعد عام والاصاخة الاستماع الى ما يصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان البعيد
٧١ **الصدق وحده والكذب وحده** اصلهما في القول ولا يكونان بالقصد الاول من القول الا في الخبر
دون غيره من اصناف الكلام فاما بالعرض فقد يدخل في انواع الكلام من الاستفهام
والامر والدعاء وذلك ان قول القائل ازيد في الدار في ضمنه اخبار كونه جاهلا بحال زيد
وكذلك اذا قال واسني في ضمنه انه محتاج الى المواساة واذا قال لا تؤذني في ضمنه انه يؤذيه
وكلاهما اعني الصدق والكذب يستعمل في الاعتقاد ايضا كقولهم صدق ظنه واعتقاده
وكذبا ويستعملان ايضا في افعال الجوارح نحو صدقوهم القتال وكذبوهم والصدق
التام مطابقة القول الضمير والمخبر عنه ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقا تاما
بل اما ان لا يوصف بالصدق والكذب او يوصف تارة بالصدق وتارة بالكذب على نظرين
مختلفين كقول الكافر اذا قال من غير اعتقاد محمد رسول الله فان هذا يصح ان يقال فيه
كذب لمخالفة قوله ضميره ولهذا اكذبهم الله تعالى حيث قال اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك
لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون وكذلك اذا قال
من لم يعلم كون زيد في الدار انه في الدار يصح ان يقال صدق وان يقال كذب باعتبار

نظرين مختلفين ولذا قال عم من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ وفي خبر فقد كذب
على الله ثم والمبرسم لا قصد له فإذا قال زيد في الدار لا يقال إنه صدق ولا كذب فالصدق
أحد أركان بقاء العالم حتى لو توهم مرتفعا لما صح نظامه وبقاؤه وهو أصل المحمودات
وركن النبوات ونتيجة التقوى ولولاه لبطل أحكام الشرائع ولذلك قال تعالى يا أيها الذين آمنوا
اتقوا الله وكونوا مع الصادقين والاختصاص بالكذب انسلاخ عن الانسانية
لخصوصية الانسان النطق ومن عرف بالكذب لم يعتمد نطقه وإذا لم يعتمد نطقه لم ينفع
وإذا لم ينفع نطقه صار هو والبهيمة سواء بل يكون شرا من البهيمة فإن البهيمة
إن لم ينفع بلسانها فإنها لا يضر والكاذب يضر ولا ينفع وقال تعالى إن هم إلا كالأنعام
بل هم أضل واعلم أن كل كلام خرج على وجه المثل للاعتبار دون الإخبار فليس بكذب
في الحقيقة ولهذا لا يتحاشى المتحرزون من التكذب به كقولهم في الحث على مداراة العدو
في خدمة الملوك إن سبعا وذئبا وثعلبا اجتمعن فقلن نسير كي فيما نتصيد فظفرن بظبي
وعير وأرنب فقال السبع للذئب اقسم فقال الذئب هي مقسوم العير لك والظبي لي والأرنب
للثعلب فوثب السبع فأدماه ثم قال للثعلب اقسم فقال هو مقسوم العير لغدائك
والظبي لقابلتك والأرنب لعشائك فقال السبع من علمك هذه القسمة المليحة فقال
علمني السراويل الأرجواني الذي على الذئب وعلى المثل حمل قوله تعالى إن هذا أخي له تسع وتسعون
نعجة ولي نعجة واحدة وقوله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل الآية فقال يصح هذا المكان
مثلا وإن لم يجر تعالى العادة في وجوده هكذا ما يحسن ويقبح من الصدق والكذب ٧٢
ذهب كثير من المتكلمين أن الصدق يحسن لعينه والكذب يقبح لعينه وقال كثير من الحكماء
والمتصوفة أن الكذب يقبح لما يتعلق به من المضار الخالصة والصدق يحسن لما يتعلق به
من المنافع الخالصة وذلك أن الأقوال من جملة الأفعال وشيء من الأفعال لا يحسن ولا يقبح
لذاته بل إنما يحسن ما يحسن لما يتعلق به من النفع ويقبح ما يقبح لما يتعلق به من الضرر

المؤمن على ما فيه من النفع ألا ترى أن أعظم ما يجري في العالم القتل والمعصية وقد يقع كل واحد
منهما على وجه يحسن وعلى وجه يقبح وكذا الفعال من الصدق والكذب ولذلك قال عم لا يحسن
الكذب إلا في ثلث إصلاح ذات البين وكذب الرجل لامرأته وكذب الرجل في الحرب فإنها
خدعة وقد روي إذا أتاكم حديث يدل على هدى أو يرد عن ردى فاقبلوه وإن لم أقله وإن
أتاكم حديث يدل على ردى أو يرد عن هدى فلا تقبلوه فإني لا أقول إلا حقا قالوا والكذب
يكون قبيحا بثلث شرائط أن يكون الخبر بخلاف المخبر عنه وأن يكون المخبر قد اطلع قبل الإخبار
به وأن يقصد إيراده ما نفسه لاندفاع ضرر أعظم من ضرر ذلك الكذب مع شرط أن لا يمكن
الوصول إلى ذلك النفع بغيره ومع أنه إذا اظهر كان للكاذب عذر واضح عاجلا وآجلا
قالوا ولا يلزم على هذا أن يقال جوزوا الكذب فيما يرجى منه نفع دنيوي فالمنفعة الدنيوية
ولو كانت ملك الدنيا بحذافيرها لا يوفي على ضرر أدنى كذب وإنما هذا الذي قلنا يتصور
في نفع أخروي يكون الإنسان فيه عاجلا وآجلا معذورا كمن سألك عن مسلم استتر
في دارك وهو يريد قتله فيقول هل فلان في دارك فتقول لا فهذا يجوز فإن نفع هذا الكذب
موفق على ضرره وهو فيه معذور ولا خلاف أن المعارض بحيث يضطر إليه يجوز ولذلك
قيل في المعارض مندوحة عن الكذب ولم يزل الأنبياء والأولياء يفزعون إليه كقول
النبي صم لمن سأله من أين أنت فقال من الماء وقول إبراهيم عم إني سقيم وقوله هذه
أختي وقوله بل فعله كبيرهم هذا وأما الصدق فإنما يحسن حيث يتعلق به نفع
ولا يلحق ضررا بأحد فمعلوم قبح قول من يقعد ويقول السماء فوقي والأرض تحتي من غير
أن يريد أن يجعل ذلك مقدمة دليل أو إفادة معنى يتعلق به وكذا يقبح النميمة والغيبة
والسعاية وإن كان صدقا ولذلك قيل كفى بالسعاية ذما أنه يقبح فيه الصدق وأقبح
الكذب مع قبح كله وجه ما لا يتعلق به رجاء نفع عاجل وآجل ولجلب الباء المعول له
ضر الرجل بأنك عن بلد بعيد فيقول إن ملك ذلك البلد يرغب فيك ويتشوق إليك

الملك
وسألك أن يأتيك ليفيدك مالا وجاها فإذا وردت لم تجد لذلك صدقا بل وجدت ذلك
حنقا عليك **أنواع الكذب والداعي إليه** الكذب إما أن يكون اختراع قصد لا أصل له أو زيادة
في القصة أو نقصان يغير أن المعنى أو تحريف بتغيير عبارة فما كان اختراعا يقال له الافتراء
والاختلاق وما كان من زيادة أو نقصان فمين وكل من أولئك كذبا في غيبة فأما أنه
يقول بحضرة المقول فيه أو بغير حضرته وأعظم الكذب ما كان اختراعا بحضرة المقول
فيه وهو المعني عنه بالبهتان وكل من أولئك صدقا وأما أن يخبر به عن علم أو عن غلبة
تخمين أو ظن وأما القائل عن علم محمود بلا شك وما كان عن غلبة ظن فقد يحسن وقد يقبح
وما كان عن ظن وأما فمذموم ولذلك قال الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن
إن بعض الظن إثم واعلم أن الداعي إلى الكذب محبة النفع الدنيوي وحب الترؤس
وذلك أن المخبر يرى أن له فضلا على المخبر بما علمه فهو يتشبه بالعالم الفاضل في ذلك وقيل
إنه كلف بما يقول فضيلة ومسرة وهو يجلب به نقيصة وفضيحة فقصة كذبه وإن
لا توازي مسرات دهره والكذب عار لازم وذل دائم وحق الإنسان أن يعود الصدق
ولا يترخص في أدنى كذب فمن استحلاه عسر فطامه عنه وقد قال بعض الحكماء كل
ذنب يرجى تركه بتوبة إذا بما حلا الكذب فإن صاحبه يزداد عن الكذب فقد
رأينا شارب خمر أقلع ولصا نزع ولم نر كذابا رجع ودعوت كذابا في كذبه فقال لو
تغرغرت به ونطقت طاقته لما صبرت عليه **الذكر الحسن من المدح والثناء** محبة الذكر
الحسن مقاصد أبناء الدنيا وهي في جبلة الناس من خصائصهم ولا يوجد في غير
من الحيوان كما قال الشاعر حب الثناء طبيعة الإنسان ولولا التعلق به لما ظهرت
العدالة من أكثر الناس ومن لا يخوفه الهجاء ولا يسره الثناء لا يردعه عن سوء الفعال
الأسوط أو سيف وقيل الذي يقوم عن القبيح ويحث عن الجميل خمسة أشياء العقل
ثم الحياء ثم المدح والهجاء ثم الترغيب والترهيب وقيل من لم يردعه الذم عن سيئة

٤٧
ولم يستدع المدح إلى حسنة فهو جماد أو بهيمة ولأجل ما ينازع الناس الرياسة والمنازل
والمنازل الرفيعة وليس الثناء في نفسه بمحمود ولا مذموم ويذم بحسب المقاصد
فمن قصد فعل ما يستحق به الثناء على الوجه الذي يستحق بذلك محمود وهو طريقة
إبراهيم حيث قال واجعل لي لسان صدق في الآخرين أي اجعلني بحيث أفعل ما إذا
مدحت بشيء يكون مادحي صادقا ومن هذا الوجه يندب للإنسان إذا مدح يقول اللهم
اجعلني خيرا مما يظنون والمذموم منه أن يميل من غير تحرية لفعل ما يقتضيه وذلك
من أعظم الآفات لمن تحراه فإنه ينتج الحسد والحسد ينتج الكذب والكذب رأس
كل مذموم وقد توعد الله تعالى من طلب المحمدة من غير فعل حسنة يقتضيها فقال
لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة
من العذاب وبالنظر إلى ما تقدم قال عليه السلام من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن
وقال المؤمن إذا مدح في وجهه ربا الإيمان في قلبه وبالنظر إلى ما تأخر سمع النبي عليه السلام
رجلا يثني على آخر فقال قطعت ظهره لو سمع ما أفلح والفاضل يكره الثناء عليه في
وجهه سيما إذا كان من مادح مطر وجليس مغر وممن يعرف قبل أن يعرف وممن
إذا وجد مادحا فدح وإذا وجد مادحا مدح وأما ثناء الإنسان على نفسه فشناعة
وفظاعة فقد قيل لحكيم ما الذي لا يحسن وإن كان حقا فقال مدح الرجل نفسه وقال معوية
لرجل من سيد قومك فقال أنا فقال لو كنته ما قلته فلم يستقبح ما كان من يوسف
حيث قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم لأنه قصد بذلك التنبيه على استقلاله
بما سأل أن يفوض إليه وقد أحسن ابن الرومي حيث اعتذر من مدح نفسه قاصدا إلى
الدلالة على مكانه **شعر** وعزيز على مدحي لنفسي غير أني جشمته للدلالة وهو عيب يكاد
٧٥ يسقط فيه كل حر يريد إظهار آلة **الشكر** الشكر تصور المنعم عليه النعمة وإظهارها وقيل
وهو مقلوب عن الكشر أي الكشف ويضاده الكفر وهو من كفر الشيء أي غطاه وضده

دابة شكور اي مظهر بسمنها اسداء صاحبها اليها وقيل اصله من عين شكرى اي ممتلئة
فالشكر هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه ومن هذا الوجه قيل هو ابلغ من الحمد لان الحمد
لا يقتضي الامتلاء ومن وجه آخر ابلغ من الحمد لان الحمد ذكر الشيء بصفاته المحمودة
والشكر بصفاته ونعمه والشكر ثلثة اضرب شكر بالقلب وهو تصور النعمة وشكر باللسان
وهو الثناء على المنعم وشكر بساير الجوارح وهو مكافاته بقدر استحقاقه وهو ايضا
باعتبار الشاكر والمشكور ثلثة اضرب شكر الانسان لمن فوقه وهو بالخدمة وشكر
لنظيره وهو بالمكافاة وشكر لمن دونه وهو بالثواب وقد وصف الله تعالى وصفه
بالشكر لصالحي عباده وشكر العبد لربه وهو معرفة نعمته وحفظ جوارحه ومنعها
عن استعمالها لا ينبغي ومعناه بالفارسية اساس دارم ضد ابراى انا حارس له على
جوارحي وشكر المنعم على الحمد واجب بالعقل كما هو واجب بالشرع واوجبها شكر البارى تعالى
ثم شكر من جعل سببا لوصول خير اليك على يديه ولهذا قال عم لم يشكر الله من لم يشكر
الناس وقال عم اشكر لمن انعم عليك وانعم على من شكرك فانه لا زوال للنعمة اذا شكرت
ولا ثبات لها اذا كفرت وقال بعض الحكماء كل نعمة يمكن شكرها الا نعمة الله فان شكر نعمته
نعمة منه فيحتاج العبد الى شكر الثاني كشكر الاول وكذلك الحال في الثالث والرابع
وهذا يؤدي الى ما لا يتناهى ولذلك قال موسى عم الهي امرتني بالشكر على نعمك وشكري
اياك نعمة من نعمك ومن هذا اخذ الشاعر فقال شعر اذا كان شكرى نعمة الله نعمة
علي له في مثلها يجب الشكر فكيف بلوغ الشكر الا بفضله وان طالت الايام واتصل العمر
ولهذا قيل غاية شكر الله الاعتراف بالعجز عنه بل قد قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها
والحاصل فكل ما يفعل الله لعبده فهو منه نعمة وان كان قد يعد ذلك بلية ولذلك قال
بعض الصالحين يا من منعه عطاء وبلاؤه نعماء ولاجل صعوبة شكره قال تعالى وقليل
من عبادي الشكور ولم يثن بالشكر على اوليائه الا على اثنين منهم قال في ابراهيم تعالى شاكرا

لانعمه تختص بلفظ الانعم الدالة على ادنى العدد وقال في نوح انه كان عبدا شكورا واعلم
ان الشكر والصبر جماع الايمان كما روي في الخبر وقد روي الصبر نصف الايمان لكن قد قال
بعض المتصوفة الشكر افضل من الصبر فان الصبر حبس النفس على ما له البلاء
والشكر ان لا يلتفت الى البلاء بل يراه من النعماء فمن صبر فقد ترك اظهار الجزع
ومن شكر فقد تجاوز الى اظهار السرور بما جزع له الصابر وايضا الصبر ترك
العمل السيء والشكر اظهار الفعل الحسن وليس من ترك قبيحا كمن فعل حسنا وجميلا
وقابل الصبر بالاجر فعل المستاجر بالاجير تعالى انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب
وابن الاجر وان كثر حتى صار بغير حساب من الجزاء ثم قال في الصبر يوفى فلم يسم فاعله
وقال في الشكر وسنجزي الشاكرين وسيجزي الله الشاكرين فانظر الى هذا اللطف في المقال
وقيل الا نسبها الى الفعال ولم يذكر من انبيائه بالشكر الا اثنين كما تقدم ووصف جماعتهم
بالصبر فقال كل من الصابرين وقال ان في ذلك لايات لكل صبار شكور فجعل الصبر
والشكر منتهى ولان الصبر محمول عليه فهذا والشكر مؤدى تطوعا

الغيبة والنميمة ٧٦

الغيبة ان يذكر الانسان غيره بما فيه من عيب من غير ان احوج الى ذكره وقد عظم
الله تعالى امره تعالى ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه
وقال تعالى هماز مشاء بنميم وقال عم لا يدخل الجنة قتات وروي النميمة تفطر الصائم
وتنقض الوضوء وقيل من وصف عابا الا كان معيبا وقال قتيبة لرجل راه يعاب
لقد تلطخت بما يعافه الكرام ومن حق الانسان ان لا يتعوده فان لها ضراوة وكذلك عير
انسان بما يعافه الكرام يا لغيبة فقال لولا تلطخ لما صبرت عنها ان من اعيان الغيب
ومن عاب عيب فبحثه عن عيوب الناس يحمل الناس على البحث عن عيوبه وكما يجب ان
لا يستجرا بقوله يجب ان يحتنب من سماعها وسماع كل قبيح من الكذب لئلا تعلق وضره
وسنخ بفكرته فوضر كل حكمة عوراء لا يمكن تطهير القلب عنه الا بزمان مديد

وعلاج شديد وسماع القبيح قد يكون سببا لفساد الكبير المحنك دعوائه العالم المتبصر
فضلا عن فساد الحدث الغر والناشي الغمر ولذلك قال تعالى في مدح قوم واذا مروا
باللغو مروا كراما وقد اجاد من قال وسمعك صن عن سماع القبيح كصون اللسان
عن النطق به ولقبح المغيبة والنميمة المسابة قال امير المومنين علي رض ما تساب
اثنان الا غلب الاسفها والاخط الاعلى الا ارتبة الاسفل منهما وقيل اذا سمعت كلمة تؤذيك
فطا من لها حتى تخطاك **الكلام المستقبح** الندا الكلام القبيح ويكون من القوة
الشهوية طورا كالرفث والسخف ويكون من القوة الغضبية طورا فمتى كان معه استعانة
بالقوة المفكرة يكون فيه السباب ومتى كان من مجرد الغضب كان صوتا مجردا
لا يفيد نطقا كما يرى كثيرا ممن فار غضبه وهاج هائجه والرفث فواحش الكلام
في باب النكاح واوصاف النساء وهو قبيح قال بعضهم اني لاستقبح من الرجل ان
يكون وصافا لبطنه وفرجه ومن حق الانسان ان يصون عن ذلك سمعه كما يصون عن
النطق به ثم ولذلك قال تعالى في مدح قوم واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا
ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين والسباب ثلثة الاول قدح في نسب المسبوب والثاني
في نفسه او بدنه لعاهة به وآفة والثالث في شيء فعله او فعل به والسفه التسرع الى القول
القبيح او الفعل القبيح **المزاح والضحك** المزاح اذا كان على الاقتصاد محمود فقد روي
عنه عم اني لامزح ولا اقول الا حقا وروي عنه كلما مزح بنا وقال سعيد بن العاص
لابنه اقتصد في مزاحك فالافراط فيه يذهب بالبهاء ويجري عليك السفهاء وتركه
يغتص المؤانسين ويوحش المخالطين ولكن الاقتصاد فيه صعب جدا لا يكاد يوقف عليه
ولذلك تحرج عنه اكثر الحكماء حتى قيل المزاح مسلبة للبهاء ومقطعة للاخاء وتحل
لا يفتح الا الشر واما الضحك فمن خصائص الانسان وذاك انه يكون من التعجب
التعجب لا يكون الا عن فكر والفكرة تميز الانسان عن البهائم والاقتصاد فيه ومعرفة

ما يحسن منه عسر فهو من المزاح وقيل واياك وكثرة الضحك فانه يميت القلب ويورث النسيان وقال
وكثرة الضحك من الرعونة وحكي عن عيسى عم انه قال ان الله يبغض الضحاك من غير عجب
والمشاء الى غير ارب فاما ايراد المضحكات على سبيل السخف فنهاية القباحة وقد قال
عم ويل للذي يحدث ويكذب ليضحك القوم ويل له ويل له **الحلف** اقبح الكذب اليمين الفاجرة
ففيه مع الكذب الاستهانة بالمقسم به وحق المسلم ان يتحاشى باليمين في الحق فكيف بالباطل
وان يتحقق بتقدير القسم وما يراد به ليعلم ان الاعراض الدنيوية اوضع امرا واحقر قدرا
من ان يتعرض فيها الى الحلف بالله وتقرير ذلك هو ان القائل اذا قال فالله ان لي عليك كذا
اي كون ذلك لي عليك حق كما ان وجود الله تعالى حق وهذا كلام يتحاشى منه من كان في قلبه
حبة من خردل من تعظيم الله تعالى وقد قال تعالى لا تشتروا باياتي ثمنا قليلا وقال ولا تجعلوا
الله عرضة لايمانكم وقال علي رض الحلف ينفق السلعة ويمحق البركة ولم يحلف عيسى من يمين
فاما قول النبي صم من لم يحلف على ماله فلا مال له فانه وان كان بنظر الفقهاء يتصور انه
نسخ في الحلف صادقا فانه بنظر الحكماء حث على ايثار تعظيم الله وتقديمه على ايثار
المال وتعريض بان الذي فانه هو عرض حاضر لا الدين والمروة وحق العاقل اذا
اضطر الى ان يسلك سبيل التعريض فيه دون التصريح وما لا يضطر اليه تركه تعريضا
وتصريحا وان بدر منه سهوا شفعه بالاستثناء كما قال عم من كان حالفا فليقل
ان شاء الله فانه يدفع الحنث ويذهب الخبث وينجز الحاجة ويدفع اللجاجة وقيل
العاقل اذا تكلم اتبع كلامه مثلا والاحمق اذا تكلم اتبع كلامه حلفا وعلامة الكذاب
جوده بيمينه بغير مستحلف وفي اليمين على ما انت واعلم ما دل الكثر في المعاد فيهم
وقال بعض الحكماء اللغو في الحلاف يدل على خلاف وربما فان ذلك لعله الركون الى قولهم
وكما جوز عم الكذب حيث يضطر اليه جوز الحنث في اليمين فقال اذا حلف احدكم على شيء
فراى غيره خيرا منه فليات الذي هو خير وليكفر عن يمينه **الفصل الثالث**

فما يتعلق بالقوى الشهوية **الحياء** الحياء انقباض النفس عن القبائح وهو من خصائص الانسان
واول ما يظهر من قوة الفهم في الصبيان وجعله الله في الانسان ليرتدع عما ينزع اليه الشهوة
من القبائح فلا يكون كالبهيمة وهو مركب من جبن وعفة ولذلك لا يكون المستحيي فاسقا ولا
الفاسق مستحييا لتنافي اجتماع العفة والفسق وقلما يكون الشجاع مستحييا والمستحيي شجاعا
لتنافي اجتماع الحياء والشجاعة ولعزة وجود ذلك يجمع الشعراء بين المدح بالشجاعة والمدح
بالحياء **شعر** يجري الحياء الغض من قسماتهم ۝ في حين يجري من اكفهم دم ۝ وقال آخر
كريم يغض الطرف فضل حيائه ۝ ويدنو واطراف الرماح دواني ۝ ومتى قصد به الانقباض
فمدح للصبيان دون المشايخ ومتى قصد به ترك القبيح فمدح للكل وبالاعتبار الاول
قيل الحياء بالافاضل قبيح ومن هذا الوجه قيل خزي خزيا من الهوان وخزي خزاية في الحياء
مجلاهما من منبع واحد وبالاعتبار الثاني قيل ان الله يستحيي من ذي الشيبة في الاسلام ان
يعذبه اي يترك تعذيبه واما الخجل فحيرة النفس لفرط الحياء ويحمد في النساء والصبيان
ويذم باتفاق من الرجال والوقاحة مذمومة بكل لسان اذ هي انسلاخ من الانسانية
وحقيقتها لجاج النفس في تعاطي القبيح واشتقاقه من حافر وقاح اي صلب ولهذا المعنى
قال الشاعر يا ليت لي من جلد وجهك رقعة ۝ فاقد منها حافرا للاشهب ۝ وما احسن قول
الشاعر صلابة الوجه لم تغلب على احد ۝ الا تكمل فيه الشر فاجتمعا ۝ فاما مداواة اكتساب
الحياء فحق الانسان اذا هم بقبيح ان يتصور اجل من عنده نفسه حتى كانه يراه فالانسان
يستحيي ممن يكبر في نفسه ولذلك لا يستحيي من الحيوان ولا من الاطفال ولا من الذين
لا يميزون ويستحيي من العالم اكثر مما يستحيي من الجاهل ومن الجماعة اكثر مما في الواحد والذي
يستحيي منهم الانسان ثلاثة البشر وهم اكثر من يستحيي منه ثم نفسه ثم الله عز وجل
ومن استحيى من الناس ولم يستحي من نفسه فنفسه عنده اخس من غيره ومن استحيى
منهما ولم يستحي من الله فلعدم معرفته بالله فان الانسان يستحيي ممن يعظمه

ويعلم انه يراه او يسمع نجواه فيبكته ومن لا يعرف الله فكيف يستعظمه وكيف يعلم انه مطلع عليه
وقول النبي صلى الله عليه وسلم استحيوا من الله حق الحياء في ضمنه حث لمعرفته وقال تعالى الم يعلم بان الله يرى
تنبيها ان العبد اذا علم ان الله يراه استحيا من ارتكاب الذنب وسئل الجنيد عما يتولد منه
الحياء فقال رؤية العبد الآء الله ورؤيته تقصيره في شكره ان قيل كيف قال النبي عليه السلام
من لا حياء له فلا ايمان له قيل الحياء اول ما يظهر في الانسان من امارات العقل والايمان آخر
مرتبة العقل ومحال حصول آخر مرتبة العقل لمن لم يحصل له مرتبة الاولى فالواجب اذا
اذا كان من لا حياء له فلا ايمان له وقال عليه السلام الحياء شعبة من الايمان وقيل الايمان
عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء **كبر الهمة** اما كبر الهمة فيختص بالانسان
فاما الحيوانات فكل جنس يتحرى الفعل بقدر ما في طبعه وهو خالي من القبح وصغر الهمة
فالقبيح تاهل الانسان لما لا يستحقه وهو البذخ وصغر الهمة تركه لما يستحقه وهو الدناءة
فكلاهما مذمومان لكن البذخ جاهل احمق والصغير الهمة جاهل غير احمق وليس لكبر الهمة
افراط مذموم في الحقيقة وانما الافراط يدخل في كل فعل يتصور بعض الناس تصوره بعلو
الهمة له وليس كذلك واعلم انه قد يقال فلان كبير الهمة وفلان صغير الهمة اذا كان اهتمامه بقنية
اكثر او اشرف مما يطلبه الآخر والكبير الهمة على الاطلاق هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية
قدر وسعه فلا يصير عبد عاريه بطنه وفرجه بل يتخصص بمكارم الشريعة فيصير
من خلفاء الله واوليائه في الدنيا ومن مجاوريه في الآخرة والصغير الهمة من كان
على الضد من ذلك وقال اعرابي فلان عظم صغير الدنيا في عينه وكان خارجا من سلطان
بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر اذا وجد وكان خارجا من سلطان فرجه ولا يستخف
له رايا ولا بدنا وحق الانسان ان يتلطف عن ذلك فانه وان كان بعنصره حيوانا فبعقله
وفكره ملك فاذا ضيع نفسه صار شرا من البهيمة وذلك هو الخسران المبين وقيل
من عظمت همته لم يرض بقنية مستردة وحياة مستعارة فان امكنك ان تقتني قنية مؤبدة

وحيوة مخلدة فافعل فلا اعتداد بالفناء والكبير الهمة على الاطلاق من يتحرى الفضائل لا الجاه ولا الثروة ولا اللذة ولا الاستشعار نحوه واستعلاء على البرية بل يتحرى مصالح العباد شاكرا نعم الله ومتوضعا به مرضاته غير مكترث بثقل مصاحبيه فانه اذا عظم المطلوب قل المساعد وطرق العلا قليلة الايناس الوفاء والغدر الوفاء اخو الصدق والغدر اخو الكذب والجور وذلك ان الوفاء صدق اللسان والفعل معا والغدر كذب بهما فان فيه مع الكذب نقض العهد والوفاء يختص بالانسان من فقد فيه فقد انسلخ من الانسانية كالغدرين وجعل الله العهد من الايمان وصيره قواما لامور الناس والناس مضطرون الى التعاون ولا يتم تعاونهم الا بمراعاة العهد والوفاء ولولا ذلك لتنافرت القلوب وارتفع المعاش ولذلك عظم الله امره تعالى واوفوا بعهدي اوف بعهدكم وقال واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم وقيل في قوله وثيابك فطهر اي نزه نفسك من الغدر وقال والموفون بعهدهم اذا عاهدوا وقال والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون وعظم حال السموأل فيما التزم من الوفاء بدرع امرئ القيس ولقلة وجود ذلك في الناس قال الله تعالى وما وجدنا لاكثرهم من عهد وضرب به المثل في العدم فقيل هو اعز من الوفاء قال الشاعر شعر ابى الناس الا دينهم الفعال اذا جربوا وقبح الكذب المشاورة المشاورة اشتقاقها من شرت الدابة اذا استخرجت جريها وهي استنباط المرء الراي من غيره فيما يعرض من مشكلات الامور ويكون ذلك في الامور الجزئية التي يتردد المرء فيها من فعلها وتركها ونعم العدة هي قال امير المؤمنين على رضى المشاورة حصن من الندامة وامن من الملامة وقيل الاحمق من قطعه العجب عن الاستشارة والاستبداد عن الاستخارة والراي الواحد كالسحيل والرايان كالخيطين والثلاثة امرار لا يتنقض وكفاك مدحا قوله تعالى وشاورهم في الامر وقد استحسن الحكماء قول بشار شعر اذا بلغ الراي المشورة فاستعن بحزم نصيح او نصيحة

حازم ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فريش الخوافي تابع للقوادم لكن اعتبار من يكون ان يعتمد مشورته صعب جدا فانه يحتاج ان يكون صديقا امينا مجربا حازما ناصحا رابط الجاش غير معجب بنفسه ولا متلون في رايه ولا كاذب في مقاله فمن كذب لسانه كذب رايه ويجب ان يكون فارغ البال في وقت ما يستشار وقد احسن بشار حيث قال شعر وما كل ذي لب بموتيك نصحه ولا كل موت نصحه بلبيب ولكن اذا ما استجمعا عند واحد فحق له من طاعة بنصيب النصح اصله من نصحت الثوب اذا خطته وهو اخلاص المحبة لغيره في اظهار ما فيه صلاحه وهو دون المحبة المختصة بالفضيلة دون المحبة النفع واللذة وقد عظم النبي عم امره فقال الدين النصيحة فقيل لمن يا رسول الله فقال لله ورسوله ولائمة المسلمين وعامتهم فبين عم ان النصح واجب لعامة الناس وذلك بان يتحرى مصلحتهم في جميع امورهم بقدر وسعه فاول النصح ان ينصح الانسان نفسه فمن غشها فقلما ما ينصح غيره وحق من استنصح ان يبذل غاية النصح وان كان ذلك في شئ يضره ويتحرى فيه قوله تعالى يا ايها الذين امنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم وقال تعالى واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وقال ابن عباس اسمعها لا يزال الرجل يزداد في صحة رايه ما نصح لمستشيره فاذا غشه سلبه الله صحة رايه ولا يلتفت الى من قال اذا نصحت الرجل فلم يقبل منك فتقرب الى الله بغشه فذلك قول القاء الشيطان على لسانه اللهم الا ان يريد بغشه السكوت عنه فقد قيل كثرة النصح يورث الظنة ومعرفة الناصح من الغاش المتنصح صعب جدا فالانسان يمكنه بصعوبة الاطلاع على سره اذ هو يبدي خلاف ما يخفي وليس كالحيوانات التي يمكن ان نطلع على طبائعها كتمان السر السر ضربان احدهما ما يلقى الى الانسان من حديث يستكتم وذلك اما لفظا كقولك لغيرك اكتم ما اقول لك واما حالا وهو ان يتحرى القائل حال انفراده فيما يورده او يخفض صوته او يخفيه على مجالسه ولهذا قيل اذا حدثك انسان بحديث فالتفت فهو امانة والثاني ان يكون حديثا

في نفسك مما يستقبح اشاعته او شيئا يريد فعله والى الاول من ذلك اشار بقوله عم من اتى
منكم من هذه القاذورات فليستتر بستر الله والى الثاني اشار من قال من وهي الامر
اعلانه قبل احكامه وكتمان النوع الاول من الوفاء واخص بعامة الناس والثاني من
الحزم والاحتياط وهو اخص بالملوك واصحاب السياسات واذاعة السر من قلة الصبر
وضيق الصدر ويوصف به ضعفة الرجال والنساء والصبيان فالسبب في انه يصعب
كتمان السر هو ان للانسان قوتين اخذة ومعطية وكلتاهما يتشوق الى الفعل المختص به
ولولا ان الله تع وكل المعطية باظهار ما عندها لما اتتك بالاخبار من لم تزود فصارت
هذه القوة يتشوق الى فعلها الخاص بها فعلى الانسان ان يمسكها ولا يطلقها الا حيث
ما يجب اطلاقها ولا يخدعنك عن سرك قول من قال واكتم السر فيه ضربة العنق وقول
من يستذلك ويكاتم الاسرار حتى كانه ليصونها من ان يمر بخاطر فذلك قول من يستقر
عما في قلبك فاذا استفرغ ما عندك لم يرع فيه حقك فقد قيل الصبر على القبض على
الجمر ايسر من الصبر على كتمان السر وما اصدق من انبأ عن حقيقة حاله حيث قال صديق
اريد ان افشي اليك سرا لتحفظه علي فقال لا اريد ان اري قلبي بنجواك واجعل صدري
خزانة شكواك فيقلقني ما اقلقك ويؤرقني ما ارقك فتبيت بافشائه مستريحا و
يبيت قلبي بحره جريحا وقيل اكثر ما يستنزل الانسان عن سره في ثلثة مواضع عند
الاضطجاع على فراشه وعند خلوته بعرسه وفي حال سكره ومن حق من يسار غيره
ان يجتنب المحافل لامرين احدهما ان يساء به الظن فهذا يقول فلان يغتابني وذا يسعى بي
ودابهم والثاني انه ربما يتتبع بالفحص فيطلع على سرها ولذلك قال النبي عم اذا كنتم ثلثة
فلا يتناجى اثنان دون الثالث **التواضع والكبر** التواضع اشتقاقه من الضعة وهو رضا
الانسان بمنزلة دون ما يستحقه فضله ومنزلته وفضيلته لا تكاد تظهر في افناء الناس
لانحطاط درجتهم وانما ذلك يتبين في الملوك واجلاء الناس وعلمائهم وهو من باب التفضل

لانه ترك بعض حقه وهو بين الكبر والضعة والضعة وضع الانسان نفسه مكانا يزري به
بتضييع حقه والكبر رفع نفسه فوق قدره والفرق بين التواضع والخشوع ان التواضع يقال
بين رفيع ووضيع وايضا فالتواضع يعتبر بالاخلاق والافعال الظاهرة والباطنة
والخشوع يقال باعتبار افعال الجوارح ولذلك قيل اذا تواضع القلب خشعت الجوارح وقال
خاشعة ابصارهم وقال تع وخشعت الاصوات للرحمن وقد عظم النبي عم التواضع فقال
طوبى لمن تواضع في غير منقصة وذل في نفسه من غير مسكنة وقيل لبزرجمهر هل تعرف
نعمة لا يحسد صاحبها وبلاء لا يرحم صاحبه عليه فقال نعم اما النعمة فالتواضع واما
البلاء فالكبر وقال بعض الحكماء وجدنا التواضع مع الجهل والبخل احمد عند الحكماء من
الكبر مع الادب والسخاء فانبل بحسنة غطت على سيئتين واقبح بسيئة غطت على حسنتين
والكبر ظن الانسان بنفسه انه اكبر من غيره والتكبر اظهاره لذلك وهذه صفة لا يستحقها الا
الله تع ومن ادعاها من المخلوقين فهو فيها كاذب ولذلك صار مدحا في البارئ وذما
في البشر وانما شرف المخلوق في اظهار العبودية كما قال تع لن يستنكف المسيح ان يكون
عبدا لله ولا الملائكة المقربون فنبها ان ذلك لهم رفعة لا ضعة والمتكبر والفرح كلاهما
جاهلان لكن الفرح غبي والمتكبر احمق وشتان ما بينهما فالغبي قد يتدارك والاحمق
لا سبيل الى تاديبه ولان الفرح قد سره ماله والمتكبر ادعى ما ليس له وشتان ما بين
المنزلتين ولان الكبر يتولد من الاعجاب والاعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن والجهل راس
الانسلاخ من الانسانية ومن الكبر الامتناع من قبول الحق ولذلك عظم الله امره فقال
انه لا يحب المستكبرين وقال اليس في جهنم مثوى للمتكبرين وقال اليوم تجزون عذاب الهون
بما كنتم تستكبرون في الارض بغير الحق وقال كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار
وقال النبي عم يقول الله تع العظمة ازاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدا منهما قذفته
في نار جهنم ونبه تع على قبح فعله احسن تنبيه فقال ولا تمش في الارض مرحا انك

لن تخرق الارض ولن تبلغ طولا واقبح كبر بين الناس ما كان معه بخل ولذلك قال عم خصلتان
لا تجتمعان في مؤمن البخل والكبر واستحسن قول الشاعر شعر جمعت امرين ضاع الحزم بينهما
تيه الملوك وافعال المماليك ومن يتكبر لرياسة نالها دل على دناءة عنصره ومن تفكر
في تركيب ذاته فعرف مبداه ومنتهاه واوساطه عرف نفسه ورفض كبره وقد نبه
الله تعالى على ذلك احسن تنبيه بقوله فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج
من بين الصلب والترائب وقوله تعالى قتل الانسان ما اكفره من اي شيء خلقه من نطفة
خلقه فقدره وقوله انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه وقوله اولم ير
الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين والى هذا المعنى نظر مطرف بن
عبد الله بن الشخير لما قال ليزيد بن المهلب اولك نطفة مذرة واخرك جيفة قذرة وانت
تحمل فيما بين ذلك العذرة واخذ ذلك الشاعر فقال كيف يزهو من رجيعه ابد الدهر
ضجيعه ياقريب العهد بالمخرج لم لا تتواضع من كان تكبره لقنيته فليعلم ان ذلك ظل زائل
وعارية مستردة والاستطالة اظهار الطول فمن اظهر ذلك من غير طول فمنسلخ عن
الانسانية ومن اظهر ذلك مع الطول فقد ضيع طوله والصلف يقال اعتبارا بالمتكلف في عنقه
والصعر لميل في صفحة ولذلك استعمل في ذلك لي الراس نحو قوله تعالى لووا رؤسهم والعناد
استقصاء في النفس بالترفع عن الانقياد والواجب والخيلاء ان يظن بنفسه ما ليس فيها
من قولهم خلت ولتصور هذا المعنى قال حكيم اعجاب المرء بنفسه ان يظن بها ما ليس فيها
مع قوة فيظهر نقصها والزهو الاستخفاف من الفرح بنفسه واما العزة فالترفع بنفسه
عما يلحقها غضاضة واصلها من العزاز وهي الارض الصلبة والتعزز حصوله في عزاز
لا يلحقه فيه غضاضة كالمتطلف في كونه طلب من الارض لا يلحقه فيه مذلة والعزة منزلة
شريفة وهي نتيجة معرفة الانسان بقدر نفسه واكرامها عن الضراعة للاعراض الدنيوية
كما ان الكبر نتيجة جهل الانسان بقدر نفسه وانزالها فوق منزلتها وكثيرا ما يتصور احدهما

تصور الآخر كتصور التواضع والتضرع والتذلل بصورة واحدة وتصور الاسراف بصورة
الجود والبخل بصورة الحزم ولهذا قال الحسن لمن قال له ما اعظمك في نفسك فقال لست
بعظيم ولكني عزيز وقد قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال النبي عم لا ينبغي
للمؤمن ان يذل نفسه وانما قلنا قالوا التكبر على الاغنياء تواضع تنبيها ان هذا التكبر
في الحقيقة عز النفس ولاجل ان هذا التكبر غير مذموم قال تعالى ويتكبرون في الارض
بغير الحق فشرط غير الحق وقال ابن مسعود من خضع لغني ووضع نفسه عنده طمعا فيه
ذهب ثلثا مروته وشطر دينه **العجب** هو المباهاة بالاشياء الخارجة عن الانسان
وذلك نهاية الحمق لمن نظر بعين عقله واحسر عنه قناع جهله فاعراض الدنيا عارية
مستردة لا يؤمن في كل ساعة ان يسترجع والمباهي بها مباه بغير ثراه ومتبجح
بما في بطون سواه كالعاجز يخرج زينتها بل هو دون من ذلك وقد قال بعض الحكماء للمثري
المفتخر بثروته ان افتخرت بفرسك فالحسن والفراهة له دونك وان افتخرت بثيابك و
الاتك فالجمال لها دونك وان افتخرت بابائك فالفخر فيهم لا فيك ولو تكلمت هذه الاشياء
لقالت هذه محاسننا فما لك من الحسن وايضا فالاعراض الدنيوية سحابة صيف عن
قليل تقشع وظل زائل عن قريب يضمحل كما قال الشاعر انما الدنيا كرؤيا فرحت
من رآها ساعة ثم انقضت بل كما قال انما مثل الحيوة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط
به نبات الارض الاية فان افتخرت فافتخر بمعنى فيك غير خارج عنك فاذا اعجبك من
الدنيا شيء فاذكر فناءك وبقاءه او بقاءك وزواله او فناءكما جميعا فاذا راقك ما هو
لك فانظر الى قرب خروجه من يدك وبعد رجوعه اليك وطول حسابك عليه ان كنت تؤمن
بالله واليوم الآخر وقد ذم تعالى الفخور فقال والله لا يحب كل مختال فخور **العجب** ظن الانسان
في نفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها ولهذا قال اعرابي لرجل رآه معجبا بنفسه يسرني
ان اكون عند الناس مثلك في نفسك واكون في نفسي مثلك عند الناس فتمنى حقيقة ما يقدر

المخاطب ورأى أن ذلك إنما تم حسنه متى هو عرف عيوب نفسه وقد قيل للحسن من شر الناس فقال من يرى أنه أفضلهم وقال بعضهم الكاذب في نهاية البعد من الفضل والمرائي أسوأ حالا منه لأنه يكذب بفعله وقوله والمعجب أسوأ حالا منهما فإنهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاءه والمعجب عمي عن مساوي نفسه فيراها محاسن ويبديها قال ولعل المرائي والكاذب قد ينفع بهما كملاح خاف ركابه الغرق من مكان في البحر فبشرهم بمجاوزته قبل أن يجاوزوه لئلا يضطربوا خوف الغرق فيؤدي ذلك بهم إلى العطب وقد يحمد رياء الرئيس إذا قصد أن يقتدى به في فعل الخير والمعجب لا حظ له في ذلك بوجه وذلك أنك إذا وعظت المرائي والكاذب فنفعهما تصدقك وتبكتهما لمعرفتهما بنقصهما والمعجب لجهله بنقصها يظنك في وعظه ملغيا فلا ينتفع بمقالك وإياه قصد تعالى بقوله أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ثم قال فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ونبه أنهم لا يعقلون لإعجابهم وقال عليه السلام ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه وقال إبليس إذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لا أطالبه بغيرها إذا أعجب بنفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه وكما أن المعجب بفرسه وإن كان فرسه ما لا يروم أن يستبدل بغيره كذا المعجب بنفسه لا يريد بحاله وإن كان أرذل به بدلا وأصل الإعجاب من حب الإنسان نفسه وقد قال عليه السلام حبك الشيء يعمي ويصم ومن عمي وصم تعذر عليه رؤية عيوبه فحق علينا أن نحمل على أنفسنا عيوبنا يعرفنا فنستحي ما قال أمير المؤمنين عمر رضه رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي ويجب للإنسان إذا رأى من غيره سيئة أن يرجع إلى نفسه فإن رأى فيها ذلك يزيلها ولا يغفل عنها ممن جهل نفسه فقدر رأى غيره منه والتيه قريب من العجب لكن المعجب يصدق نفسه فيما يظن بها وهما والتيه يصدقها قطعا كأنه متحير في تيهه

أنواع اللذات ومراتبها اللذة إدراك المشتهى والشهوة انبعاث النفس لنيل ما تتشوقه وهي بحسب القوى الثلاث وبحسب المقتنيات الثلاث لذة عقلية وهي التي يختص الإنسان بها كلذة العلم والحكمة ولذة بدنية يشارك فيها جميع الحيوان والإنسان كلذة المآكل والمشارب والمنكح ولذة مشتركة بين بعض الحيوان والإنسان كلذة الرياسة والغلبة وأشرفها وأقلها وجودا اللذة العقلية فشرفها أنها لا تمل ولا تستبدل لكن لا يعرفها إلا من يختص بها كالحكمة لا يستلذها إلا الحكيم وأدون اللذات منزلة وأكثرها وجودا اللذة البدنية فكل حيوان يتشوقها إليها تمل تارة وتبذل تارة وهي من وجه مداواة من ألم ومن وجه هي ألم وعلى هذا قال الحسن في وصف الإنسان صريع جوع وقتيل شبع وجميع اللذات ينقسم عشرة أقسام مأكل ومشرب ومنكح وملبس ومشم ومسمع ومبصر ومركب وخادم ومرفق من الآلات وما يشبهها وقد جعل ذلك سبعة ولم يدخل الخادم والمرفق والمركب وما يجري مجراها داخلا في جملة المبصرات وعلى ذلك ما روي عن أمير المؤمنين علي رض حيث قال لعمار بن ياسر وقد رآه يتنفس فقال يا عمار على ماذا تنفسك إن كان على الآخرة فقد ربحت تجارتك وإن كان على الدنيا فقد خسرت صفقتك فإني وجدت لذاتها سبعا المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملبوسات والمشمومات والمسموعات والمبصرات فأما المأكولات فأفضلها العسل وهو صنعة ذباب وأما المشروبات فأفضلها الماء وهو مباح أهون موجود وأعز مفقود وأما المنكوحات فمبال في مبال وحسبك أن المرأة تزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها وأما الملبوسات فأفضلها الديباج وهو نسج دودة وأما المشمومات فأفضلها المسك وهو دم ظبية وأما المسموعات فريح هابة في الهواء وأما المبصرات فخيالات صائرة إلى الفناء وقد ذكر الله تعالى أصل ذلك في قوله زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والمشار إليه بحرث الدنيا إلى هذه الأشياء السبعة على ما ذكره علي رض والعشرة على ما ذكره غيره وكلا القولين في التحصيل واحد والمراد بالنساء اقتناؤهن والاستكثار

منهن وبالبنين الذكر من الاولاد والحفدة والخدم وبالانعام الازواج الثمانية
وبالخيل المسومة السائمة منها والمستعدة واعلم ان التي هي من ضرورة الانسان
من هذه اللذات ولا قوام له في هذه الدنيا الا بها ما هو مشترك بينه وبين جنسه
من الحيوان من المأكل والمشرب ويجمعهما اسم الغذاء والمنكح فبالغذاء بقاء الاشخاص
وبالنكاح بقاء الانواع ولذلك صارت الحاجة اليهما ضرورية وصار تناولهما لا بد منه
وسائر اللذات مخصوصة بالانسان وليس بضروري له وتناوله بعكسه وباقي الملوك
من هذه الملاذ سوى انس السماع لكونه من وجه لذة روحانية والثناء لكونه دالا
على الهمة الرفيعة ومتى كانت الشهوة متناهية عقلية كانت تامة بدنية يقال لها الحرص
فالحرص قد يكون محمودا ولذلك قال تعالى حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ومتى كانت
الشهوة للقنيات قيل له الشره سواء كان مالا او طعاما او نكاحا ومتى كانت
للطعام قيل لها النهم واذا كانت للنكاح قيل لها الشبق وبينهما اعني الشبق
والنهم والشره مذمومة وما روي من قوله عم منهومان لا يشبعان منهوم بالمال
ومنهوم بالعلم فالنهم في العلم استعارة وهو ان يحمل على نفسه ما يقصر قواها عنه
فينبت وقد قال عم ان المنبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى **فيما يحسن تناوله من المطعم**
ويقبح منه الغذاء ضربان احدهما ما لا يستغنى عنه في قوام البدن كالطعام الذي
يتغذى والماء الذي به يروى والانسان اذا تناول من ذلك مقدارا ما لا يمكن التبلغ
باقل منه على ما يجب وكما يجب فغير مذموم بل مشكور ومأجور وعلى هذا ما روي عند اكل الصالحين
تنزل الرحمة وصفة ان يتناوله تناول مضطر عالم بغذاره حاله ويمكن يرى اخاله في
كدخول المستراح ويتحقق نسبة الانسان الى الثمار والفواكه الى الروث فلو نطق الشجر لقال لكل آكل
ياكل فضالتي كما ياكل الجعل فضالتك والحريم اذا استطاب لفاظة الانسان فما هو الا كالمستطاب ما بها
لفاظ الشجر وبهذا يعلم ان شرف المطعم والمشرب بالاضافة لا بالاطلاق فالوثبة الانسان عن مثلها كذلك
الآثار واخلى البصيرة واستعمل الاعتبار تجد صدق ما قلت ومن تناول من الطعام
اكثر من قدر كفايته ذم طبا وشرعا اما طبا فان الداء اكثر ما تراه يكون من الطعام او الشراب
وقد قال النبي عم البطنة اصل الداء والحمية اصل الدواء وعودوا كل بدن ما اعتاد وقال
ابن زكريا المتطبب ما تركه عم في الطب شيئا الا اتى به في هذه الكلمات الثلث واما شرعا فقد
عم ما من وعاء ابغض الى الله تعالى من بطن ملئ من حلال وذلك ان امتلاء البطن مقو
للشهوة وقوة الشهوة داعية للهوى والهوى اعظم جند الشيطان ومن اشبع هواه
فانتشر في بدنه حل كل عضو منه جزء بقدر وسعه فكثر جنود الشيطان والشيطان
اذا تسلط على الانسان سباه عن ربه وصرفه عن بابه وقيل لحكيم ما بالك مع كبرك
لا تتعهد بدنك وقد انهكه فقال لانه سريع المرح فاحش الاشر فاخاف ان يجمح بي فيتورط
ولان احمله على الشدائد احب من ان يحملني على الفواحش واقرب الناس من المطعم ما تستغني
عنه ولو تو همنا مفتقدا لم يخل بافتقاد البدن فاعظمها ضرر المسكر فتعود ليس
بضروري تناوله تسهيل لطريق الشيطان الى تهييج القوة الشهوية واثارة سلطان الهوى
كما قال تعالى انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم
عن ذكر الله وعن الصلوة وحسبه قبل حب الشراب واللهو ليسكن العفة والحكمة قال وقيل
فقد قال الله تعالى قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق فلم
يخص من الحلال قدرا دون قدر وجنسا دون جنس قيل الطيب التام الطيب هو الذي
جمع اللذة والنفع والتفضيل وذلك هو قدر المتبلغ به على ما يجب كما يجب الا ترى كيف
ذم من لم يكن ذلك قصده فقال ذرهم ياكلوا ويتمتعوا ويلههم الامل فسوف يعلمون
وقال الذين كفروا يتمتعون وياكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم ومن الدلالة
على خسة كثرة الاكل ادعاء عامة الناس الاستغناء بالقليل وقلة وجود المعاير
بكثرة الاكل وقيل من همته ما يدخل في بطنه فقيمته ما يخرج من بطنه وقد استحق فعل العاقل

فانك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم اجمعا وقال عم حسب ابن آدم
لقيمات يقمن صلبه وان كان لا بد فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس وقال عم
المومن ياكل في معا واحد والمنافق ياكل في سبعة امعاء فنبه في الحديث انه لا يستحب
للانسان الا الاكل في سبع بطنه وهو ما ذكره من اللقيمات وذلك دون عشره لان الجمع
بالالف والتاء دون العشرة ثم رخص لمن غلب عليه النهم ان يبلغ الى ثلث بطنه فحصل
ذلك انه اكل المومن في اليوم ينبغي ان يكون سبع بطنه او ثلث بطنه

ما يحسن من المنكح وما يقبح منه

قد تقدم ان النكاح ضروري في حفظ النسل وبقاء النوع كما ان الغذاء ضروري
في حفظ الشخص ولذلك قال عم تناكحوا تكثروا وقال خير النساء الودود الولود
وشر النساء العقيم وقال تزوجوا الودود الولود فاني مكاثر بكم الانبياء وقال سوداء
ولود خير من حسناء عقيم ولقصد النسل حظر اتيان المراة في محاشها وعلى هذا نبه
قوله تع نساؤكم حرث لكم فاتوا حرثكم انى شئتم فنبه انه لا يجوز اتيانها الا حيث الحرث
وكره العزل تاكيدا للمقصود من النكاح وعلى ذلك دل قوله وابتغوا ما كتب الله لكم
وتحري النكاح على ضربين احدهما على الوجه الذي هو سنة الشرع وذلك اما محمود وهو
ان يتعاطاه قاصدا به النسل او تذللا على ما يحب او قصدا وسكنا للنفس بالباءة اذا
اجتمع في مقره تحركه محركة وقبيح في حجه تعظم بحسبه الضرر ويدعو صاحبه الى ما
هو في الشرع محرم واما مكروه طبا وان لم يكن مكروها شرعا وذلك ان يتعاطاه
المرء فضلا على تقدم ذكره فانه يضعف البصر ويسقط القوى ويوسع اوعية المني
ويجلب الهما ما كثرها ويزيد شهوة واعظم فايدة فيه ان يلحق صاحبها افق البهائم
من التيوس والثيران وغيرها مما يوصف بالسفاد. الضرب الثاني هو ان يكون على غير
الوجه المشروع وذلك ضربان احدهما تعاطيه في المحرث ولكن لا على الوجه الذي
يحب وكما يجب وقد عظم الله امره فقرنه مرة بالشرك فقال الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة

والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك ومرة قرنه بالشرك وقتل النفس فقال والذين لا يدعون
مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون وسمى ذلك سفاحا
من حيث ان المجتمعين عليه لا غرض لهما سوى سفح الماء للشهوة كمن ضيع ماء في حرث
غيره والثاني تعاطيه في غير المحرث كاللواطة وهي اعظم من الزنا لان الزنا وضع
البذر في المحرث على غير الوجه المامور فهو كمن يزرع في ارض غيره او على غير الوجه
الذي يجوز ان يزرع فيها وفي اللواط مع ذلك تضييع البذر فمتعاطيها كمن قال تع
ويهلك الحرث والنسل ولهذا وصف قوم لوط بالاسراف فقال انكم لتاتون الرجال
شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون واما العشق الشهوي فمحمود وجهل بما وضع
لاجله الجماع الجاوز لحد البهائم في عدم ملكة النفس وذم الهوى لان المعشق لم يرض
بارادة لذة الباءة التي من اسمج الشهوات حتى اراده من موضع واحد فازداد بذلك
عبودية على عبودية وذلة على ذلة والبهيمة احسن حالا لانها اذا اسقطت الاذى
عن نفسها بالسفاد سكنت فصارت الى الراحة وهو لم يرض بذلك حتى استعان بالعقل
في صدمة الشهوة واستجلابها وانما اعطاه الله العقل ليقمع به الشهوة القبيحة لا ليجعله خادما
لها وساعيا في حصتها وتعاطي العشق حال كل جاهل فارغ سيما اذا نظر في اخبار العشاق
وجالسهم وربما يودي بالعاشق الحال الى الدق والجنون بل الى الموت قال ابن عمر
لو فكر العاشق في منتهى معشوقه اقصر عن حبه ومن اثار شهوته فهو كمن يثير بيده عادية
وسباعا ضارية ثم يلتمس دفاعها والخلاص منها وكفى بما يحتاج من ناعق الطبيعة
عن ابا ربك بالفكر والروية فمن اعان الطبيعة على ذلك فهو كما قيل كلما انبت الزمان قناة
ركب المرء في القناة سنانا وقال حكيم لتلميذه له هوى جارية فقال يسرك ان الابدان تفارقها
يوما فقال لا قال فاعمل بتلك المفارقة المتحققة في ذلك اليوم في يومك هذا فازح ما بينهما
من الخوف المنتظر وصعوبة معالجة ذلك بعد الاستحكام والتمام الالف اليه وقيل

لبعض الحكماء ما العشق فقال جنون لا يؤجر صاحبه عليه وسئل آخر عنه فقال مرض
نفس فارغة لا همة لها وقال آخر هو اختيار صادف نفسا فارغة فاشاروا كلهم
الى معنى واحد العفة لا تتعلق الا بالقوة الشهوية ولا يتعلق من القوى الشهوية
الا بالملاذ الحيوانية وهي المتعلقة بالفارتين وهما البطن والفرج دون الالوان
الحسنة والالحان الطيبة والاشكال المنتظمة فان قيل فاستطابة الرائحة قد تكون للبهائم
الا يرى ان الذئب يستطيب ريح الغنم والكلب يستطيب ريح الارنب قيل ان استطابتهما
لذلك استطابة للاكل والذي قلنا من الرائحة هو ما يستطاب لذاته لا لغيره وما هو
لاجل احد الفارتين فحكمه حكمهما كاستطابة الانسان ريح السكباج فثبت ان العفة هي ضبط
النفس عن الملاذ الحيوانية وهي حالة متوسطة من افراط هو الشره وتفريط هو جمود
الشهوة وهو اس الفضائل من القناعة والزهد وعلى النفس والسخاء وعدمها يعفي على
على جميع المحاسن ويعري عن لبوس المحامد ومن اتسم بسمة العفة فاحرى العفة له ان يحوي ما سواها
من الفضائل وسهلت له سبل الوصول الى المحاسن واتمها يتعلق بضبط القلب عن
تطلع الشهوات البدنية وعن اعتقاد ما يكون حاملا للتعدي والعدوان وتمامها يتعلق
بحفظ الجوارح فمن عدم عفة القلب يكون منه التمني وسوء الظن اللذان هما اس كل
رذيلة لان من تمنى ما في يد غيره حسده واذا حسده عاداه واذا عاداه نازعه واذا نازعه
ربما قتله ومن اساء الظن عادى وبغى وتعدى ولهذا نهى الله عنهما جميعا فقال
ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض وقال يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن
ان بعض الظن اثم فامر فيهما بقطع شجرتين يتفرع عنهما جل الرذائل والمآثم ولا يكون
الانسان تام العفة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر فمن عدمها في اللسان السخرية
والتجسس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالالقاب ومن عدمها في البصر مد العين الى المحارم
وزينة الحيوة الدنيا المولدة للشهوات الردية ومن عدمها في السمع الاصغاء الى المسموعات

القبيحة وعماد عفة الجوارح كلها ان لا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص به كل واحد منها الا
ما يسوغ فيه العقل والشرع دون الشهوة والهوى واعلم انه لا يكون المتعفف عفيفا الا بشرط
وهو ان لا يكون تعففه عن الشيء انتظارا لاكثر منه او لانه لا يوافقه او لجمود شهوته او لاستشعار
خوف من عاقبته او لانه ممنوع من تناوله او لانه غير عارف به لقصوره فان ذلك كله ليس بعفة
بل انما هو اصطبار او تطبب او مرض او حزم او عجز او جهل وترك ضبط النفس عن الشهوة
اذم من تركها عن الغضب فالشهوة مغالبة مخادعة والغضب مغالب والمتحرز عن قتال المخاتل
المخادع اسوأ حالا من المتحرز عن قتال المغالب ولهذا قيل عبد الشهوة اذل من عبد الرق
وايضا فالشره قد يجعل عيبه هو شبيه بمدينة لهم سنة رديئة واهلها يدعون صحتها
ومن يضبط نفسها لا بكا ويجعل عيبه فهو شبيه بمدينة لهم سنة رديئة يتعاطونها وهم يعرفون
قبحها وليس من يتعاطى قبيحا يعرفه كمن يتعاطاه وهو يظنه حسنا

القناعة والزهد

القناعة الرضاء بما دون الكفاية والزهد الاقتصار على الزهيد اي القليل وهما متقاربان
لكن القناعة يقال اعتبارا برضى النفس والزهد يقال اعتبارا بالمتناول لحظ النفس وكل
زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهد لا زهد ولذلك قال بعض المتصوفة القناعة اول الزهد
تنبيها ان الانسان يحتاج اولا الى قدع نفسه والتخصص بالقناعة ليسهل عليه تعاطي
الزهد فالقناعة هي الغنى في الحقيقة والناس كلهم فقراء من وجهين احدهما لافتقارهم
الى الله تعالى كما قال الله تعالى يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والثاني لكثرة حاجاتهم فاغناهم
اقلهم حاجة ومن سد مفاقر المفتقرات فما في اسداله المطامع فانه يمكن ان يرقع الخرق بالخرق
ويسد الفقر بالفقر ومن سدها بالاستغناء عنها بمقدار وسعه والاقتصار على تناول
ضرورياته فهو الغني والمقرب من الله تعالى كما اشار اليه فيما حكى عن طالوت ان الله مبتليكم
بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فانه مني الا من اغترف غرفة بيده فشربوا
منه الا قليلا منهم ولان الغنى هو عدم الحاجة فاغناهم اقلهم حاجة ولذلك كان الله

اغنى الاغنياء لانه لا حاجة به الى شيء وعلى ذلك قال النبي عم ليس الغناء عن كثرة العرض
انما الغناء غناء النفس ومن اثار الحكم عن النفس ما يكفيك من سد خلة فان زاد شيئا
عاد ذلك الغنى فقرا والمخير بين ان يستغنى عن الدنيا وبين ان يستغنى بها كالمتمنى
ان يكون مالكا او مملوكا او قويا او ضعيفا او معافى او مبتلى او حيا او ميتا فمن اختار
الاستغناء بها فقد اختار ان يكون مملوكا وضعيفا ومبتلى وميتا ولهذا قال عليه السلام
تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار وقيل لحكيم الا تغتم فقال لاني لم اتخذ ما يغمني واعلم
انه ليس الزهد من ترك الاكتساب في شيء كما توهم قوم افرطوا حتى قربوا من مذهب الثنوية
والبراهمة والرهبنة فان ذلك يؤدي الى خراب العالم وفساده اسفما قدرو وتد
وقد تقدم ذكر والزهد من وجه صبر ومن وجه جود فالجود ضربان جود بما في يدك
متبرعا وجود عما في يد غيرك وذلك اشرفهما ولا يحصل الزهد في الحقيقة الا لمن يعرف الدنيا
ما هي ويعرف عيوبها وافاتها ويتحقق ما يستغنى عنها ويعرف الاخرة وافتقار الناس والاصل
ان لا بد في ذلك من العلم قال تعالى قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يا ليت لنا مثل ما اوتي
قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين اوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن امن وعمل صالحا
ولا يلقيها الا الصابرون ولان الزاهد في الدنيا راغب في الاخرة وهو يبيعها بها كما قال
الله تعالى ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ومحال ان يبيع كيس عينا
باثر الا اذا عرفها وعرف فضل المبتاع على المبيع وقيل لبعض الزهاد ما ازهدك واصبرك
اما زهدي فرغبة فيما هو اعظم مما انا فيه واما صبري فلخوفي من النار **الورع** الورع اصله
صبر وضعف وقد يستعمل في كل واحد منهما لكن جعل في عرف الشرع لترك التسرع الى تناول
اعراض الدنيا وذلك ثلثة اضرب واجب وهو الاحجام عن المحارم وذلك للناس كافة وندب
وهو الوقوف عن الشبهات وذلك للاوساط وفضيلة وهو كف عن كثير المباحات والاقتصار
على اقل الضرورات وذلك للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وقد قال عم

لا يكون العبد من المتقين حتى يدع ما لا باس به مخافة ما به باس وقال باعتبار المنزل الثاني
لما قال رجل للنبي عم ما اشد الورع فقال عم ما اشد الورع اذا شككت في شيء فدعه
الفصل الرابع فيما يتعلق بالقوى الغضبية ما ينبع من القوة الغضبية الحمية وهي
قوة الغضب متى تحركت تحرك دم القلب فيتولد منه ثلثة احوال وذلك انها اما ان يتحرك على من فوقه
او على من دونه او على نظيره فان كان ذلك على من فوقه ممن يظن انه لا سبيل الى الانتقام
منه يتولد منه انقباض دم القلب حزنا على العجز عن الانتقام وذلك هو الغم وان كان
على من دونه ممن يتحقق انه يقدر على الانتقام منه تولد منه ثوران دم القلب للانتقام
وذلك هو الغضب وان كان على نظيره فمن يشك انه يقدر على الانتقام فيه يتولد منه
تردد بين انقباض وانبساط وذلك هو الوتر والحقد ولكون الغم والغضب بالذات
واحدا واختلافهما بالاضافة لما سئل ابن عباس عنهما فقال مخرجهما واحد واللفظ مختلف
فمن نازع من يقوى عليه اظهره غضبا ومن نازع من لا يقوى كتمه حزنا ومن هذا قال
الشاعر فحزن كل اخي حزن اخو الغضب ولانبساط دم القلب بعد الحقد يحمر تارة
وجهه ويسع اوداجه كما يلتهب ويسود وجهه تارة وذلك اذا اكثر واشتد
غضبه كما رفي عار فيسود جوء ولانقباض دم الحزع عن ظاهر الجلد واجتماعه
في القلب يصفر وجهه حتى ربما يهلك من ذلك ولتردد دم الحقد بين هذه الاحوال
يحمر ويصفر ويسود والحرد هو الغضب لكن يستعمل اذا كان معه قصد المغضوب عليه ولذلك
قيل حرد حرد الاسد **انواع الصبر وحده** الصبر ضربان جسمي ونفسي فالجسمي هو تحمل
المشاق بقدر القوة البدنية وثباتها محمودة والشرها لذوي الجسوم الخشنة وليس ذلك
بفضيلة تامة ولهذا قال الشاعر والصبر بالارواح يعرف فضله صبر الملوك وليس
بالاجسام وذلك في الفعل كالمشي ورفع الحجر ومن الانفعال كالصبر على المرض واحتمال الضرب
والقطع والثاني نفسي وبه يتعلق الفضيلة وذلك ضربان صبر عن تناول مشتهى وتعاطيه

العفة، وصبر عن تحمل مكروه او محبوب وذلك يختلف اسماؤه بحسب اختلاف مواقعه فان كان
ذلك في نزول مصيبة فانه لم يتعد به اسم الصبر ويضاده الجزع والهلع والحزن وان كان
وان كان في احتمال غنى فقد يسمى ضبط النفس ويضاده الدمع والبطر وان كان في محاربة
يسمى شجاعة ويضاده الجبن وان كان في امساك النفس عن قضاء وطر الغضب يسمى
يسمى حلما ويضاده التذمر وان كان في نائبة مضجرة يسمى سعة الصدر ويضاده
ضيق الصدر والضجر والتبرم وان كان في امساك كلام الضمير يسمى كتمان السر ويضاده
الافشاء، وان كان عن فضولات العيش سمي قناعة وزهدا ويضاده الشره والحرص
ويكون الصبر عاما قال الله تعالى والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك
الذين صدقوا واولئك هم المتقون فذكر انهم يصبرون في البأساء اي الفقر والضراء اي
المصيبة وحين البأس اي في المحاربة وقال بعضهم ضبط الانسان في الاشياء المملة
والصبر تقال في الاشياء المحزنة وقال بعضهم بل هما من الاسماء المترادفة على معنى واحد
ان قيل ما معنى قول النبي عم الصبر نصف الايمان قيل لما كان جمع المحامد فربين ترك الشر
ويعبر عنه بالصبر وفعل الخير ويعبر عنه بالشكر صار الصبر الذي هو ترك الشر
٤٦ نصف الايمان **الشجاعة** الشجاعة ان اعتبرت وهي في النفس فصرامة القلب على الاهوال
وربط الجأش في المخاوف وان اعتبرت بالفعل فالاقدام على موضع الفرصة وهي فضيلة
بين التهور والجبن وتولدها من الفزع والغضب اذا كانا متوسطين فان الغضب قد يكون
مفرطا لمن له تعصب من الافتراء على حرمه وشتم ابيه وامه وقد يكون متوسطا على ما
في دون ما يجب بقدر ما يجب وكذلك الفزع يكون مفرطا فيتولد منه الجبن الهالع ومفرطا
فيتولد منه الوقاحة والتغافل كمن لا يفزع من شتم آبائه وتصيبه حرمه واصدقائه
وقد يكون متوسطا كما يجب وقدر ما يجب ولكونهما اعني الغضب والفزع على حالين محمود
ومذموم صار الجبان تارة وبذما اخرى فان الغضب في وقته وغضب الله عليهم

والفزع في نحو قول الشاعر ، اذا اظلم المولى فزعت لظلمه معا محوان والتهور هو الثبات المذموم
في الامور المعطبة والجبن هو الفزع المذموم من الامور المعطبة وانواع الشجاعة
خمسة سبعية كمن اقدم لثوران غضب وطلب غلبة وبهيمية كمن حارب الى ماكل
ومنكح وتجربية كمن حارب مرارا فظفر فجعل ذلك اصلا يبني عليه وجهادية كمن حارب
ذبا عن الدين وحكمية هي ما يكون في كل ذلك عن فكر وتمييز وهيئة محمودة بقدر
ما يجب وعلى ما يجب الا ترى انه من اقدم على كافر غضبا لدين الله او طمعا في ثوابه او
خوفا من عقابه او اعتمادا على ما رأى من انجاز الله وعده في نصرة اوليائه
فان كان ذلك محمود وان كان محض الشجاعة ان لا يقصد بالاقدام حوز ثواب او دفع عقاب
فقد قيل من عبد الله لعوض فهو لئيم والفرق بين المقدم في الحرب لمحض الحكمة والاخلاص
الدين وبين المقدم لغير ذلك ان المقدم لغير الحكمة والاخلاص يخاف الموت اكثر
مما يخاف المذمة الصارفة والمقدم للحكمة والاخلاص بالضد من ذلك فانه يختار الموت
الحميد والاخلاص بالضد من ذلك على الحياة الذميمة ولذلك قال علي رض ايها الناس
ان لم تقتلوا تموتوا والذي نفس ابن ابي طالب بيده لالف ضربة بالسيف اهون من
ميتة على فراش ومن الشجاعة مجاهدة الانسان نفسه او غيره وكل واحد منهما
ضربان مجاهدة النفس بالقول وذلك بالتعلم وبالفعل وذلك بقمع الشهوة وتهذيب
الحمية ومجاهدة الغير بالقول وذلك بتزيين الحق وتعليمه وبالفعل وذلك بمدافعة الباطل
ومغالبته بالحرب **اسماء انواع الفزع والجزع والفرق بينهما وما لا يحمد منها وما يذم**
الفزع والجزع اخوان لكن الفزع ما يعتري من الشيء المخيف والجزع ما يعتري من الشيء
المؤلم والفزع لفظ عام سواء كان عارضا عن امارة ودلالة او حاصلا لا عن ذلك
وسواء كان ذلك من عار وهو الحياء والخجل ومتى كان عن شيء يضر فهو الفرق
والذعر ومتى كان لفوت محبوب فهو الاشفاق ولذا قال الله تعالى حكاية عن اهل الجنة

اما كنا قبل في اهلنا مشفقين. والخوف توقع مكروه عن امارة، والخشية خوف يشوبه
تعظيم المخشي مع المعرفة به ولذلك قال تعالى من خشي الرحمن بالغيب. والوجل استشعار عن خاطر
غير ظاهر ليس له امارة قال الله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة. والرهبة
خوف مع تحرز واضطراب ويستعمل الاحتراز قال الله تعالى واوفوا بعهدي وإياي فارهبون
والهيبة رهبة غالبة للخضوع عن استشعار تعظيم ولذلك يستعمل في كل محتشم قال
الشاعر اهابك اجلالا وما بك قدرة ولكن ملء عين حبيبها. وهذه الاشياء
قد تذم باعتبار الامور الدنيوية وتحمد باعتبار الامور الاخروية قال الله تعالى
انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم وقال وإياي فارهبون وقال
انما يخشى الله من عباده العلماء، والخوف من الله ليس يشار به الى ما يخطر بالبال
من الرعب كاستشعار الانسان الرعب من الاسد وانما يشار به الى ما يقتضيه
الخوف وهو الكف عن المعاصي ولذلك قيل لا تعدن خائفا من لا يترك الذنوب وقال تعالى
انما ذلكم الشيطان يخوف اولياءه اي لا تفعلوا ما يقتضيه الخوف منه وافعلوا ما
يقتضيه خوفي. ان قيل كيف مدح المؤمن بالحزن والخوف مع قوله تعالى الا ان اولياء الله
لا خوف عليهم قيل اما الممدوح به فمقتضاهما وذلك اقامة العبادات واما المنفيان
عنهم فهما اللذان يكونان من الاسرار **مداواة الغم وازالة الخوف** حق الانسان
ان يعلم ان الدنيا جمة المصائب رنقة المشارب تثمر للبرية انواع البلية فمع
كل لقمة غصة ومع كل جرعة شرقة فهي عدوة محبوبة كما قال ابو نواس
اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق وكما روي الحسن انه
قال ما مثلنا مع الدنيا الا كما قال كثير اسيئي بنا او احسني لا ملومة لدينا ولا مقلية
ان تقلت فما احد فيها الا وفي كل حال غرض لاسهم بلية سهم بلية وسهم رزية وسهم منية
تتناضله الآفات من كل جانب فتخطئه يوما ويوما تصيبه وقال بعض الحكماء

اسباب الحزن فقد محبوب او فوت مطلوب ولا يسلم منهما انسان لان الثبات والدوام
معدومان في عالم الكون والفساد فمن احب ان يعيش هو واهله واحبابه فهو
غير عاقل لانه يريد ان يملك ما لا يملك ويوصل له ما لا يوجد فحق المرء ان لا يخلي قلبه
من اعتبار فيما يرى من فجائع الدنيا وذائقتها من اربابها وحلول بوارعها من اصحابها
وما احسن ما قال ابن الرومي اكم برزاء الدهر من قبل كونه كفاحا اذا فكرت في الحلوات
فما لك كالمرمي من مأمنه بنبل اتته غير مرتقبات وان قلت مكروه اتانا فجاءة فما
فوجئت نفس مع الخطرات ولا غو فصد نفسي ببلوى وقدرات عظات من الآيات
بعد عظات اذا نعيت اشياء قد كان مثلها قديما فلا تعتدها نغبات ثم من حقه
ان يقلل من قنية ما يورثه الحزن فقد قيل لحكيم لم لا تغتم فقال لاني لم اقتن ما
يغمني فقده. واحد ذلك الشاعر ومن سره ان لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يبالي له فقدا
وقيل لحكيم هل يمكن للانسان ان يعيش امنا قال نعم اذا احترس من الخطيئة وقنع بماله
ولم يحزن لما هو واقع لا محالة به. واعلم ان الجزع على ما فات لا يلم ما تشعث ولا يبرم ما
انتكث كما قال وهل جزع مجد علي فاجزعا فاما الغم على المستقبل فلا يخلو من ثلاثة اوجه
اما من شيء ممتنع كونه او واجب كونه او ممكن كونه فان كان على ما هو ممتنع كونه فليس ذلك
من شأن العاقل وكذلك ان كان من قبيل الواجب كونه كالموت الذي هو حكم في رقاب
العباد وان كان كونه ممكنا فانه ان كان من الممكن الذي لا سبيل الى دفعه كان كمن كان
الموت قبل العدم فالحزن له جهل واستجلاب غم الى غم وان كان من الممكن الذي يصح
دفاعه فالوجه ان يحتال للدفاع بعقل غير مشوب فان دفعه والا تلقاه بصبر و
ليستحضر معنى قوله تعالى ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الا في كتاب من قبل
ان نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ثم يعلم ان ما
جرى في حكمه وسبق في علمه لا سبيل الى ان لا يكون كما يجب عليه التوثب واعلم ان الذي

يغتر الناس بحسن ظنهم باغترار الآفات واغترارهم حالا بعد حالة بصفاء الاوقات
لو تاملوه بالبصر لتحققوا انها كما قال امير المؤمنين علي رضي الله عنه ما قال الناس لقوم طوبى
لكم الا وقد خبأ لهم الدهر يوم سوء ان الليالي لم تحسن الى احد الا اساءت اليه
بعد احسان واما سبب الاغتمام للموت فلا يمكن حذار بوائقه اما للفوات شهوات
بطنه وفرجه واما على ما يخلفه من ماله واما على جهل بمآله واما خوفا لما قدم من
عصيانه فان كان ذلك لشهوة بطنه وفرجه فليعلم ان ذلك يكشفهما داء لا يتعالج بدواء
مثله فان الانسان لا يستلذ الطعام حتى يجوع والجوع داء يهرب منه ويسعى
داء يهرب فمثل من يحب الجوع ليستطيب بعده الاكل كمن يستطيب القعود في الشمس
لينال الحر ثم يستطيب القعود في الظل وتجنب ذلك رقاعة لا تخفى ولا يعذر وان كان
غمه على ما يخلفه من ماله فذاك جهله بخساسة الاعراض الدنيوية وكونها تجمع بليته
وبنفاسة الاملاك الحقيقية التي وعد المتقون بها وان كان غمه لجهله بمآله غدا وانه العلم
والمعرفة الحقيقية التي بدت له حال مآل الانسان بعد الموت كما قال حارثة للنبي عم كاني
انظر عرش ربي بارزا وكاني انظر الى اهل الجنة يتزاورون فيها والى اهل النار يتعادون
فيها وان كان خوفا لما كان من عصيانه فدواؤه المبادرة بالتوبة فكفى ان كان ذا بصيرة
ما جعل الله له سبيلا من تلافي ما فرط فيه وعدم التأسف احوال الناس في محبة الموت
والاختيار لقلة المبالاة الناس في ذلك على طبقة اضرب الاول حكيم يعلم ان الحيوة يسوقه
والموت يعتقه وان الانسان في هذا العالم وان طال فيه لبثه فهو كخطفة برق لمعت
في اكناف السماء ثم عادت لاضمحلال وانه في دنياه كمبعوث الى بعض طوطة وبلد يسوقه
داعي ما استدعى ويسر بدعائه اذا دعي لا يتحاد خروجه منها الا بقدر ما يفوته
من خدمة ربه والازدياد من تقربه والاستعداد لما يقول ويفعله كما قال بعض الحكماء
الصالحين وقد راى منه جزع الموت فقيل له في ذلك فقال جزعي اني لم اسلك طريقا

لم اعهده واقدم على رب لم اره ولا ادري ما اقول وما يقال لي والثاني رجل انس بهذا
العالم فالفه وان كرهه فسبيله سبيل من الف وطنا فطلما قدرا ولم ير غيره فهو يكره الخروج
منه وان كان قد كره دخوله فيه كما قال الشاعر شعر دخلنا كارهين فلما الفناها
خرجنا مكرهين * وما حب البلاد بنا ولكن امر العيش فرقة من هو بنا * ونحو ما قيل
لو رضي الناس بارزاقهم رضاهم باوطانهم لما شكى احد فقرا كما متى خرج عن دنياه
واطلع على ما اعد للصالحين مما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر سره
حاله كما حكى الله تعالى عمن استقر به في جنة النعيم حيث قالوا الحمد لله الذي اذهب عنا
الحزن ان ربنا لغفور شكور الى آخر الآية الثالث رجل اعمى عين البصيرة متلطخ النفس
بما ارتكبه من انواع الجريمة رضي بالحيوة الدنيا واطمان بها ويئس من الآخرة كما يئس
الكفار من اصحاب القبور فاذا خرج منها الى دار الخلود اشتد ذلك به كما يشتد رياح الورد
بالجعل فاذا خرج من قاذورات الدنيا لم يوافقه عالم العلى ومصاحبة الملأ الاعلى
ومعاودة اولي العلى فيحن كما قال تعالى من كان في هذه اعمى فهو في الآخرة اعمى ولذا قال النبي ٤م
الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فاجدر ان من يربي في هذا العالم بغذائه من العلم
والعمل الصالح ان لا يشتاق اليه بعد خروجه منه كما لا يشتاق الى الرجوع الى بطن امه
بعد الخروج منه ولذلك عليه السلام انه خرج من بطن امه كان في بكائه فقد قال بعض القدماء
اول ما ينال الصبي غمه عند سقوطه لما يضغط من مضيق خروجه ويصيبه من الم الهواء
فيتوجع والوجع يورثه الغم فالغم يحمله على البكاء وذلك ان للصبي كل ما يكون للحيوان غير
النطق من اللذة والالم والجوع والعطش ومن اشعار الرومي فقال لما يؤذن الدنيا
به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد * والا فما يبكيه منها وانه لافسح مما كان فيه وارغد
قال ابن عباس رضي الله عنهما ما احد الا والموت خير له من الحيوة لان الله تعالى قال في الابرار وما عند
الله خير للابرار وقال في الاشرار انما نملي لهم ليزدادوا اثما وقيل الصالح اذا مات استراح

من الدنيا والطالح اذا مات استراحت منه الدنيا قال بعض الحكماء من قال للعبيد صانك الله من نوب الايام وصروف الزمان فانه يدعو عليه بالموت والانسان لا ينفك من ذلك الا بخروجه من دار الكون والفساد وقال بعض الصوفية حق ملك الموت ان يحبه المسلم من بين الملائكة فضل محبة من حيث انه احد اسباب تعويضه الحيوة السنية الابدية عن حيوته الدنية الدنيوية ولهذا امرنا ان نقول في دعائنا اللهم صل على جبرائيل وميكائيل وملك الموت فان جبرائيل وميكائيل لهما سبب انبائنا من ذلك العالم بما فيه من صلاحنا من دار الكون والفساد وملك الموت سبب اخراجنا عن دار الكون والفساد فاذا حقه عظيم وشكره لازم وقد حكي ان قوما من الاوائل كانوا يعظمون زحل بالتقديس والتسبيح له وقالوا انه لا يعين على الحيوة العرضية بل هو سبب ابعادنا من الدنيا الدنية وقال بعض الاولياء في مناجاته الهي ان سالتك الحيوة في دار الممات فقد رغبت في البعد عنك وزهدت في القرب منك فقد قال نبيك وصفيك من احب لقاء الله احب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه والموت دون اللقاء وقال بعضهم لن في قلة الحاجة الدنيوية غنى وفي انقطاع الحاجة كلها غناء الغنى الاكبر ولا انقطاع لها الا بمفارقة الدنيا فالدنيا سبب فاقتنا والعبودية لغير الله وقبيح بالعاقل صحبة الفاقة والتخصص بعبودية غير رب العزة والموت سبب كمال الانسان ومن رغب عن كماله فهو من الذين خسروا انفسهم ومن كره الموت خرج من الدنيا كارها كعبد آبق رد الى مولاه ماسورا وقيد الى حضرته مقهورا وشتان بين عبد دعاه مولاه فاتاه طوعا وعبد ابق اسيفا فاتى به قسرا وهو العاقل ان يكثر ذكر الموت فذكره لا يقرب اجله ويفيده ملكة القناعة بما رزق والمبادرة بالتوبة والنشاط في العبادة ولذلك قال عم اكثروا ذكر هادم اللذات فانه ما ذكر احد في ضيق الا وسع عليه ولا في سعة الا ضيقها عليه وقيل ذكر الموت يطرد فضل الامل ويكف عن التمني فيهون المصائب

ويحول بين الانسان والطغيان

السرور والفرح

السرور انشراح النفس بلذة فيها طمأنينة الصدر عاجلا وذلك في الحقيقة انما يكون اذا لم يخف زواله ولا يكون الا في القنيات الا ولذلك قيل لا سرور في الدنيا على الحقيقة والفرح انشراح الصدر بلذة عاجلة غير آجلة وذلك في اللذات البدنية الدنيوية ولهذا قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتيكم والفرح الى النشاط والنشاط يدعو الى المرح والمرح داعية الاشر والاشر مقدمة البطر واكثر ما يظهر ذلك في الاحداث والصبيان بقدر ما تغلب عليهم من الغفلة وقد ذمه الله تعالى بقوله وفرحوا بالحيوة الدنيا وقال تعالى ان الله لا يحب الفرحين وقال ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون وقال كل حزب بما لديهم فرحون وقد يسمى الفرح سرورا والسرور فرحا لكن على نظر من لا يعتبر الحقائق فيتصور احدهما بصورة الآخر ولذلك قيل من طلب السرور بالفرح جاز عنه لم ينله

العذر والتوبة

المذنب اذا عوتب او خاف العتب لا ينفك من وجهين اما ان يكون مصرا او معتذرا فاما المصر فقد يستحسن في بعض الاحوال التجافي عنه وقد سمع رجل حكيما يقول ذنب الاحرار اولى بالاغتفار فقال صدق وليس فضل من عفا عن السهو القليل كمن عفا عن العمد الجليل واما المعتذر فهو المظهر لما يمحو به الذنب وجمع المعاذير لا ينفك عن ثلثة اوجه اما ان يقول لم افعل او يقول فعلت لاجل كذا فيبين ما يخرجه عن كونه ذنبا او يقول فعلت ولا اعود فمن انكر وانبأ عن كذب ما ينسب اليه فقد برئت ساحته وان فعل وجحد فقد يعد التغابي عنه كرما واياه قصد الشاعر تغابي وما بك من غفلة لفرط الحياء وفضل الكرم ومن اقر فقد استوجب العفو بحسن ظنه بك قال بعض الحكماء تجاوز عن مذنب لم يسلك بالاقرار طريقا حتى اتخذ من رجائك رفيقا فان قال فعلت ولا اعود فهذا هو التوبة ومن الانسان ان يعد حق في قبولها وللتوبة شرائط فرضا ونفلا ففرضها ترك الذنب مع ترك العود اليه ونفلها التأسف

لما سلف من الذنب والاستغفار له وترك بعض المباحات مقابلة لما كان منه من العصيان
واعلم ان للمذنب التائب اذا تاب توبة نصوحا فضيلة على من لم يذنب من ثلثة اوجه
الاول من جرب العيوب والذنوب وعرف مداخل الشيطان على الانسان يكون اهدى
الى الاحتراز فقد قيل لحكيم فلان لا يعرف الشر فقال ذاك اجدر ان يقع فيه والثاني
ان المذنب التائب يحسم بعد غلبة الخوف على قلبه فياتي باب مولاه حربان ومن لم يذنب
ربما يعجب بنفسه ويدل بفعله وليس حرمة عبد عصا ملكا وخرج عليه ثم صار تائبا عاد
اليه وطاعته كحرمة من ادل بطاعته الثالث ان التائب حلب الدهر سطوته خيره
وشره فعلوه وعره فهو ارفق بالمذنبين واوفق لهم واصلح للرياسة ممن يظن ان
الذنب شيء خارج عن طبع الانسان فيعجب منه ويزري بفاعله

الحلم والعفو

الحلم امساك النفس عن هيجان الغضب والتحلم امساكها عن قضاء الوطر منه اذا هاج ولما
كان الحلم عن اثر العقل وغير منفك عنه صار يعبر عنه وعن كل عقل حلم فحلا كقوله
عز وجل في ذم الكفار على سبيل التعجب منهم ام تامرهم احلامهم بهذا ام هم قوم طاغون
ومتى استعمل الحلم في الباري تع فانه يراد به العدل تعقيبا وهو العفو دون الانفعال
لعوض وان يتم حلم الانسان الا بامساك الجوارح كلها اليد عن البطش واللسان
عن الفحش والسمع عن سماعه والعين عن فضولات النظر واقرب لفظ يستعمل في ضد
الحلم التذمر واما العفو والصفح فهما صورة الحلم ومخرجاه الى الوجود فالعفو ترك
المؤاخذة بالذنب والصفح ترك التثريب فيها واشتقاقه من تجاوز الصفحة التي اثبت
فيها ذنوبه او الاعراض بصفحة الوجه عن التلفت الى ما كان منه وهو محمود اذا
كان على الوجه الذي يجب ولذا قال تع فاصفح الصفح الجميل فحث بينهما على ما يحمل منه
وقد حث سبحانه تع ذلك بقوله والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس فامر بالحلم والعفو
وقال وليعفوا وليصفحوا وقال فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين وقال فمن عفى

واصلح فاجره على الله والعفو انما يستحب فيما كان الاشياء مخصوصة بالعافي كمن اخذ
ماله او شتم عرضه فاما اذا كانت الاشياء عائدة بالضرر على الشرع او على جماعة الناس
فانه وان كان فيه له في شبهة فللسلطان العفو لقوله عم ادرؤا الحدود بالشبهات وان لم
يكن ذا شبهة فليس له العفو ولذا قال تع في الزنا ولا تاخذكم بهما رافة في دين الله ان كنتم
تؤمنون بالله واليوم الآخر وحق المعاقب انه لا يكون سبيعا في انتقامه بل لا يعاقب حتى
يزول سلطان غضبه لئلا يقدم على ما ليس بواجب ولذلك جرى سنة السلطان بحبس
المجرم حتى ينظر في جرمه ويعيد النظر فيه قال بعضهم ينبغي للسلطان ان يؤخر العقوبة
حتى ينقضي سلطان غضبه ويعجل مكافاة المحسن ويستعمل الاناءة فيما يحدث ففي
تاخير العقوبة امكان العفو ان احب ذلك وفي تعجيل المكافاة بالاحسان مسارعة
الاولياء الى الطاعة واتي الاسكندر بمذنب فصفح عنه فقال بعض جلسائه لو كنت
اياك لقتلته فقال واذا لم اكن انا اياك ولا انت اياي فكيف نفعله وانتهى الى بعض
اصحابه وهو يغتابه فقيل له لو نهكته عقوبة فقال ح يكون ابسط لسانا وعذرا في
اغتيابي واعلم ان لذة العفو اطيب من لذة التشفي لان لذة العفو يلحقها ذم الندم
والعقوبة الا ام حالات ذوي العزة وهي طرف من الجزع ومن رضي ان لا يكون بينه
وبين الظالم الا ستر رقيق فلينتصف وقد نبه على ذلك بلطيف المقال فقال تعالى
وجزاء سيئة سيئة مثلها فسمي مجازاة المسيء باساءته اساءة وقال فمن اعتدى عليكم
فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم فسمي المجازي على الاعتداء معتديا تنبيها على
انه قد كاد يكون اياه والعقوبات فيما بين الناس فيما ما كان فيما لم يظهر بالفعل فقد قال
بعض الملوك انما نملك الاجساد دون الضمائر ونحكم على الظواهر لا على السرائر ومن
اسلم ظاهره احمد جانبه فقد ينفع المرء ويسلم ولو اوطن نيته منفعه
في الانسان يستعمل والانسان يختلفون فيه فقال بعضهم

الغضب وفصل كظمه

كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود وبعضهم كالغضا بطي الوقود بطي الخمود وبعضهم
سريع الوقود بطي الخمود وبعضهم على عكس ذلك وهو احدهم ما لم يكن ذلك مفضيا به الى
زوال حميته وفقدان غيرته واختلافهم تارة يكون بحسب الامزجة فمن كان طبعه حارا
يابسا يكثر غضبه ومن كان بخلافه يقل وتارة يكون بحسب اختلاف العادة فمن الناس
من تعود السكون والهدوء وهو المعبر عنه بالذبول واللين واللين ومنهم من تعود الطيش
والانزعاج فيحتد بادني ما يطرقه كالكلب يسمع حسا قبل ان يعرف ما هو واسرع الناس
غضبا الصبيان والنساء واكثرهم ضجرا الشيوخ واجل الناس شجاعة وافضلهم محاسن
واعظمهم قوة من يكظم الغيظ وعلى ذلك دل قوله تعالى والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس
فجعلهم من المحسنين وقال النبي عم وقد مر بقوم يرفعون حجرا فقال الا اخبركم باشدكم
من ملك نفسه عند الغضب واعلم ان نار الغضب متى كانت عنيفة واججت واضطرمت فاشتد
به غليان دم القلب وملات الشرايين والدماغ دخانا مظلما مضطربا يسوء منه حال
العقل ويضعف منه فعله كما ان الكهف الضيق اذا ملئ حريقا اختنق فيه الدخان واللهب
وعلا منه الاجيج فيصعب علاجه واطفاؤه ويصير كل ما يدني مادة لقوته كذلك النفس
اذا استعلت غضبا عميت عن الرشد فصمت عن الموعظة فيصير المواعظ مادة لغضبه
ولهذا حكي عن ابليس قال متى يعجزني ابن آدم فلن يعجزني اذا غضب لانه ينقاد لي فيما ابتغيه
ويعمل بما اريده وارتضيه وقيل الغضب جنون ساعة وربما افضى الى التلف باختناق
حرارة القلب فيه وربما كان سببا لامراض صعبة مؤدية الى التلف واسباب الغضب
العجب والافتخار والمراء واللجاج والمزاح والتيه والاستهزاء والضيم وكل ما فيه التنافس
والتحاسد وسهوه الانتقام وحق من اعتراه غضبه ان يتفكر وان كان المغضوب عليه
تحت يده فلا معنى لاستطاعته اذ هو ممكن من الانتقام منه على سكون الجاش وان
كان غضبه على من لا سبيل له عليه فلا معنى لتعذيبه نفسه في الوقت بل حقه ان يصبر حتى يمكنه

منه ثم نفعل بالواجب وقال حكيم سد طريق الغضب قبل تلهب ناره في لحمك ودمك فانما يمكن
اطفاؤها قبل انتشارها فاما اذا استعلت فلا سبيل الى اطفائها وقال سلطان لحكيم
كيف لي ان لا اغضب فقال بان تكون في كل وقت ذاكرا انه يجب ان تطيع لا ان تطاع فقط
وان تخدم لا ان تخدم فقط وان تحمل لا ان تحمل منك فقط وان ينحو ان الله يراك دائما
فاذا فعلت ذلك لم تغضب وان غضبت غضبت قليلا الغيرة والجوار الغيرة ثوران
الغضب حماية على الحرم واكثر ما يراعى في النساء وجعل الله هذه القوة في الانسان
سببا لصيانة الماء وحفظا للانساب ولذلك قيل كل امة وضعت الغيرة في رجالها
وضعت الصيانة في نسائها وقد يستعمل ذلك في صيانة كل ما يلزم الانسان صيانته في
السياسات التي هي سياسة الرجل نفسه وسياسة منزله واهله وسياسة مدينته
وصنعته ولذلك قيل ليست الغيرة ذب الرجل عن امراته ولكن ذبه عن كل مختص
وقيل الغيرة الذب عن كل قبيح ضعيف وسمي كراهية النعمة عند من لا يستحقها
غيرة والغيرة وان كانت من قوة الانسانية فواجب كونها في كل جيل فقد كثرت في العرب
كثرة مباهية حتى ان من دخل دار احدهم والتجأ الى فنائه عدوا قتله حرمة وجوارا
وذماما بل ان تعلق الدلو بالدلو الغريبة او يلابس الطنب المستحصد الطنب بل كانوا
يراعون ذلك في الوحشيات والهواء حتى سمي مجير الجراد ومجير الغزال ومجير الذئب وسمي
العصب المعصب للغيرة الحفيظة يقال احفظني فلان اي اغضبني الغضب الذي اثار
من قوة الحفظ الغبطة والمنافسة والحسد الذي ينال الانسان بسبب خير يصل الى غيره
على سبيل التمني ان يكون مثله فهو الغبطة وان كان مع ذلك سعي منه في ان يبلغ هو مثل ذلك
من الخير او ما هو فوقه فمنافسة وكلاهما محمودان وان كان مع ذلك سعي في زوال ما يصاحبه
من غير استحقاق لزواله فحسد والحسد هو الخبيث الساعي في ازالة نعمة مستحقة من غيره يكون
ذلك طالبا لنفسه ولذلك قيل الحاسد يرى زوال نعمتك نعمة عليه وقال عم المؤمن يغبط

[illegible] عداوة من عاداك عن حسد

والمنافق يحسد فحمد الغبطة وقال فليتنافس المتنافسون فحثنا على التنافس اذ هو الباعث
لنا على طلب المحاسن وذلك لقوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وقول النبي عم ثلثة لا ينجو منها
احد الظن والطيرة والحسد وسأخبركم بالمخرج من ذلك فاذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت
فامض ولا تنثن واذا حسدت فلا تبغ اى اذا اصابك غم بخير يناله غيرك فلا تبغ ازالته
عنه واعلم ان الحسد من وجه غاية البخل لان البخيل يبخل بمال نفسه والحاسد يبخل بمال الله
ولذا قيل الحاسد بخيل بما لا يملكه ومن وجه هو اظلم ظالم لانه يظلم غيره في ازالة ماله ويظلم
فما قدره وقيل الحسد والحرص ركنا الذنوب ومنهما انتج ذنب ابليس وآدم فابليس حسد
آدم فصار لعينا وآدم حرص على ما نهي عنه فاخرج من الجنة فهما شجرتان يجتنى منهما
سائر الرذائل من قطع اسبابها نجا ان قيل فما وجه قول النبي عم لا حسد الا في اثنين رجل
اتاه الله مالا فجعله في حق ورجل اتاه الحكمة فهو يقضي بها قيل عني بالحسد ههنا الغبطة
وقد سمى ذلك من حيث انها النعم الذي يناله الانسان من خير يناله غيره ولا يناله هو وعلى هذا
يقول الانسان لولاه ان لا احسد فلانا فما يتعلمه اى لا اتمنى حاله واعلم ان الحسد ضرب من
الحماقة لان اغتمامه بما يناله ذووه واهل بلده يقتضي ان يغتم بما يناله اهل الصين والهند
على ان الخير الذي يناله ذووه اذا تفكر فيه هو انفع له مما يناله الا ابا عد **الفصل
الخامس في العدالة والظلم والمحبة والبغض العدالة وفضيلتها** العدالة لفظ يقتضي معنى المساواة
ولا يستعمل الا باعتبار الاضافة وهي في التعارف اذا اعتبرت بالقوة فهيئة في الانسان
يطلب بها المساواة واذا اعتبرت بالفعل فهي التقسيط القائم على الاستواء واذا وصف الله تعالى
بالعدل فليس يراد به الهيئة وانما يراد به ان افعاله واقعة على نهاية الانتظام والانسان
في تحري فعل العدالة يكون تام الفضيلة اذا حصل مع فعله هيئة مهتزة لتعاطيه
فقد يتبع فعل العدالة من الانسان ولا يكون ممدوحا به نحو ان يقسط مراءاة او توصلا
الى نفع دنيوي او خوف عقوبة السلطان والعدالة تارة يقال هي الفضائل كلها من حيث

انه لا يخرج شيء من الفضائل عنها وتارة يقال هي اكمل الفضائل من حيث ان صاحبها يقدر
ان يستعملها في نفسه وفي غيره وهو ميزان الله المبرأ من كل زلة وبها يستقيم امر العالم
ولذلك قال تعالى الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان وقال والسماء رفعها ووضع الميزان
الا تطغوا في الميزان وعبر عن العدالة بالميزان اذ كان من اثرها ومن اظهر افعالها الحسية
وقال عم بالعدل قامت السموات والارض اى لو كان شيء من موجودات العالم واصولها
زائدا على الاجزاء او ناقصا عنه لم يكن منتظما هذا النظام ومن فضيلتها ان الجور الذي
هو ضدها لا يستتب الا به فلو ان لصوصا تشارطوا فيما بينهم شرطا فلم يراعوا العدالة
فيه لم ينتظم امرهم ومن فضيلتها ان كل نفس تتلذذ بمن يتحراها وتتألم من ضدها
ولذلك يستحسن الجائر عدل غيره اذا رآه او سمع به وقيل العدل لا يخاف الله اي من
حيث العدالة لا خوف عليه ولحسن العدالة والمساواة تتألم النفس من كل ما كان مرسلا
في العالم ليس له نظام مستقيم فيكره العرج والعور فيتشاءم به ولتحري المساواة
جعل الله اعضاء الانسان الواقعة في الاطراف زوجين اثنين وفي الاوساط واحدا
واحدا ولا فيها آ ولذلك يتحرى النقاشون بازاء كل منقوش في جانب منقوشا مثله
في الجانب الاخر لئلا تصير الصورة معوجة فالعدالة وسط اطرافها كلها جور فالجور
الخروج عن وسط بزيادة او نقصان ولذلك اصاب الجور والخطأ بالاضافة الى العدالة
والصواب من حيث ما لا نهاية له والعدل والصواب من حيث المتناهي وادراكها صعب
عسر والصعوبة ذلك قال عم استقيموا ولن تحصوا وعدح تعالى بقوله واحصى كل شيء عددا
تنبيها انه هو المحقق للعدالة والصواب من كل شيء وقال بعض الصوفية رأيت النبي عم
في المنام فقلت بلغني يا رسول الله انك قلت شيبتني سورة هود فما الذي شيبك منها
قوله تعالى فاستقم كما امرت ولما كان الوصول اليها عسرا صار ضابطها اذا اجتهد
يجتهد وان اخطأ فهو معذور ماجور ولذلك قال عم من اجتهد فاخطأ فله اجر ومن

احمد فاصاب فله اجران انواع العدالة وبيان منازلها ذكر في العدل ضربان عدل مطلق يقتضي العقل حسنه ولا يكون منسوخا في شيء من الازمنة ولا يوصف بالجور في حال وذلك نحو الاحسان الى من احسن اليك وكف الاذية عمن كف اذاه عنك وعدل مقيد يعرف كونه عدلا بالشرع ويمكن ان يكون منسوخا في بعض الاحوال والازمنة وذلك نحو مقابلة السوء بمثله كاحوال القصاص واروش الجنايات وكاخذ مال المرتد وهذا النحو صح ان يوصف على المجاز في بعض الاحوال بالجور ولذلك قال الله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها فسمى جزاء السيئة سيئة من حيث انه لو لم يكن معتبرا بالسيئة المتقدمة كان نفسه سيئة وعلى ذلك فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وقوله ويمكرون ويمكر الله ونحو ذلك

فان من سخر منكم كما تسخرون وبالنظر الى النوع الاول والاعتبار به قال بعض المتكلمين يعرف العدل والجور قبل الشرع وبالنظر الى النوع الثاني قال بعضهم لا يعرف الا بالشرع وبالجملة ان الشرع مجمع العدالة وبه يعرف حقائقها ولو توهمنا مرتفعا لكان يؤدي الى ان لا يكون عدالة على الحقيقة في شيء من جزئيات الافعال ولا في كثير من كلياتها والعدالة المحمودة هي التي يتحرى بها لا رياء ولا سمعة ولا رغبة ورهبة وانما يكون تحريا للحق عن محبة والذي يجب ان يستعمل الانسان معه العدالة خمسة الاول بينه وبين رب العزة بمعرفة توحيده واحكامه والثاني بين قوى نفسه وذلك بان يجعل هواه مستسلما لعقله فقد قيل اعدل الناس من انصف عقله من هواه والثالث بينه وبين اسلافه الماضين في انفاذ وصاياهم والدعاء لهم والرابع بينه وبين معامليه في اداء الحقوق وانصاف المعاملات من المبايعات والمعارضات والكرامات والخامس بين التنصفة بين الناس على سبيل الحكم وذلك للولاة وخلفائهم واما الحكام العدول في الارض فثلاثة حاكم من الله وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والعامل والآمر به وهو كل وال عدل والناظر المعتبر به واعلاه الدينار والدرهم وبالفارسية دينار او ... والناظر من وجه حاكم ومن وجه كالآلة للحاكم يعتبر به اذا قيس على فعل ولما كانت الشريعة مجمع العدالة ومنبعها

صار ممن امتنع من التزامها اظلم ظالم ولهذا قال تعالى ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بآياته انه لا يفلح الظالمون وقال ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بالحق لما جاءه وقال فمن اظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم وكون الكفر ظلما قال الله تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا فعاقب بالظالم ما يحسن ترك العدالة فيه ترك العدالة الى الظلم عدا في جميع الاحوال مذموم والخارج عنها الى الظلم مستوجب بقدر خروجه عنها سخطا من الله تعالى ان لم يتداركه الله لعفوه فاما الخارج عنه الى الانظلام اي التزام الظلم فقد يحمد والانظلام من حيث الكمية ثلثة اضرب الانظلام في المال وهو الانخداع للظالم في اخذ ماله والانظلام في الكرامة وهو الانخداع في بخس منزلته من التعظيم والانظلام في النفس وهو استخذاء لمن يولمه وكل واحد يكون محمودا او مذموما ومن حيث الكيفية ضربان محمود ومذموم فالمحمود التغابن في حقه في المال او في الكرامة او في النفس بقدر ما يحسن وفي وقت ما يحسن وهو المعبر عنه بالتخادع والتغافل الذي قيل فيه العقل مكيال ثلثه فطنة وثلثاه تغافل واياه قصد من قوله من خدعك فانخدعت له فقد خدعته وقال الشاعر ممن يعز على الثناء فينخدع وذلك اذا كان في مال فمسامحة واذا كان في النفس فعفو واذا كان في الكرامة فتواضع واما على الوجه المذموم في المال غبن وفي الرأي غبن وفي النفس والكرامة هوان ومذلة وقد يقدم ان الافضال والاحسان اشرف من العدالة اذا كان الحكم بينك وبين غيرك واما اذا حكمت بين اثنين فليس الا العدالة وانما الاحسان الى المتحاكمين ولهذا قال تعالى وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط الآية وقال تعالى ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل وقال لمن له الحق وان تعفوا اقرب للتقوى الآية وقال يحيى بن معاذ رحمه الله اصحبوا الناس بالفضل لا بالعدل فمع العدل الاستقصاء ومع الفضل الاستبقاء واني لا ارجو ان يحاسب الله عباده بالفضل لا بالعدل وقد امرهم ان يصاحب بعضهم بعضا بالفضل وقد عظم الله

امر الاحسان والافضال فقال للذين احسنوا الحسنى وزيادة وهل يامر الحكيم بشي ثم لا يامر
وكيف يترك الحكيم التفضيل ويقتصر على العدالة وقد بين ان التفضيل اكرم وافضل تعالى
الله عن ان ادى الملو لسن وكيف لا يرجى تفضله وافعاله كلها عدل وعدله كله تفضل لانه مبتدى
بما لا يلزمه والابتداء بما لا يلزم تفضل وهل يجوز ان يترك التفضل انتهاء وقد تحرا ابتداء
الظلم هو الانحراف عن العدالة ولذلك حد بانه وضع الشئ في غير موضعه المخصوص به وقد تقدم
ان العدالة تجري مجرى النقطة من الدايرة فتجاوزها من جهة الافراط عدوان واليه الاشارة
بقوله تعالى قد ضلوا ضلالا بعيدا والانحراف في بعض جوانبها جور والظلم اعم الاسماء ولما
كان الظلم ترك الحق الجاري مجرى النقطة من الدايرة صار العدول عنها اما قريبا واما بعيدا
فمن كان عنها ابعد كان رجوعه اليه اصعب ولذلك قال تعالى ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا
تنبيها ان الشيطان متى امعن لهم في البعد عن الحق صعب عليهم حينئذ الاهتداء ولاجل من
جعلهم الشيطان كذلك قال تعالى اولئك ينادون من مكان بعيد واما المستعمل فيهم الظلم في الحكمة
فهم الذين يجب استعمال العدالة فيهم وقد تقدم ذكرهم الاول رب العزة الثاني النفس
الثالث اسلاف الرجل الرابع معاملوه من الاحياء الخامس اذا تولى انسان الحكم بين بعضهم
وبعضهم وقال بعض العلماء شر الناس من جار على طاقة الناس واضلهم من عدل مع
كافة الناس مع عشرته ثم مع نفسه وهو اول اولى بنظر عامي فان الظالم لا يكون ظالما
لغيره حتى يظلم اولا نفسه فانه في اول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه فاذا الظالم ابدا مبتدي
بظلم نفسه والعادل مع الناس اذا هم بالعدل وتحرا فقد عدل مع نفسه قبل ان عدل مع
غيره وقال بعضهم الظلم ثلثة الظالم الاعظم وهو الذي لا يلتزم حكم السلطان والاصغر وهو
لا يدخل تحت شريعة الله واياه عنى بقوله ان الشرك لظلم عظيم والاوسط وهو الذي لا يلتزم
حكم السلطان والاصغر وهو الذي يتعطل عن المكاسب والاعمال فياخذ منافع الناس
ويعطيهم منفعة ومن خرج عن تعاطي العدل بالطبع وبالخلق والتخلق والتصنع والريا والتذ عند

والرهبة فقد انسلخ عن الانسانية ومتى كان اهل كل صقع كذلك فتهارشت وتعاليت
واكل قويهم ضعيفهم ولم يبق فيهم اثر قبول فعند بعدهم ان عادة الله في امثالهم اهلاكهم
وافناؤهم من آخر الاسباب التي يحصل منها الاضرار جميع ذلك اربعة اسباب الاول
الشرار كمن يضر غيره متلذذا بالفعل وذلك اخس الوجوه الثاني السهو وهو ان يقصد
ادراك سهو ما فرآى ما لا يمكنه الا بان يضر بغيره كحاطب المتلصصة والغائص الارض
الثالث الخطاء وهو ان لا يقصد الاضرار بمن ضره بوجه بل قصد فعله آخر فاتفق
منه ذلك كمن رمى قرطاسا فاصاب رجلا فهذا معذور من وجه والرابع الشقاوة كمن يصيبه
ريح فاوقعه على انسان فان ذلك الفناء فهذا معذور ومرحوم المكر والخديعة
والكيد والحيلة المكر والخديعة متقاربان وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله في باطنه
خلاف ما يقتضيه ظاهره وذلك ضربان احدهما مذموم وهو الاشهر عند الناس
والاكثر وذلك ان يقصد فاعله انزال مكروه بالمخدوع واياه قصد النبي عم المكر
والخديعة في النار والمغ يودي مقاصدهما الى النار والثاني على عكس ذلك وهو ان
يقصد فاعلهما الى استجرار المخدوع والممكور به الى مصلحة لهما كما يفعل بالصبي اذا امتنع
من فعل خير وقال بعض الحكماء المكر والخديعة محتاج اليهما في هذا العالم وذاك
ان السفيه يميل الى الباطل ولا يقبل الحق ولا يميل اليه لمنافاته لطبعه فيحتاج ان
يخدع عن باطله بزخارف مموهة كخدعة الصبي عن الثدي عند الفطام ولذا قيل
مخرق فان الدنيا مخارق وسفسط فان الدنيا سوفسطائية وليس هذا حثا على
تعاطي الخبث بل هو حث على جذب الناس الى الخير بالاحتيال ويكون المكر والخديعة
ضربين سيا وحسنا قال الله تعالى والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد
ومكر اولئك هو يبور وقال تعالى فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا استكبارا في
الارض ومكر السئ ولا يحيق المكر السيئ الا باهله وقال افامن الذين مكروا السيئات

فخص في الآيات السيء من المكر تنبيها على جواز المكر الحسن ووصف نفسه بالمكر الحسن وقال
والله خير الماكرين واما الكيد فارادة متضمنة لاستتار ما يراد عمن يراد به لكن
اكثر ما يستعمل ذلك في الشر ومتى استعمل وقصد به الشر فمذموم ومتى قصد به الخير
فمحمود وعلى الوجه المحمود قال تعالى كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ اخاه في دين الملك
وعلى ذلك الاستدراج منه قوله سنستدرجهم من حيث لا يعلمون الآية واستدراج
تعالى بعطائه السبيل على الانسان وتمكينه منه ليطلب بالآلات التي اعطاه ، وذلك
يمكنه لولا تعذر عليه فان كان فيه مشقة وتمكينه من ادراك ذلك قال الم نجعل له
عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فمن جاهد في سبيله واعمل فكره
حتى ظفر به تسهيله على ما يجب وكما يجب سهل عليه الوصول فكان ذلك منه منة واحسانا
واطفاء ومن عطل نعاونه من الفكرة والسمع والبصر حتى اضل طريقه كان ذلك
خذلانا وعذابا له وعلى نحو ما تقدم وصف نفسه تعالى بالحيلة والمماحلة في قوله وهو
شديد المحال وهذه الالفاظ لولا ان الباري اطلقها في مواضع مخصوصة قاصدا
بها معاني صحيحة لما تجاسر بشر عرف الله تعالى ان يخطر ذلك بباله فضلا ان يجريه
في مقاله وان قصد بها المعنى الصحيح تنزيها له وتعظيما فيجب ان يتلى في القرآن
حيث ما ورد ولا يتعدى بها وقد ذكر المحصلون ان كثيرا من الاوصاف الشريفة
كالرحيم والعفو والودود ما كان يتجاسر على الاطلاق عليه لولا السمع الوارد به
لما في هذه الاسماء من معنى الكيفية والكمية والانفعال في وضع اللغة والله تعالى منزه
عن كل ذلك وهذا فصل كبير يختص بغير هذا الكتاب حقيقة المحبة وانواعها المحبة
ميل النفس الى ما تراه وتظنه خيرا وذلك ضربان احدهما طبيعي وذلك في الانسان
وفي الحيوان وقد يكون في الجمادات كالالفة بين الحديد وحجر المغناطيس والثاني
اختياري وذلك يختص به الانسان فاما ما يكون بين الحيوانات فالفة وهذا الثاني

اربعة اضرب الاول للشهوة واكثر ما يكون بين الاحداث والثاني للمنفعة ومن جنسه ما يكون
بين التجار واصحاب الصناعات المهنية واصحاب المذاهب والثالث مركب من الضربين
كمن يحب آخر لنفع وذلك الآخر يحبه للشهوة والرابع للفضيلة كمحبة المتعلم للعالم وهذه
المحبة باقية على مرور الاوقات وهي المستثناة بقوله الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض
عدو الا المتقين واما الضروب الاخر فقد يطول مدتها ويقصر بحسب طول اسبابها
وقصرها والصداقة اخص من المحبة وقلما تقع بين جماعة ولا يستعمل في الحيوان واما
العشق فمحبة بافراط وذلك اما بحسب اللذة فيكون مذموما واما بحسب الفضيلة فيكون
محمودا ولا يكون للنفع فان النفع يراد لغيره واللذة والفضيلة يرادان لانفسهما
فضيلة المحبة احد اسباب نظام امور الناس المحبة ثم العدالة فلو تحابت الناس و
تعاملوا بالمحبة لاستغنوا بها عن العدالة فقد قيل العدالة خليفة المحبة ولذلك عظم الله
تعالى المنة بايقاع المحبة بين اهل الملة فقال لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين
قلوبهم ولكن الله الف بينهم وقال ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم
الرحمن ودا اي محبة في القلوب تنبيها ان ذلك اجلب للعقائد وهو افضل من المهابة
فان المهابة تنفر والمحبة تؤلف وقيل طاعة المحبة افضل من طاعة الرهبة فان طاعة
المحبة من داخل وطاعة الرهبة من خارج تزول بزوال سببه وكل قوم اذا تحابوا
تواصلوا واذا تواصلوا تعاونوا واذا تعاونوا عملوا واذا عملوا عمروا واذا عمروا
عُمِّروا ولفضل وقوع المحبة شرع الله تعالى اجتماع اهل المحبة في مساجدهم كل يوم خمس
مرات لاقامة صلواتهم واجتماع اهل البلد كل اسبوع مرة في الجامع واجتماع
اهل المدينة واهل السواد كل سنة مرتين في الجبانة واجتماع اهل البلدان النائية
في العمر مرة بمكة كل ذلك ليتأكد باجتماعهم الانس وليقع بسببه الود فضيلة الصداقة
الصديق يحتاج اليه في كل حال اما عند سوء الحال فليعاونوه واما عند حسن الحال فليؤانسوه

ولبعضهم معروف عندهم ومن ظن انه يمكن الاستغناء عن صديق فمغرور ومن ظن ان وجوده
سهل فمعتوه ولكثرة تعذره سئل حكيم عن الصديق فقال هو آخر بالشخص الا انه انت بالنفس
ولعزة وجوده سئل عنه آخر فقال هو اسم على معنى حيوان غير موجود فمن وجد اخوانا
ذوي ثقة وصدق يكونون له آذانا وعيونا وقلوبا كلها له فيرى الغائب بصورة الشاهد
واختيار من يركن اليه لتصادقه صعب اذ قد يتشبع لك الناقص فتظنه فاضلا
فيكون كمن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم **المحبب في الناس** من حببه الله الى الناس فقد
انعم الله عليه نعمة وسيعة كما ان من بغضه فقد جعل له نقمة قطيعة والسبب فيمن يكون محببا
ان من رعاه الله وصفى جوهره وطاب روحه وحسن عمله حصل له نور يتشوفه جميع
من يراه فيحبه واياه قصد بقوله لموسى عليه السلام والقيت عليك محبة مني وقال النبي عم اذا
احب الله عبدا القى محبته في السماء فلا يترى به عبد الا احبه واذا ابغض عبدا القى بغضه
في السماء فلا يترى به عبد الا ابغضه ولما القى الله على سيناء م من المحبة قيل ما باله من
يبغضه فيهم بعقله الا اذا رآه وقيل في افاق وجهه طرفه والقى الى كلامه سمعه اعجب فقال
على جميل **الحث على مصاحبة الاخيار** ومجانبة الاشرار حق الانسان ان يتحرى بغاية جهده
مصاحبة الاخيار فهي قد يجعل الشرير خيرا كما ان مصاحبة الاشرار قد يجعل الخير شريرا
قال بعض الحكماء من صحب خيرا اصاب بركته فجليس اولياء الله لا يشقى وان كان كلبا ككلب
اصحاب الكهف قال الله تعالى وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ولهذا اوصت الحكماء الاحداث
بالبعد عن مجالسة السفهاء قال امير المومنين علي رض لا تصحب الفاجر فيزين لك فعله
ويود لو انك مثله وقيل جالسوا من يذكركم الله رؤيته ويزيد في خيركم نطقه وقالوا اياك
ومجالسة الاشرار فان طبعك يسرق من طبعهم وانت لا تدري بل قال النبي عم مثل الجليس
الصالح كمثل الداري ان لم يحذك من عطره يعلقك من ريحه ومثل الجليس السوء كمثل القين
ان لم يحرقك بشرره يؤذيك بدخانه وقال عم المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخالل

اي يحذو خليله الى دينه ومن قوة هذا المعنى في النفوس شاع على الالسنة قول الشاعر
عن المرء لا تسأل وابصر قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدي ... وروي عن رسول الله صلعم
قال كلمة القاها الله على لسان طرفة قال القرين بالمقارن مقتدي وليس اعداء
الجليس جليسه خلقه بمقاله وفعاله فقط بل بالنظر اليه فالنظر الى الصور يؤثر في
النفوس اخلاقا مناسبة لخلق المنظور اليه فان من دامت رؤيته لمسرور سر وللمحزون حزن
وليس ذلك في الانسان فقط بل في الحيوانات والنبات فالجمل الصعب قد يصير ذلولا بمقارنة
الجمال الذلل والذلول قد ينقلب صعبا بمقارنة الصعاب والريحانة الغضة تذبل
بمجاورة الذابلة ولهذا يلتقط اصحاب الفلاحة الرمم عن الزروع لئلا تفسدها ومعروف
ان الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة اذا قربت منهما وذلك مما لا ينكره ذو تجربة واذا
كانت هذه الاشياء قد بلغت في قبول التأثير هذا المبلغ فما الظن في النفوس البشرية
التي موضوعها لقبول صورة الاشياء خيرها وشرها فقد قيل سمي الانس لانه يأنس
بما يراه ان خيرا وان شرا وللانسان في المعاشرة ثلثة احوال اما ان يكون شكسا اي
قاسي الطبع او ملقا اي سلس الطبع او مساعدا اي تاركا للخلاف على مقتضى العقل
وهو المحمود وحق الانسان في المعاشرة ان يسعى من جهة الفكرة بالمطايبة في الكلام
من جهة الغضب بالحلم ومن جهة الشهوة بالجود وان يتحرى من اضداد ذلك وان
يجامل المعاندين والمعاشرين والمنتسبين بالاخوان وان يتصابرهم ويكاشرهم
طمعا في رجوعهم احبابا واتقاء من شرورهم حتى يكون ظريفا والظرف عبارة عن
عن استجماع آلة العشرة من الطلاقة والاحتمال ولين الجانب **فضيلة التفرد** عن الناس
ورد بلفظة قد كثر اختلاف الناس في مفاضلة التفرد والاختلاط فبعضهم اثر
التفرد عن الناس وبعضهم اثر الاختلاط بهم واورد كل واحد في ذلك اخبارا وذلك
بسبب اختلاف نظرهما واشتباه احدهما بمصاحبة من لم يجد مصاحبته ومصاحبة

الآخر من حمد صحبته والاصل ان اجتماع الناس بعضهم مع بعض امر ضروري لتعلق امور بعضهم
ببعض ولذا لما سمع امير المؤمنين عليه السلام رجلا يقول اللهم اغنني عن الناس فقال يا رجل
اراك تسال الله الموت قل اللهم اغنني عن شرار الناس فالناس لا يستغني بعضهم عن بعض
ما داموا احياء في المعاشرة والتفرد عن الاخيار الذين يفيدونك ويعينونك في الدين والدنيا
مكروه سيما اذا لم يتدرب في الفضل ولم يستغن عن اقتباس العلم واما عن الاراذل الذين
يتدنس بمصاحبتهم فمحمود وقيل التفرد مكروه الا لثلاثة سلطان في الانشاء او ليد مملكة
وحكيم لاستنباط الحكمة ومتنسك لمناجاة رب العزة فان التفرد يبطل الانسانية
ولا يظهر من صاحبه فضيلة ومن ظن بالمتفرد خيرا فلاجل انه ليس يظهر عنه شر وهذا
يشاركه فيه الموتى وفضيلة الانسان ان يكون خيرا لا ان يكون شريرا وان كان زمانا
قال اني لفي زمن ترك القبيح به من اكثر الناس احسان واجمال فحق العاقل الكامل
ان يجمع مع العامة في ظواهر احكام الشرع واقامة وظائف العبادات ويأتيهم
من الفضيلة بقدر الوسع ويترفع عن منزلتهم في المعارف والاخلاق والافعال الجميلة
ولمراعاة حكم الظاهر قال النبي صلى الله عليه وآله عليكم بالسواد الاعظم ولمراعاة الترفع عن منزلتهم
في المعارف والاخلاق قيل المروة الظاهرة مباينة العامة بل قيل من لم يستانس بالله
استوحش من الناس وذلك لمخالفتهم اياهم في الخلق وللنهي عن الاعتزال يكثر منهم
والركون اليهم سيما في ليس وصلة الآخرة وطلب الحق قال الله ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم
ولو سمعوا ما استجابوا لكم وقال الذين يدعون من دونه [illegible] العداوة العدو
هو الذي يعدي فلان ومعناه فعل العدو وهو من قولهم مكان ذو عدواء اي متباعد
الاحزاب [illegible] ونضاد العداوة الولاية واشتقاقه من وليه يليه والولاية هم
من الصداقة والمودة والعداوة ضربان باطن لا يدرك ذاته بالحس وظاهر يدرك بالحس
والباطن العداوة اثنان احدهما الشيطان وهو اصل كل عدو يعادي يتعادا

يعني ما انساق الى الاخر ونضاده
في بوتي الصداق ونحوه

جوهرية وقد حذرنا الله منه غاية التحذير بقوله ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا
وقال الم اعهد اليكم يا بني آدم ان لا تعبدوا الشيطان وقال ان هذا عدو لك ولزوجك
وقال لا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين والثاني الهوى المعبر عنه بالنفس
في قوله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقال عليه السلام اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك
وكذا الغضب اذا كان فوق ما يجب ولكون هذه القوة في الانسان انما اثيرت طريقا
للشيطان في وصوله الينا وكونه كالخليفة له سماه النبي عليه السلام شيطانا فقال الهوى
شيطان والغضب شيطان وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام هذا من عمل الشيطان انه
عدو مضل مبين واما الظاهر من العداوة فالانسان وذلك ضربان ضرب هو
مصطنع للعداوة قاصد الى الاضرار اما مجاهرة واما مساترة وذلك اثنان واحد
يعادي كل واحد وهو كل انسان سبعي الطبع خبيث الطينة يعض لكل من
يحتاج اليه في العاجل الكل يهارش كل من لا يخافه كما قال الشاعر يسطو بلا سبب
وتلك طبيعة الكلب العقور ومثله هو الذي عناه تعالى بقوله شياطين الانس والثاني
عدو خاص العداوة وذلك اما بسبب الفضيلة والرذيلة كمعاداة الجاهل للعاقل واما
بسبب تجاذب نفع دنيوي كالتجاذب في رياسة وجاه ومال واما بسبب محبة
او مجاورة موروثة للحسد كمعاداة بني الاعمام بعضهم لبعض وذلك في كثير من الناس
كالطبع وقال رجل لآخر اني احبك فقال قد علمت ذلك فقال له من اين علمت فقال
لانك لست لي بسر بك ولا لي نسيب ولا جار قريب واكثر المعادات بين الناس
تتولد من شيء من ذلك والثاني عدو غير مصطنع للعداوة ولكن يؤدي حاله بالانسان
الى ان يقع بسببه في مثل ما يقع في كيد عدو فسمي عدوا لذلك كالاولاد والازواج وعلى
ذلك قال تعالى ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم وقال عليه السلام ليس عدوك الذي
ان قتلته اجرك الله في قتله وان قتلك ادخلك الله الجنة ولكن اعدى عدوك نفسك التي

بين حسبك وامرأتك يفجعك وأولادك الذين من صلبك فجعل عم هؤلاء أعداء
الإنسان لما كانوا سببا للهلاك الأخروي لما يرتكبه من المعاصي لأجلهم فيؤدي ذلك
إلى الهلاك الأبدي الذي هو شر من إهلاك المعادي المعاصي أيا ما واعلم أنه لكون بعض
الناس مشاركا للشيطان في المعاداة سماه الأعداء شياطين في قوله تعالى شياطين
الإنس والجن وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض
زخرف القول غرورا وقد سمي كل ما يتأذى به شيطانا حتى قال الشاعر ما لبلد الفقر
الأشطان محبوبه يودي بروح الإنسان والعقل اسم ... فجعل البلد ودروا شيطانا
لتأذيه بها **الفصل السادس فيما يتعلق بالصناعات والمكاسب**
والإنفاق والجود والبخل في حاجة الناس إلى اجتماعهم للتظاهر اعلم أنه لما صعب
على كل أحد أن يحصل لنفسه أدنى ما يحتاج إليه إلا بمعاونة عدة له فلقمة طعام لو
عددنا تعب تحصيلها من الزرع والطحن والخبز وصناع آلاتها لصعب حصره فلذلك
احتاج الناس لكي يجتمعوا فرقة فرقة متظاهرين ولأجل ذلك قيل الإنسان مدني الطبع
أي لا يمكنه التفرد عن الجماعة بعيشه بل يفتقر بعضهم إلى بعض في مصالح الدين
والدنيا وعلى ذلك نبه النبي عم بقوله المؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضا
وقوله مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا تألم بعضه
تداعى سائره وقيل الناس كجسد واحد متى عاون بعضه بعضا استقل ومتى
خذل بعضه بعضا اختل **تسخير الله تعالى الناس للصناعات المختلفة وعنايته كل**
أحد بما يتحراه لما احتاج الناس بعضهم إلى بعض سخر الله تعالى كل واحد منهم لصناعة
ما يتعاطاها وجعل بين طبائعهم وصناعاتهم مناسبة خفية واتفاقات سماوية
ليؤثر الواحد بعد الواحد حرفة من الحرف ينشرح بملابستها فتطيعه قواه لمزاولتها لها
فإذا جعل إليه صناعة أخرى فربما وجد متبلدا أو متبرما بها وقد سخرهم الله تعالى

لذلك لئلا يختاروا بأجمعهم صناعة واحدة فتبطل الأقوات والمعاونات ولولا ذلك لما اختاروا
من الأسماء إلا أحسنها ومن البلاد إلا أطيبها ومن الصناعات إلا أجملها ومن الأعمال إلا
أرفعها ولتشاجروا على ذلك ولكن الله تعالى بحكمته جعل كلا منهم في ذلك مجبرا في صورة مخير
فالناس إما راض بصنعته لا يبغي عنها حولا كالحائك الذي يرضى بصناعته ويعيب الحجام
والحجام الذي يرضى بصناعته ويعيب الحائك وبذا انتظم أمرهم كما قال تعالى فتقطعوا أمرهم بينهم
زبرا كل حزب بما لديهم فرحون وإما كاره لها يكابدها مع كراهيته إياها كأنه لا يجد
عنها بدلا وعلى هذا دل قول النبي عم كل ميسر لما خلق له وصرح تعالى بقوله نحن قسمنا بينهم
معيشتهم في الحياة الدنيا الآية وقوله وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وقوله
قل كل يعمل على شاكلته ولهذا قال عم لن يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا
والاتفاق كالأخلاق وصور الكتابة فالتباين والتفرق والاختلاف في هذا الموضع سبب الالتئام
والاجتماع والاتفاق كالأخلاق وصور الكتابة وتباينها وتعددها التي لولاها لما حصل لنا
نظام فسبحان الله ما أحسن ما صنع وأحكم ما أسس وأتقن ما دبر ولهذا قيل من حق
من قيض له صناعة مباحة فيرزق منها أن يراعيها على ما يجب وكما يجب وعليه دل قول النبي
من رزق من شيء فليلزمه **كون الفقر وخوفه سبب نظام أمر الناس** حصول الفقر وخوفه
إنما كان للحرص هما الباعثان على الجد واحتمال الكد في منفعة الناس إما باختيار وإما
باضطرار ولهذا قيل رب ساع لقاعد وهو أن الإنسان لو كفي كل واحد منهم أمره لأدى
ذلك إلى فساد العالم من حيث إنه لم يكن أحد ينبري لخدمة غيره وكان الواحد منهم يعجز عن
القيام بمصالح نفسه كلها فيؤدي ذلك إلى فقد جميعهم وقد قيل قوام العالم بالفقر أكثر من
قيامه بالغنى لأن الصناعات القائمة بالغنى ثلاث الملك والتجارة والنيابة وسائرها
قائمة بالفقر فلو لم يكن الفقر والخوف منه فمن كان يتولى الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة
ومن كان ينقل الميرة والملابس من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال وعلى منفعة

الفقر بقوله تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحيوة الدنيا الآية وقوله تعالى ولولا ان يكون الناس
امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة مع ان من الناس من لو كفي
امر دنياه لكان يحصل منه من البغي والتسلط ما يؤدي خراب البلاد وفساد العباد
بل كان يحصل منه ما يؤدي الى هلاك نفسه في اسرع مدة وعلى ذلك قوله تعالى ولو بسط
الرزق لعباده لبغوا في الارض الآية ومن تدبر صنع الله في ذلك وتامل ما اشار
اليه في هذه الآيات التي ذكرتها لم يعرض له الشبهة التي تعرض لمن يقول اذا كان
الله غنيا جوادا واسعا فلم خص بعضهم بالغنى وجعل اكثرهم فقراء ومن حق الغني
الذي لا يفني غناه والجواد الذي لا يعرف لجوده منتهى ان لا يخص بالعطية بعضا دون بعض
وذلك ان الجواد الحق هو الذي يعطي كل احد بقدر استحقاقه على وجه يعود بمصلحته
ومصلحة غيره وقد جعل الله تعالى ذلك بالعباد **مناسبة بدن الانسان لصناعته**
ان الله تعالى فرق همم الانسان للصناعات المتفاوتة ويسر كلا لما خلق له وجعل الآلات
الفكرية والبدنية مستعدة لها فجعل لمن قيضه لمراعاة العلم والمحافظة على الدين قلوبا
صافية وعقولا بالمعارف لائقة وامزجة لطيفة وابدانا لينة متنصلة ومن قيضه
لمراعاة المهن الدنيوية والمحافظة عليها كالزراعة والبناء جعل لهم قلوبا قاسية
وعقولا كزة وامزجة غليظة وابدانا خشنة وكما انه محال ان يصلح السمع للرؤية
والبصر للسمع كذلك من المحال ان يكون من خلق للمهنة يصلح للحكمة وقد جعل الله
كل جنس من الفريقين نوعين رفيعا ووضيعا فالرفيع من تحرى الحذق في
صناعته واقبل على عمله وطلب مرضاة ربه بقدر وسعه وادى الامانة بقدر جهده
ولم يشتغل عن عبادة الله تعالى كما قال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله الآية
وقال عم ان الله يحب الصانع الحاذق ومدح الملائكة بوقوفهم حيث ما وقفوا واحكامهم
لما ولوا فقال لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون **وجوب التكسب** التكسب

في الدنيا وان كان يعد في المباحات من وجه فانها من الواجبات من وجه وذلك
انه اذا لم يكن للانسان الاستقلال بالعبادة الا بازالة ضروريات حيوته فازالتها واجبة
لان كل ما لا يتم الواجب الا به فواجب كوجوبه واذا لم يكن الى ازالة ضرورياته سبيل الا باخذ
تعب من الناس فلا بد اذا ان يعوضهم بعمالة والا كان ظالما فمن توسع في تناول
عمل غيره في ماكله وملبسه ومسكنه وغير ذلك فلا بد له ان يعمل لهم عملا بقدر ما يتناوله
منهم والا كان ظالما لهم قصدوا افادته او لم يقصدوها فمن رضي بقليل من عملهم فلم
يتناول من دنياهم الا قليلا رضي منه بقليل عمل ولهذا قال عم من رضي من الله بقليل
الرزق رضي الله منه بقليل من العمل ومن اخذ منهم المنافع ولم يعطهم نفعا فانه
لم ياتمر لله في قوله وتعاونوا على البر والتقوى الآية ولم يدخل في عموم قوله والمؤمنون
والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ولهذا ذم من يدعي التصوف فيتعطل عن المكاسب
ولا يكون له علم يوخذ عنه ولا عمل صالح في الدين يقتدى به بل يجعل همه فارغة بطنه وفرجه
فانه ياخذ منافع الناس ويضيق عليهم معاشهم ولا يرد اليهم نفعا فلا طائل في مثلهم
الا ان يكدروا الماء ويغلوا الاسعار ولهذا السر كان امير المؤمنين عمر رضي الله عنه
اذا نظر الى ذي سيما سال عن حرفته فاذا قيل لا قال سقط من عينه واستحسن النبي عم
من وفد عبد القيس لما سالهم فقال ما المروة فقال العفة والحرفة ومن الدلالة على قبح
فعل من هذا صنعه ان الله تعالى ذم من ياكل مال نفسه اسرافا وبدارا فما حال من ياكل
مال غيره على ذلك ولا ينيلهم عوضا ولا يرد عليهم بدلا فحق كل مضطر الى الكسب ان يقتصر
على ما يسد فقره ورمقه ولا يحمل هم غده على يومه سر من يتبع السادات في جمع ماله
مخافة فقره فالذي فعل الفقر ومن اقتصر على قدر ذلك فقد صار من المتوكلين
الذين عناهم النبي عم بقوله لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو
خماصا وتروح بطانا **مدح السعي وذم الكسل** من تعطل وتبطل انسلخ من الانسانية

بل من الحيوانية وصار من جنس الموتى وذلك انه خص الانسان بالقوى الثلاث ليسعى
في فضيلتها فان فضيلة القوة الشهوية يطالبه بالمكاسب التي تنميه وفضيلة القوة
الغضبية يطالبه بالمجاهدات التي تحميه وفضيلة القوة الفكرية يطالبه بالعلوم
التي تهديه فحقه ان يتأمل قوته ويسعى قدر ما يطيق فيسعى بحسبه لما يفيده السعادة
ويتحقق ان اضطرابه سبب وصوله من الذل الى العز ومن الفقر الى الغنى ومن الضعة
الى الرفعة ومن الخمول الى النباهة وان من تعود الكسل ومال الى الراحة فقد الراحة
فحيث الهوينا مكسب البؤس وقد قيل ان اردت ان لا تتعب فاتعب كيلا تتعب وقيل اياك
والكسل والضجر فانك ان كسلت لم تؤد حقا وان ضجرت لم تصبر على الحق وقال الشاعر
ان التواني انكح العجز بنته وساق اليها حين انكحها مهرا فراشا وطيئا ثم قال لها اتكئي
فقصركما لا شك ان تلدا فقرا وقال يزيد بن المهلب ما يسرني ان كفيت امر الدنيا
كله لئلا اتعود العجز ولان الفراغ يبطل الهيئات الانسانية فكل هيئة بل كل عضو
ترك استعماله كالعين اذا غمضت واليد اذا عطلت ولذلك وضع الرياضا ضاع كل
شيء ولما جعل الله للحيوان قوة التحرك لم يجعل له رزقا الا بسعي منه لئلا تتعطل فائدة
ما جعل له من قوة التحرك ولما جعل الله للانسان قوة الفكر ترك من كل نعمة انعمها
عليه جانبا يصلحه هو بفكرته لئلا تتعطل فائدة الفكر فيكون وجودها عبثا وتأمل
حال مريم عليها السلام وقد جعل لها من الرطب الجني ما كفاها مؤنة الطلب وفيه
اعظم معجزة فانه لم يخلها من ان امرها بهزها فقال وهزي اليك بجذع النخلة تساقط
عليك رطبا جنيا وكما ان البدن يتعود الرفاهية بالكسل كذلك النفس بترك النظر
والتفكر تتبلد وتتبله وترجع الى رتبة البهائم فحق الانسان ان لا يذهب عامة اوقاته
الا في امر دينه او اصلاح امر دنياه متوصلا به الى اصلاح امر آخرته مراعيا لما قال
الحجاج ان امرأ اتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه او يستغفر من ذنبه

او تفكر في معاده فجدير ان يطول حسرته يوم القيامة واذا تأملت قول النبي عم
سافروا تغنموا ونظرت اليه نظرا عاليا علمت انه حثك على التحول الذي يثمر لك
جنة المأوى ومصاحبة الملأ الاعلى بل مجاورة الله تعالى وذلك يحتاج الى اربعة
اشياء معرفة المقصود المشار اليه بقوله توبوا الى الله جميعا ايها الناس ايها المؤمنون
لعلكم تفلحون ومعرفة الطريق اليه المشار اليه بقوله قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة
وتحصيل الزاد المتبلغ المشار اليه بقوله تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى والمجاهدة
في الوصول اليه كما قال تعالى وجاهدوا في الله حق جهاده فهذه الاشياء من الغرور الذي
خوفه الله منه في قوله تعالى ولا يغرنكم بالله الغرور وهذه من المعالي التي دونها هول
العوالي ولا صبر لمن رامها ان يدرع الصبر فقد اصاب من قال شعر وعلل المرجي يعالي
الامور بغير اجتهاد جوب المحال

تقسيم الصناعات ومراتبها وفضيلة بعضها على بعض

الصناعات ثلاثة اضرب اما اصول لا قوام للعالم دونها وهي اربعة اشياء الزراعة
والحياكة والبناية والسياسة واما مرشحة لكل واحدة وخادمة له كالحدادة للزراعة
والحلاجة والغزل للحياكة واما متممة لكل واحدة من ذلك ومزينة لها كالطحانة والخبازة
للزراعة وكالقصارة والخياطة للحياكة ومثل ذلك بالاضافة الى العالم مثل اجزاء
الشخص بالاضافة الى الشخص سواء فانها على ثلاثة اضرب اما اصول كالقلب والكبد
والدماغ واما مرشحة لذلك الاصول وخادمة لها كالمعدة والعروق والشرايين واما
مكملة لها ومزينة كاليد والحاجب واشرف اصول الصناعات السياسة وهي اربعة اضرب
سياسة الانبياء وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم والثاني الولاة وحكمهم
على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم والثالث الحكماء وحكمهم على باطن الخواص
والرابع الفقهاء والوعظ وحكمهم على بواطن العامة واشرف هذه السياسات
الاربع بعد النبوة افادة العلم وتهذيب الناس وبيان ذلك ان شرف الصناعة

يتبين من اوجه اما بحسب النسبة الى القوة المدركة فكفضل معرفة الحكمة على معرفة
اللغات فان الاولى متعلقة بالقوة العقلية وهذه بالقوة الحسية والعقل اشرف
من الحس واما بحسب عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة واما بحسب شرف الموضوع
المعمول فيه كشرف الصياغة على الطباغة وقد علم ان الحكمة يدرك بالقوة المفكرة وهي
اشرف قوة وانه يتوصل به الى جنة المأوى وذلك ابلغ نفع وموضوعه الذي يعمل
فيه نفوس البشر وهي افضل موضوع يعمل فيه بلى موجود في هذا العالم وافادة العلم
من وجه صناعة ومن وجه عبادة ومن وجه اجل خلافة الله فان الله متى سبحانه
فتح على قلبه العلم الذي هو اخص صفاته فهو خازن لاجل خزائنه وماذون
له الله في الانفاق على كل احد ممن لا يفوته عليه وكلما كان انفاقه على ما يجب وكما يجب
اكثر كان جاهه عند مستخلفه اوفر في ان اصول الصناعات ماخوذة عن وحي وذاك
ان بعض الانسان وحاجة بعضهم الى بعض وانما فهو محتاج الى الكامل فلا يخلو
اما ان يتصور اخذ واحد عن واحد بلا نهاية وذلك ايجاب ما لا نهاية له وهو محال
واما ان ينتهي الى واحد من البشر علمه الله الصناعات اما بسماع من الملأ الاعلى
وهذا هو الحد معلوم لدى اللبيب ان قوى العاقلين وطبائع الحيوانات مما لا يدرك ادراك
خواصها بافهام البشر وتجربتهم ورؤساء كل صناعة يعترفون بذلك واهل
النجوم يعولون مبادي النجوم من هرمس ويقولون هو الذي عرج بروحه الى السماء
واطلع على ملكوت السموات وهرمس قيل هو ادريس عم وكذلك اصحاب الطب يعزون
مثل ذلك في معرفة الادوية واحصاء كل واحد من الموجودات بفعل له على حدته
وانحسار العقل عن توهم ما هو اصلح لذلك الفعل منه تحقق انه صدر عن حكمة الهية
في بيان الناض المتعامل به وبيان حكم الله فيه اعلم ان الناض احد اسباب ما به قوام
الحيوة البدنية ومتى توهمنا مرتفعا تعسر على الناس برهة معاشهم وقد تقدم

ان الناس يحتاج بعضهم الى بعض ولا يمكنهم التعايش ما لم يتظاهروا او يتولى كل
واحد منهم عملا يصيره معيشا للآخر بواسطة ولما كان كل من واسى غيره فمن
حقه ان يقابل بقدر مواساته لكن ربما لا يحضره حاجة ما يريد هو فيعطيه الله لهم
هذا الناض علامة فيه ليدفع الانسان الى من يوليه نفعا فيحمله الى من عنده مبتغاه
فيأخذ منه قدر عمله ثم اذا جاء ذلك الآخر الى الاول بتلك العلامة اعطاه مثلها وطلب
منه مبتغاه هو عنده دفعه الله اليه لينتظم امرهم بذلك ولهذا قيل الدراهم حاكم صامت
وعدل ساكت وحكم من الله نافذ وقيل لهذا المعنى سمي في لغة الفرس الدينار دين آراي
الدين اتى به والدين في العربية معربة ولما كان ذلك حاكما وعند من احتبسه احبسه
ومنع الناس التعامل به قال الذين يكنزون الذهب والفضة الاية وذلك انه يصير
باحتباسه اياهما كمن احتبس حاكمين للناس بهما يمشي امور معاشهم ولذلك قال عم الذي
يشرب في آنية الفضة انما يجرجر في جوفه نار جهنم لان اتخاذ الفضة والذهب آنية
يؤدي الى منع الناس عن تصريفه في معاملاتهم وتضييقه عليهم مكاسبهم مدح المال
وذمه المال اذا اعتبر بكونه احد اسباب الحيوة الدنيوية فهو عظيم الخطر كما تقدم واذا
اعتبر بسائر القنيات فهو صغير الخطر اذ هو اخس القنيات فالقنيات ثلث نفسية
وبدنية وخارجية والخارجة ادونها وادنى الخارجات الناض لانه خادم غير مخدوم
وسائر القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه لان النفس يخدمها البدن والبدن
يخدمها المأكل والملبس وهما يخدمهما المال فالمال من حقه ان يكون خادما لغيره من
القنيات وان لا يكون شيء من القنيات خادما له وان كان كثير من الناس لجهلهم يجعلون
جاههم وابدانهم ونفوسهم خدما للمال وعبيدا وهم الذين ذمهم النبي عم بقوله تعس عبد
الدراهم تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة واذا تعس لا انتكس واذا شيك فلا انتقش ولعظم
موقع المال عند امر لم يتجاوز المحسوسات قال حكاية عن بعض انبيائه فيما خاطب به امته

استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين ويجعل
لكم جنات ولعظم منافع الامور الدنيوية قال ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل
الله لكم قياما ونبه على حقارتها بالاضافة الى احوال الآخرة فقال لا تلهكم اموالكم
ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون وخوف من الغبن بافتنانه
وذمه فقال ايحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون
وقال ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا الآية فحق الانسان ان يعد المساعي
الدنيوية آلات موضوعة في حال سفر يصلح للانتفاع به ما دام نازلا في ذلك الخان
فيتناول منه مقدار البلغة ويتسلى عنها عند الترحل ويستهجن لنفسه ان يكذب ويغضب
ويحزن او يرتكب القبائح بسببها واعلم ان الناض الذي هو العين والحجر جعله الله سببا
للتعامل به كما تقدم القول فيه كما ذكرنا فقبيح للحر المترشح لنيل الفضائل
والاقتداء بالباري جل ثناؤه والوصول الى النعيم الابدي ان يتهافت على المال باكثر من الحاجة
اليه ويجعل نفسه اول رقيق واخسه فرق رقيق الاطماع رق مخلد ويكون معتكفا على حجر
يعبد كما قال يعكفون على اصنام لهم وروي ان ابراهيم عم لما سأل الله تعالى اجنبني وبني
ان نعبد الاصنام لم يرد الا ان يحرسه وذريته عن محبة الاعراض الدنيوية الصارفة
عن الله تعالى من مال واولاد وبنين عن ان يشغفوا من اعتقاد في حجارة صامتة ويستحق عبادة
وقد قال في موضع آخر اشارة الى ما يعم هذا المعنى وغيره يا ابت لم تعبد ما لا يسمع
ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا وقال بعض القدماء من الحكماء مثل الانسان وشغفه بهذا
الحجر وسائر الاعراض الدنيوية كركب في سفينة الى ان وصل بلد فانتهى بهم السفينة
الى جزيرة ذات اسود واساود فامروا بالخروج والتهيؤ للطهارة وان يكونوا على
حذر فراوا حجرا مونقا وزهرا منورا فاعجبهم ذلك وشغفوا بها فتباعدوا عن
المركب ونسوا مركبهم ومقصدهم فبقوا لاهين حتى سارت السفينة فثارت عليهم

كما قال
الاسود بغرسهم والاساود تنهشهم فلم يغن عنهم حجرهم وزهرهم فصاروا
حكاية لمن هذه حالة ما اغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه

ذكر المال والادب في اقتنائه والوجوه التي منها يحصل

قد تقدم ان المال من الخيرات المتوسطة لانه كما قد يكون سببا
للخير قد يكون سببا للشر لكن لما كان في اكثر الاحوال موجب كرامة اصحابه وتعظيم اربابه
حتى صدق الشاعر في قوله الناس اعداء لكل مدقع صفر اليدين اخو للمكثر
وحتى قيل رايت المال مهيبا وقال عم نعم المال الصالح للرجل الصالح واستصوب
قول طلحة رض في دعائه اللهم ارزقني مجدا ومالا فلا يصلح المجد الا بالمال ولا يصلح المال
الا مراعاة المجد ونظر المتنبي هذا النظر حيث قال فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده وقال بعض الحكماء اطلب العلم والمال تحز الرياسة فالناس
خاص وعام فالخاص يفضلك بما تحسن والعام بما تملك واكتسابه من الوجه الذي يسوغ
صعب وتفريقه سهل كما قال الشاعر له مصعد صعب ومنحدر سهل ومن رام اكتسابه
من وجهه صعب عليه فالمكاسب الجميلة قليلة عند الحر العاقل ومن رضي بكسبه من حيث
ما اتفق فقد يسهل عليه والفاضل يعف عن اقتناء المال ويسترسل من انفاقه
ولا يريده لذاته بل لاكتساب المحمدة ولا يجمع المال عنده مدخرا لكن كما قال الشاعر
لا يألف الدرهم المصرور صرتنا لكن يمر عليها وهو منطلق انا اذا اجتمعت يوما دراهمنا
ظلت الى طرق المعروف تستبق وغير الفاضل يسترسل في اقتنائه وينقبض عن انفاقه
ويطلبه لذاته لا لادخار الفضيلة به والمال يحصل من وجهين احدهما بسبب منسوب
الى الجد المحض والبخت الصرف من غير اكتساب من صاحبه كمن ورث مالا او وجد
كنزا او قيض له من اولاه شيئا والثاني يكتسب الانسان كمن يشتغل بتجارة وصناعة
فيدخر منها مالا وهذا الاخير ايضا لا يستغني فيه عن الجد ولهذا قال وعلي ان اسعى
وليس علي ادراك النجاح فحظ الجد في المال اكثر من حظ الكد كما في الاخلاق والاعمال

الاخروية التي حظ الكد فيها اكثر وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله من كان يريد العاجلة
عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد الى قوله مشكورا فاشترط في العاجلة مشيئته للعطاء وارادته
للمعطى له ولم يشترط السعي واشترط في الآخرة السعي لها مع الايمان ولم يشترط ارادته
ولم يشترط السعي واشترط في الآخرة السعي لها نحو مشيئته وان كان ذلك لا يتعرى منهما فحق
العاقل ان يعلم ان ما اطلبه ناله واذا ماله لم يجوزه ويتعلق المبالاة بما ان قدر له
اتاه طلبه او لم يطلبه وقال بعض الحكماء ان البخت بمنزلة امرأة حمقاء وعمياء ورعناء
في حجرها جواهر وهي قاعدة على جسر ممدود وتسمعها ناس كثير يلتمسون ما عندها وهي
لا تسمع قولا ولا ترى وجها وقد اعتزل عنها قوم قليل العدد وقعدوا ناحية وهي في
كل ساعة تولي فتقبض مما في حجرها واصاب القوم لا تخص تناولها بل ربما اعطتهم
وربما تعطيهم كانها العبثة بقول الشاعر لا تمدحن ابن عباد وان هطلت كفاه
جودا ولا تذممه ان زما فليس يبخل ابقاء على نشب ولن تجود بفضل المال حزما
لكنه خطرات من وساوسه تعطي وتمنع لا بخلا ولا كرما ونار تتوهج على من اعطته
فتسلبه سلبا وتدوس بحوافرها دوسا واما الفضائل الاخروية فكما قيل العلم
لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك فان اعطيته كلك فانك من اعطائه اياك بعضه
على خطر ولهذا قال تعالى وان ليس للانسان الا ما سعى حال العاقل والجاهل
الحكمة تقتضي ان يكون العاقل الحكيم في اكثر الاحوال مقلا وذلك لانه لا ياخذ المال
الا كما يجب من الوجه الذي يجب وفي الوقت الذي يجب ثم اذا تناوله لم يدخره من مكرمة
تعرض له والجاهل يسهل عليه الجمع من حيث لا يبالي فيما يتناوله بارتكاب محظور
واستباحة محجور وسؤال الناس ما في ايديهم بالملق ومساعدتهم على ارتكاب
الشر طمعا في نفعهم وكثيرا ما يرى منهم في جملة الموصوفين بقوله ومن الناس
من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق شاكين لنعمه وبعضهم

يغضب على الفلك وبعضهم يحصل على القدر وبعضهم يتجاوز القضاء فيعاتب الله حتى قال
بعض المجان بقوله نحن قسمنا بينهم زال المراء ولو تولى غيره قسمة ارزاق الورى
جرت خطوب بيننا لكننا تحت الغرى وذلك لجهلهم على ارتكاب القبائح وجهلهم
بما يفيض الله لعباده من المصالح وقول الشاعر هذا الذي ترك الالباب حائرة
وصير العالم النحرير زنديقا فان الذي يصير بذلك زنديقا فبان يسمى الجاهل الشرير
اولى من ان يسمى العالم النحرير فقال حكيم سوء لمن اعطي العلم فجزع لفقد الذهب والفضة
ولمن اعطي السلامة والدعة فجزع لفقد الالم والتعب فثمرة العلم السلامة والدعة
وثمرة المال التعب والالم كيف يكون المال في ايدي الناس ان الله تعالى اوجد اعراض
الدنيا بلغة فالجاهل الناس عقلا وصير الدنيا مرتحلا وحمرا فقيرة ومقرا الا
قليلا انزلوها حيث انزلها الله وهم الذي وصفهم بقوله وقليل من عبادي الشكور
تاجروا اسهارتهم كما قال تعالى يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم
الى قوله تعلمون فاعراض الدنيا من وجه عارية في ايدي الناس مسترد كما قال وما المال
والاهلون الا ودائع ولا بد يوما ان ترد الودائع ومن وجه منح يمنح الانسان لينتفع
بها مدة ثم يسترد ومن وجه ودائع في يده رخص في استعمالها والانتفاع
بها بقدر لا يسرف لكن الانسان لجهله ونسيانه لما عهد اليه بقوله ولقد عهدنا الى آدم
من قبل فنسي ولم نجد له عزما اغتر بها فظن ان جعلت له هبة موبدة فركن اليها واعتمد
عليها ولم يؤد امانة الله فيها ثم لما طولب بردها تفجر منه وضجر فلم تخرج عنها الا بنزع
روحه او كسر يده وبعضهم وهم الاولون حفظوا ما عهد اليهم فيها وتناولوا العارية
والمنحة والوديعة فادوا فيها الامانة وعلموا انها مسترجعة فلما استردت منهم لم يحضروا
ولم يجزعوا وردوها شاكرين لما نالوا منها ومشكورين لاداء الامانة فيها وقد ذكر
بعض الحكماء في ذلك مثلا فقال ان مثل الناس فيما اعطوه من اعراض مثل رجل

دعا قوما الى دار، فاحضر طبق ذهب عليه بخور ورياحين، وكان زاد اذا دخل احدهم يتلقاه ويرفع
اليه لا ليتملكه بل ليشمه ويدفعه الى من يجيء بعده، فمن كان جاهلا برسومهم ظن انه قد وهب له
فتضجر اذا استرجع منه، ومن كان عارفا برسومهم اخذه بشكر ورده بانشراح صدر
تفاوت احوال الناس في تناول اعراض الدنيا طلب الدنيا وتناولها على ثلاثة اضرب، فالاول من
يتناولها على اي وجه اتفق راكنا الى المال غير مفكر في المآل واياه قصد تعالى بقوله في ذم من
يحسب ان ماله اخلده كلا، والثاني من تناولها على وجه يجب عليه تناوله وذلك اذا اقتصر
على ما لا يمكن التبلغ باقل منه من الوجه الذي يجب كما يجب ولوجوب تناول هذا القدر
قيل فيما حكي عن الصوفية فريضة، وقد رويتم مباحث بمعنى انه لا يقدم على تناول اعتباطا حتى
يضطر اليه فيجب تناوله عليه فيصير ما كان مباحا له فرضا عليه ويعد من الواجبات
فوق ما يجب عليه متسارعا اليه حتى يصير حكمها حكم النوافل وروي من طلب رزقه على ما سن
فهو في جهاد، وقال ع م ابن مسعود ان المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى في اللقمة يضعها في
امراته، ولم يعن ان كل احد على كل حال يؤجر في ذلك وانما اراد تخصيص المؤمنين الذين
يراعون حكم الله في مكاسبهم وانفاقهم ويتحرون في ذلك عبادة الله، والضرب الثالث
من يتوسع في تناولها ويراعي فيه حكم الله فيكون وكيلا لله فيقتصر منها لنفسه على تناول
بلغة ويجعل الباقي مصروفا الى ما دعي الله فهذا افضل من تقدم ذكره فانه يصير بذلك
من خلفاء الله في تناول الدنيا على احد هذين الوجهين فعدا رتبتهم تعالى في قوله
ولتبتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة الآية وبالاعتبار عنهم قال تعالى قل من حرم زينة الله
التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق الآية ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر
ان الارض يرثها عبادي الصالحون فجعلها لهم ثم قال ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين
اي من تحرى عبادة الله في تناول الدنيا فانه يبلغ بذلك مقصوده المذكور في قوله تعالى
وان الى ربك المنتهى، وقال لا جناح عليكم ان تبتغوا فضلا من ربكم والفضل هو الاحسان

قلبه بذلك ان تناول المال اذا تحرى به الوجه الذي يجب كما يجب فهو فضل واحسان يستحق به
الثواب وعلى ذلك قوله واسألوا الله من فضله وقال تعالى في مدح قوم تناولوا الدنيا كما يجب
من حيث ما يجب رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله **في بيان ما ورد من الآيات**
المتفاوتة في الفاظ في شأن الدنيا من تصور الوجوه الثلاثة التي تقدم ذكرها في تناول الدنيا
سقطت شبهته فيما ورد من الآيات والاخبار المتفاوتة في الفاظ من ذم الدنيا واعراضها
تارة ومدحها تارة وذلك ان ما جاء من ذمها فاعتبارا بمن رفضها خطأ ليعجل حظا
لنفسه وجعلها قاصية مرامه كما قال تعالى رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وما جاء من
مدحها فباعتبار تناولها وانفاقها على ما يجب وعلى ذلك قال امير المؤمنين علي رض الدنيا
دار نجاة لمن فهم عنها ودار غنى لمن تزود منها والناس فيها رجلان رجل باع نفسه
فاوبقها ورجل ابتاع نفسه فاعتقها وعلى هذين الوجهين مدح تارة عمارة الارضين
فقال واستعمركم فيها وقال ع م من غرس غرسا لم يأكل منه طائر ولا بهيمة الا كان له صدقة وذم تارة
عمارتها فقال تعالى اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد
منهم قوة واثاروا الارض وعمروها اكثر مما عمروها وقال ع م الدنيا قنطرة فاعبروها ولا
تعمروها **احوال الناس في مراعاة امور الدنيا والآخرة** الناس في ذلك ثلاثة اضرب صنف هم المنهمكون
في الدنيا بلا التفات منهم الى العقبى وهم المسمون عبدة الطاغوت وشر الدواب ونحو ذلك من
الاسماء، وصنف مخالفون لهم غاية المخالفة يراعون العقبى من غير التفات منهم الى مصالح الناس
وصنف متوسط وفوا الدارين حقهما وهذا الصنف هم عند الحكماء الافضلون لان بهم قوام
اسباب الدنيا والآخرة ومنهم عامة الانبياء لان الله تعالى بعثهم لاقامة مصالح العباد في المعاش
ولان امورهم مبنية على الاعتدال الذي هو اشرف الاحوال واجدر ان يكون ثلثتهم داخلين
في قوله تعالى وكنتم ازواجا ثلاثة فاصحاب الميمنة ما اصحاب الميمنة واصحاب المشأمة والسابقون
السابقون اولئك المقربون في جنات النعيم فالمراعي للدنيا والآخرة على ما يجب وكما يجب

من السابقين وجل قوام السابقين النساك الذين رفضوا الدنيا بالكلية محتجين بقوله تعالى وما خلقت
الجن والانس الا ليعبدون وخفي عن هذا القائل ان اعظم عبادة الله ما يكون عائدا بمصالح
عباده. وروى ابن مسعود عن النبي عم الخلق كلهم عيال الله واحب الناس الى الله انفعهم لعياله
ولانه كما يقبح ان يستعمل الانسان نامور نفسه وبدنه فيضيع احد جزئيه المركب عليه
كذلك يقبح ان يضيع الجزء الاخر الذي هو بدنه ودنياه لانه يصير مضادا لله في ابطال
ما ابقاه واوجده وقد قيل الناس ثلثة رجل شغله معاده عن معاشه وتلك درجة الفائزين
ورجل شغله معاشه عن معاده وتلك درجة الهالكين ورجل يشتغل بهما وذلك درجة المخاطرين
قال وقد علم ان القاعد بنا احسن حالا من المخاطر وقيل ان المنازل الرفيعة لا تنفك من مخاطرة
ولم يقصد هذا القائل بذلك ان يفضل القاعد وانما خوفا ان يترشح لطلابه الا من هو
قاصر عنها ويقوي ذلك ما روي ان بعض اولاد الملوك ممن تقوى في العلم والحكمة اعتزل الملك
وزهد في الدنيا وكتب اليه بعض الملوك قد اعتزلت ما نحن فيه فان علمت ان ما اخترته افضل
فعرفنا لنذر ما نحن فيه ولا نحسبن اقبل حيث لا بلا حجة فكتب اليه اعلم انا عبيد لملك رحيم
بعثنا الى حرب عدو وعرفنا ان المقصود من ذلك قهره او استمالته فلما ان المقصود
من ذلك قهره او استمالته فلما قربوا من الرجع صاروا ثلثة ثلث تحروا بطلب السلامة
منه فاعتزل عنه واكتسب ترك الملامة وان لم يكتسب المحمدة ومتهورا اقدم على غير بصيرة
فجرح العدو وثبره فاستجلب بذلك سخطه وشجاعا اقدم على بصيرة فقاتل وابلى
واجتهد حتى قتل العدو التام الغفور واني لما وجدتني ضعيفا رضيت بادنى الحالتين دون
المنزلتين فكن انت ايها الملك من افضل الطوائف تكن اكرمهم عند الله **بيان حال**
من يجوز له الاستكثار من اعراض الدنيا ومن لا يجوز ذلك الاعتبار في تناول الدنيا و
الاستكثار منها او الاستقلال والزهد فيها او الرغبة ليس بتناول والكثير بل بتناولها
من حيث ما يجب ووضعها كما يجب قال امير المؤمنين علي رضه لو ان رجلا اخذ جميع ما في الارض

وان لا يريد به وجه الله يسمى زاهدا ولو انه ترك جميع ما في الارض ولم يرد بتركه وجه الله لم يسم زاهدا
ولا كان لله في ذلك عابدا فليكن احدكم ما ياخذه ويترك ما يتركه لله عز وجل لا لغيره واعلم
ان الحكيم اذا تناول اعراض الدنيا جرى مجرى راق حاذق يتناول حية قد عرف نفعها
وضرها وامن سمها وشرها فيجري تناوله لها للوجه الذي ينتفع هو بها وينتفع غيره فهو
مباح له تناولها وغير الحكيم اذا تناولها فهو كجاهل اخذ الحية واستلان مسها وظن
انها مستصلح لان يتقلد بها فجعلها سخابا في عنقه فلدغته وقتلته وما احسن ما قال
الشاعر في وصفها هي دنيا كحية تنفث السم وان كانت المجسة لانت وكما لا يجوز للجاهل
بالرقية غير العارف بنفع الحية ان يقتدي بالراقي في تناول الحية والتصرف فيها كذلك
لا يجوز للجاهل ان يقتدي بالحكيم في تناول اعراض الدنيا وكما انه محال ان يسلك الاعمى من غير
قائد طريقا وعرا يسلكه البصير اذ هو غير امن ان يقع في هوة كذلك محال ان يسلك مستبدا
بذاته في تناول اعراض الدنيا طريقا يسلكه الحكيم العامل اذ هو غير امن ان يقع في هاوية
وايضا فالدنيا غانية رعناء كما قال الشاعر شيم الغانيات فيها فلا ادري لذا انثت
اسمها الناس ام لا فكما ان الغانية لا يجوز ان يدخل عليها ويخلو بها من الرجال الا من
كان محرما يؤمن عليها كذلك الدنيا لا يجوز ان يمكن منها الا الموطوع منها بالعفة والزهد
لئلا تغره وذلك كامير المؤمنين علي رضه حيث قال يا حمراء يا بيضاء احمري وابيضي
وغري غيري هذا جناي وخياره فيه اذ كل جان يده الى فيه ومن تصور ذلك علم ان
الله تعالى قد اباح الدنيا كلها لاوليائه على انهم لا يتناولونها الا على ما يجب وكما يجب
واذا تناولوها وضعوها كما يجب وحيث ما يجب وعلى هذا قال تعالى والله ان الارض يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وقال تعالى ان الارض يرثها عبادي الصالحون
الى غير ذلك من الآيات التي تقدم ذكرها **ما ينال ارباب الدنيا من العقوبات الدنيوية**
لله عز وجل عقوبات في معاقبة من يتناول ما لا يجوز تناوله من الدنيا او يتناوله من الوجه.

الذي يجوز لكنه لم يوف حقه احدى العقوبتين ظاهرة للبصر والبصيرة وذلك عقوبة من غصب
مالا مجاهرة او سرقه خفية وكل منع حق الله من الزكوات فان عقوبات ذلك ظاهرة
امر السلطان باقامتها والثانية خفية عن البصر يدركه ساير اولى الالباب كعقوبة من يتناول
من يتناول مالا من حيث لا يجوز تناوله او منعه من حيث لا يجوز منعه لا على وجه فيه حد امر
السلطان باقامته فهذا عقوبته ما روي اي امرئ سكن قلبه حب الدنيا يلي بثلث شغل لا يبلغ
مداه او فقر لا يدرك واملا لا يدرك منتهاه . وما قال من كانت الدنيا اكبر همه شتت الله امره
وجعل فقره بين عينيه ولم يبال الله في اي واد من الدنيا اهلكه وعلى ذلك قال الله تعالى
انما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون وقال ومن اعرض عن
ذكري فان له معيشة ضنكا الاية وليس يعني قلة المعيشة وانما يعني ما يعاش فيها من الغموم
والهموم التي يكدر العيش عليه الانفاق المحمود والانفاق المذموم الانفاق ضربان محمود
ومذموم فالمحمود منه ما يكسب صاحبه العدالة وهو بذل ما اوجبت الشريعة بذله كالصدقة
المفروضة والانفاق على العيال فهو من الزمته الشريعة الانفاق عليه ومنه ما يكسب
صاحبه الحرية وهو بذل ما ندب الشريعة الى بذله فهذا يكتسب من الناس شكرا ومن ولي
النعم اجرا والمذموم ضربان افراط وهو التبذير والاسراف وتفريط وهو التقتير والامساك
كلاهما يراعى فيه الكمية والكيفية فالتبذير من جهة الكمية ان يعطي اكثر مما يحتمله حاله ومن
جهة الكيفية فبان يضعه في غير موضعه والاعتبار فيه بالكيفية اكثر منه بالكمية فرب
منفق درهما من الوف هو في انفاقه مسرف وبذله مفسد ظالم كمن اعطى فاجرا درهما
او اشترى خمرا ورب منفق الوفا لا يملك غيرها هو فيها مقتصد وبذلها محمود كما روي
في شان الصديق رضه وقد قيل لحكيم ما يكون بذل المال اسرافا والكثير اقتصادا فقال اذا
كان بذل القليل في باطل وبذل الكثير في حق والتقتير من جهة الكمية ان ينفق دون ما يحتمله
ومن جهة الكيفية ان يمنع من حيث يجب ويضع حيث لا يجب والتبذير عند الناس

احمد لانه جود لكنه اكثر مما يجب والتقتير بخل والجود على كل حال احمد من البخل لان رجوع
المبذر الى السخاء سهل وارتقاء البخيل اليه صعب ولان المبذر قد ينفع غيره وان اضر
بنفسه والمقتر لا ينفع غيره ولا نفسه على ان التبذير في الحقيقة هو من وجه اقبح
اذ لا اسراف الا وبجنبه حق مضيع ولان التبذير يؤدي بصاحبه الى ان يظلم غيره ولهذا
قيل الشحيح اعذر من الظالم ولانه جاهل بقدر المال الذي هو سبب استبقاء النفس
والجهل راس كل شر والمتلاف ظالم من وجهين لاخذه من غير موضعه ووضعه في
غير موضعه ولكثرة مقام الاسراف ذمه الله تعالى اعظم مما ذم به البخل فقال ولا تبذر
تبذيرا ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين الاية وقال ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك
ولا تبسطها كل البسط الاية اي تقعد ملوما من جهة من سالك فلم تجد ما تعطيه و
حسيرا عن بلوغ مرادك وبهذا المعنى فلا بخل في المجد ما لك كله فيبخل مجد كان بالمال
عقده . فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده . وليس الاسراف
متعلقا بالمال فقط بل بكل شيء وضع في غير موضعه اللائق به الا ترى ان الله وصف
قوم لوط بالاسراف لوضعهم البذر في غير المحرث فقال انكم لتاتون الرجال
شهوة من دون النساء بل انتم قوم مسرفون ووصف فرعون بقوله انه كان
عاليا من المسرفين وقال ان فرعون لعال في الارض وانه لمن المسرفين حقيقة السخاء
والجود والشح والبخل السخاء هيئة للانسان داعية الى بذل المقتنيات حصل معه
البذل او لم يحصل وذلك فضيلة تقابله الشح والجود بذل المقتنى وتقابله البخل هذا هو
الاصل وان كان قد يستعمل كل واحد منهما في موضع الاخر ويدل على صحة هذا الفرق
انهم جعلوا الفاعل في السخاء والشح على بناء الافعال الغريزية فقالوا شحيح وسخي
وقالوا جواد باخل واما قولهم بخيل فمصروف عن لفظ الفاعل للمبالغة كقولهم راحم ورحيم
ولكون السخاء غريزة لم يوصف الباري تعالى به وقد عظم الله الشح وخوف منه و

لهذا قال عم ثلث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه فخص المطاع لينبه
ان وجود الشح في النفس ليس مما يستحق به ذم اذ هو ليس من فعله وانما يذم بالانقياد
له وقال تع ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون وقال واحضرت الانفس الشح وقال
النبي عم لا يجتمع شح وايمان في قلب عبد ابدا **تفضيل الجود وذم البخل** الجود على السنة
الورى محمود ولذلك قيل كفى بالجود ان اسمه مطلقا لا يقع الا في حمد وكفى بالبخل ذما ان
اسمه لا يقع الا في ذم وقيل الحكيم اي فعل البشر اشبه بفعل البارئ تع فقال الجود وقال ٤٢
الجود شجرة من اشجار الجنة من اخذ بغصن من اغصانها اداه الى الجنة والبخل شجرة في النار
من اخذ بغصن من اغصانها اداه الى النار ومن شرفه ان الله تع قرن ذكره بالايمان ووصف
اهله بالفلاح والفلاح اجمع اسم لسعادة الدارين فقال الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون
الصلوة ومما رزقناهم ينفقون الى قوله هم المفلحون وقال تع ومن يوق شح نفسه فاولئك
هم المفلحون وحق للجواد ان يعتز فلا شيء اخص به واشد مجانسة له منه فمن صفة المؤمن
انشراح الصدر كما قال فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام الآية وهما من صفة
الجواد والبخيل لان الجواد يوصف بسعة الصدر للانفاق والبخيل بضيق الصدر للامساك
وقال عم اي داء ادوى من البخل ولان البخل ثلثة اضرب بخل الانسان بماله وبخله
بمال غيره وبخله على نفسه بمال غيره وهو اقبح الثلاثة والباخل بما في يده باخل
بمال الله على نفسه وقد تقدم ان المال عارية في يد الانسان مسترجعة فلا احد اجهل
ممن لا يعذب نفسه من العذاب الدائم بمال غيره سيما اذا لم يخف من مصاحبته تبعة
ولا غائلة ولا ملامة والكفالة الالهية متكفلة باعواض المنفق فقد قال عم اللهم
اجعل للمنفق خلفا ولممسك تلفا وقال الله عز وجل ينزل المعونة بقدر المؤنة
وروي من وسع وسع عليه **انواع الجود والمجود به** الجود خمسة اضرب جود الالهية
وهو البذل لكل احد على قدر استحقاقه وجود الملوك وهو بسط المال على الفقراء

غنيهم وفقيرهم وجود السوقة اي الذين هم دون الملوك وهو بذل المال للسؤال وجود
وهو البذل للندامى والمعاشرين والشرب وجود عوام الناس وهو الاحسان
الى الاقارب والمحمود من ذلك كله الجود الالهي وهو بذل الموجود لكل بقدر الطاقة
لكل محتاج بقدر استحقاقه من غير امتنان ولا تأذي به فالمعطي ما لا يحتاج اليه لمن
لا يحتاج اليه مسرف مضيع والمعطي غيره شيئا لرهبة او لرغبة ويعطيه لرغبة
في مثوبة او محمدة دنيوية فتاجر وقول ابي نواس فتى يشتري حسن الثناء بماله
ويعلم ان الدائرات تدور فليس تناهيا في الوصف بالجود التام بل وصف بتجارة
محمودة واحسن منه قول ابن الرومي * وتاجر البر لا يزال له * ربحان في كل متجر تجر *
اجر وحمد ولكن طلب الاجر ولكن كلاهما اعتوت وقد اجاد بشار في قوله شعر
ليس يعطيك للرجاء وللخوف * ولكن يلذ طعم العطاء * **الفصل**
السابع في ذكر الافعال انواع الافعال الافعال ضربان الهي وانساني والالهي
اربعة اضرب ابداع وتكوين وتربية واحالة وجميع ذلك يسمى خلقا من حيث كان
وجود كل واحد بمقدار والخلق في الاصل التقدير المستقيم فالاول الابداع وهو ايجاد
الشيء دفعة لا عن موجود ولا بترتيب ولا عن تعهد الة كالة وليس ذلك الا للباري
والكافة من العرب قد تستعمل الابداع فيمن يخترع شيئا في مكان لم يجد فيه قبل
فيمن ينسج شعرا او يولد كلاما لم ينسج على منواله قبل والثاني التكوين وهو ايجاد الشيء
عن عدم بترتيب وعن تعهد الة كالة والمتكلمون قد يستعملون التكوين موضع الابداع
ولما حققوا عن حقيقة التكوين استشنعوا قول من قال السماء ليست بمكونة
وقدروا انه يقول ليست بمبدعة ولا مخلوقة وانما اراد هذا القائل فجاد كد
اصحابه ودل عليه كلامه ان الله ابدعهما ابداعا كما قال بديع السموات والارض
ولم يخلقهما خلقة ناقصة في ابتداء نشاته ثم كملها شيئا فشيئا كالانسان

والحيوان والنبات والثالث رب الشيء وهو تعهده وذلك كاستخلاف الخليفة من
ابدان ما وجد عن كون ليستوي الملك المفرد به له وبه قيل الله رب العالمين والرابع احالة
الشيء وهو التغايير اللاحقة للكائنات في كيفيتها من طعم ولون ورائحة و
الفعل الانساني ثلاثة اضرب نفساني فقط وهو الافكار والعلوم وما
ينسب الى افعال القلوب وبدني وهو الحركات التي يفعلها الانسان في بدنه كالمشي
والقيام والقعود وصناعي وهو ما يفعله بمشاركة البدن والنفس كالحرف
والصناعات **الفرق بين العمل والفعل والصنع** الفعل لفظ عام لما كان
باجادة او غير اجادة ولما كان بعلم او غير علم وقصدا وغير قصد ولما كان من
الانسان والحيوان والجمادات واما العمل فانه لا يقال الا لما كان من الحيوان دون ما كان
من الجمادات ولما كان بقصد وعلم دون ما لم يكن عن قصد وعلم قال بعض الادباء
العمل مقلوب عن العلم فان العلم فعل القلب والعمل فعل الجارحة وهو يصدر عن فعل
القلب الذي هو العلم وينقلب عنه واما الصنع فانه يكون من الانسان دون سائر
الحيوانات ولا يقال الا لما كان باجادة ولهذا يقال للحاذق المجيد وللحاذقة المجيدة
صنع وصناع لا يكون بلا فكر لشرف فاعله والفعل قد يكون بلا فكر لنقص فاعله
والعمل لا يكون الا بفكر لتوسط فاعله فالصنع اخص المعاني الثلاثة والفعل اعمها
والعمل اوسطها وكل صنع عمل وليس كل عمل صنعا وكل عمل فعل وليس كل فعل عملا
وفارسية هذه الالفاظ تنبئ عن الفرق بينها فانه قيل للفعل كار وللعمل كردار
وللصنع كنش **انواع الصناعات** الصناعات ضربان علمي وعملي فالعلمي ما استغني
فيه عن الاستعانة بالجوارح من اليد والرجل كالمعارف الالهية والحساب والعملي
ما يحتاج فيه الى الاستعانة بالجوارح وذلك ضربان الاول شيء ينقضي بانقضاء
حركة الصانع كالرقص والزمر والمحاكاة والثاني شيء يبقى له اثر وذلك ضربان

ضرب يبقى له اثر معقول لا محسوس كالطب والبيطرة وضرب يبقى له اثر محسوس كالبناء
والكتابة **الافعال الارادية وغير الارادية** الافعال التي تظهر من غير الله اما
تسخيري واما غير تسخيري فالتسخيري هو الذي يظهر ممن يظهر لا بقصد وارادة
منه وقد يكون ذلك من الجماد والحيوان وذلك نوعان نوع بتسخير الباري تعالى كاحراق
النار وتبريد الثلج الماء وضرب بتسخير البشر كطحن الرحى ودور الدولاب
واما غير التسخيري فضربان ضرب يكون من فاعله مبدأ الارادة وضرب لا يكون
منه مبدأ الارادة والذي منه مبدأ الارادة ثلاثة الاول بحسب التمييز كمن تناول
الخير دون الشر موثرا له الثاني بحسب الغضب كمن يبطش بمن يعرض عليه الثالث
بحسب الشهوة كمن يتناول ما اشتهاها لشهوته والذي لا يكون منه مبدأ الارادة
ولا منتهاها كمن رمى غرضا فاصاب رجلا وضرب لا يكون منه مبدأ الارادة ولكن
يكون منه منتهاها كمن حصل في سفينة فخاف الغرق وكلف ان يلقي متاعه في البحر
ليتخلص والافعال من الجمادات تقع بالتسخير فقط ومن النبات تقع بالتسخير
وبالنزاع الذي تقتضيه القوة الشهوية ومن الحيوانات بها وبالغلبة التي تقتضيه
القوة الغضبية ومن الانسان يكون بكل ذلك وبالفكرة التي تقتضيها القوة
العاقلة **ما يستحق به من الافعال اللوم وما لا يستحق به ذلك** الافعال ضربان ضرب
ارادي وغير ارادي فالارادي ضربان ضرب عن روية وضرب لا عن روية فالذي
عن روية ضربان احدهما الذي عن روية يطلب غاية الشرف وهو ما يكون
بحسب النفس الناطقة ويسمى الاختيار وهو طلب ما هو خير له ويستحق به ابدا
الحمد اذا كان على الحقيقة اختيارا والثاني عن روية فيما ليس هو في غاية الشرف
وذلك اما بحسب القوة الغضبية وهو دفع ما يضره واما بحسب القوة الشهوية وكل
واحد منهما اذا كان بقدر ما يوجبه العقل يستحق به الذم والارادي الذي عن غير

رويّة واختيار ضربان أحدهما ما يفعله في نفسه والثاني ما يفعله بغيره وكل واحد منهما
ضربان نفع وضرّ فما قصد به نفع نفسه فقد يستحق به الحمد والشكر معاً وما قصد به
ضرّ نفسه فقد يستحق به الذم وما قصد به ضرّ غيره فقد يستحق به الذم والعتب عليه
وغير الإرادي يلحقه ضربان الأول أن يكون قسرياً وهو ما يكون مبدأه من خارج ولا يكون
من أربابه معونة بوجه كمن دفعته ريح فسقط على آنية فكسرها ولا ملامة فيه بوجه
الثاني أن يكون إلجائياً كمن أكرهه سلطان على أن يفعل فعلاً ما وهذا متى كان الملجأ إليه
قبيحاً جداً والسبب الملجئ إليه ضعيفاً يستحق مرتكبه الذم كمن يضرب بأن يقتل إنساناً
ومتى كان الملجأ إليه ليس قبيحاً جداً والسبب الملجئ إليه عظيماً لا يستحق مرتكبه الذم
كمن يوضع على حلقه السيف فيهدّد بأن يقتل إن لم يتكلم بكلام قبيح وكلاهما يقال له
الإكراه والثالث الخطأ وهو ما يكون مبدأه من صاحبه وذلك نوعان أحدهما ما تولّد
عن فعل وقع منه وله أن يفعله كمن يرمي هدفاً فأصاب إنساناً وذلك يستحق به ملامة
ما لم يقع من صاحبه تقصير في الاحتراز والثاني ما تولّد عن فعل ليس له أن يفعله كمن شرب
مسكراً فسكر فحمله سكره على أن كسر آنية أو ضرب إنساناً فإن ذلك يستحق الملامة وإن
لم يقصد كسر الإناء وضرب الإنسان فقد ارتكب محظوراً أدّى به إلى وقوع ذلك
منه فالضرب الأول يقال أخطأ وهو مخطئ والثاني يقال له خطئ فهو خاطئ ولهذا
قال أهل اللغة خطئ ما كان على سبيل العمد وأخطأ ما كان على سبيل السهو **باب**
الأسباب التي يمكن نسبة الفعل إليها أكثر الأسباب التي يحتاج إليها الفعل في وجوده عشرة ٤٥١
أشياء يحتاج في حصوله إلى فاعل يصدر عنه الفعل كالنجار وإلى عنصر يعمل فيه كالخشب
وإلى عمل كالنجر وإلى زمان وإلى مكان يعمل فيهما وإلى آلة يعمل بها كالمنجر والمنحت وإلى غرض
قريب كاتخاذ النجار الباب وإلى غرض بعيد كتحصيل نسبة وإلى مثال يعمل عليه
وتحنّكه وإلى مرشد يرشده وكل ذلك قد ينسب إليه الفعل فيقول أعطاني زيد

إذا باشر الإعطاء وأعطاني الله قال حيانا بما حدّثنا والآلة وضرب لما أخذ
من صاحب فينسب إلى السبب الأول وهو الله تعالى وإلى السبب المتأخر وهو الضرب وإلى المتوسط
وهو الجند وقال الله تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها وقال قل يتوفاكم ملك الموت الذي
وكّل بكم ثم إلى ربكم ترجعون فأسند الفعل في الأول إلى الآمر وفي الثاني إلى المباشر
له وقال الشاعر في صفة درع والنسبة الهالكي وقال كساهم محرّق فنسب الفعل
إلى عاملها وفي الثاني إلى مستعملها وقال في صفة نبال كستها ريشها مضرحية
فنسب كسوتها إلى الطائر الذي اتخذ ريشه فجعل لها وقيل يداك أوكتا وفوك
نفخ فنسب الفعل إلى الآلة المتصلة ويقال سيف قاطع فنسب إلى الآلة المنفصلة
وقيل ضرب فيصل وفاصل وطعن جائف فنسب إلى الجوف وقيل سر كاتم وعيشة
راضية فنسب إلى المفعول وقال حرماً آمناً فنسب إلى المكان وقيل يوم صائم
وليل ساهر وقال وما ليل المطي بنائم فنسبه إلى الزمان فلما كان أفعالنا على ذلك
صح في الفعل الواحد أن يثبت لأحد الأسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين
على ذلك قول الشاعر أعطيت من لم تعط وانقضى حسن اللقا حرمت من لم تحرم
فأثبت له الفعل ونفاه عنه بنظرين مختلفين ويقال هذا الخشب قطعته أنا لا السكين
ويقال قطعه السكين ولم أقطعه ويقال فلان هداه الله وهداه الرسول وهداه القرآن
وهداه فهمه فينسب إلى كل ذلك ويقال أضله الله لما كان هو السبب الأول في وجود
وجود سببه المضل ووجود الآلة فإن لم يكن هو تعالى الداعي إلى الضلال وأضله
نفسه لما كانت هي التي تركت الاحتراز وهذا فصل من تصوره لم يعرج في تثبيت المعاني
على مثلها من الألفاظ فينظر من اللفظ إلى المعنى بل ينظر في هذا من المعنى إلى اللفظ
واعلم أن من أجل هذا الذي قدمنا قال قوم من المحصلين لا شيء من الأفعال فاعله
واحد على الحقيقة إلا الله تعالى فإن فعله يستغني عن المكان والزمان والآلة والمادة

وعن مثال يحتذيه ومن عداه تعالى من الفاعلين لا بد له من كل ذلك او من بعضه ولهذا
لا يصح ان ينسب الابداع الى غيره لا حقيقة ولا مجازا ويصح ان ينسب فعل غير الله
على ما تقدم قال الشيخ الامام ابو القاسم الراغب رض هذا اخر ما قصدت لتبيينه
من هذا الفن واختم القول بحمد الله والثناء عليه والتضرع اليه في ان ينفعني واخواني
بما حررته وان يجعلني ممن يذكر فيذكر وتبصر فيبصر فاتعظ فوعظ فينتفع وقد
ايقظ فاعظم الجهل ان يامر من لا ياتمر ويزجر من لا ينزجر وان يدعي الحكمة من اذا
تلقته المحاسن لا يجتنيه واذا تلقته المساوي لا يجتويه ترى القذاة في عيون اخوانه
فيسكرها وتترك الجذع المعترض في اجفانه ولا يغيرها بنصح غيره ولغش نفسه
كمن كسا الناس من عريه وعورته للناس بادية ما ان يواريها وكالمسن يسن الحديد
ولا يقطع وكالحجر الذي يخرج منه الماء النافع فلا ينتفع هو به وقد قال عم ان الله ينصر
الدين بقوم لا خلاق لهم وندعو الله تعالى ان يجعلنا برحمته ممن استمع لنبيه عم حيث قال
بادر خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك
قبل شغلك وحياتك قبل موتك فما اعظم في القيامة الحسرة والندامة ان لم يتغمدني برحمته
التي وسعت كل شيء فيسهل يا رب المنجاة ويسر لي الجواز فقد حان حصادي ولم يفلح
فسادي وصل على خاتم النبيين محمد وآله اجمعين واجعل لي من الشافعين كمل كتاب
الذريعة الى مكارم الشريعة بحمد الله ومنه وجميل صنعه وكفايته سنة اثنى وسبعين

تم

ص ٩٠١